

نورث خآلد

رؤآفة

آفام مفرفف الشركسة

وقائف ءففة الففة المءآجرة

سرفا إلى الإسكندرففة

ءار ءون

أيام ميري الشركسية

نوران خالد: أيام ميرى الشركسية، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٢

رقم الإيداع: ٤٤٩٥ / ٢٠٢٢ - الترقيم الدولي: 9 - 305 - 806 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

© دار دَوْن

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

نوران خالد

أيام ميري الشركسية

وقائع حياة الفتاة المهاجرة سرّاً

إلى الإسكندرية

رواية

دُون



للنشر والتوزيع

الحكايات التي تنتهي لا تنتهي ما دامت قابلة لأن تُروى.

رضوى عاشور

(تذكرة)

- ما قبل البداية -

نوفمبر ١٩١٢ - البحر الأبيض المتوسط

تستيقظ ميربابا في هذا اليوم وتتأمل ما حولها محاولة إدراكه. تتذكر فجأة أنها تنام هنا على أرض هذه الغرفة لأن الطبيب قد سمح لهم بقضاء ما تبقى من الرحلة في حجرته ليكونوا أسرة واحدة بجانب أمها المستغرقة في النوم على الفراش، وبجانبها حسن الصغير ورؤية الرضيعة. تنظر بجانبها لتجد مكان أبيها خاليًا فتتهض وتتجه نحو الخارج على أطراف أصابعها حتى لا توقظ أمها أو حسن. ما إن تصبح في الدهليز حتى يشد انتباهها صوت جلبة على سطح السفينة. جلبة خفيفة رائقة من أحاديث هادئة تتخللها ضحكات خافتة. ضحكات كانت ميرري Miri قد نسيت وفع رنينها في أذنيها فيبدو لها أنها لم تسمعها منذ أمم بعيد!

تقترب من الدرج وتصدده بهدوء فيتضح لها ببطء أقدام الواقفين على السطح ثم سيقانهم وأجسادهم حتى تتطلع لوجوههم وهم يتبادلون الأحاديث مبتسمين، وعيونهم معلقة بشيء أمامهم في الأفق لا تستطيع ميرري أن تراه لقصر قامتها. تمضي مخترقة الأجساد الكثيرة المتقاربة فوق السطح وهي تتخبط في سيقانهم فيخفضون نحوها عيونًا تمتلئ بالدهشة، سرعان ما تتحول لابتسامات عريضة لتلك الطفلة التي تبدو الآن لهم رقيقة جميلة بعد أن انقضت غيوم المأساة من أمام عيونهم. لكن ميرري لا تلتفت لهم وتستمر في اختراق الأجساد باحثة عن أبيها، حتى يلوح لها أخيرًا جسده الواقف قريبًا من السور ووجهه المبتسم وهو منهمك في الحديث مع بعض الرجال المحيطين به.

تركض ميرري نحوه مسرعة دون أن تعبا بالأجساد التي ترتطم بها حتى تتوقف أمامه مباشرة فترفع يدها الصغيرة وتدق بكفها على فخذة دقات رقيقة لكنها كانت كافية لتجذب انتباهه. يخفض رأسه مندهشًا فنقع عيناه عليها وتتسع ابتسامته وهو ينحني ليحملها ويعود ليقف بها فيصبح وجهها في نفس مستوى وجوه الجميع حولها.

تمد يدها لتزيح خصلات شعرها الصفراء المتراقصة أمام عينيها فيبدو الأفق أمامها كبيرًا واضحًا، وفي نهايته نقطة صغيرة من اليابسة تقترب منها السفينة في سرعة وثبات.

- لقد عبرنا البحر كله يا ميرري ووصلنا إلى الناحية الأخرى منه!

يقولها تيمور بنبرة سعيدة متحمسة بينما لا تحرك ميرري عينيها عن نقطة اليابسة وهي تتساءل في حيرة:

- أين وصلنا يا أبي!؟

- يقولون اسمها الإسكندرية (1)

(١)

انفتح الباب الخشبي وخرج منه رجل أربعيني مستقبلاً شمساً خريفية هادئة، غمرت بأشعتها الحانية عمامته الكبيرة ووجهه الأسمر الوديع وملامحه المنمنمة المستكينة وسط هيبه لحيته وشاربه، وقد غزا شيء من الشيب أسودهما برفق وعلى استحياء.

ابتعد عن الباب خطوتين وهو يرفل (2) في جبة أنيقة بلون الشاي بالحليب. بدا من بين طرفيها المفتوحين حتى أرض الشارع قفطان سكري مُحكم حول وسطه بزئار (3) منقوش باللون الأخضر الجنزاري وخطوط رفيعة من نفس لون الجبة. خرج خلفه تباغاً ابناه: الأكبر في منتصف العشرينيات، والأصغر الذي لم يبلغ الثالثة عشرة بعد. بدوا كلاهما كنسختين منه في عمريين مختلفين وقد ورثا عنه نفس الوجه النحيف والبشرة السمراء والملاح الصغيرة. كما ارتديا مثله الملابس الأزهرية لا يفرقهما عنه سوى اختلاف لون جُبتيهما البنينيتين الداكنتين. في النهاية، خرج الابن الأوسط. بدا وكأنه حبة خرز أسقطت لتنتظم في خيط يربطها بحبات عُقد من لون آخر. تتفرد وسطه بلونها المختلف وإن ظل تناقضها واضحاً للعين، كما يناقض هو أباه وأخويه بما ورثه عن أمه من بشرة بيضاء مشربة بحمرة خفيفة ووجه يميل نحو الاككتاز. حليق إلا من شارب صغير مبروم الطرفين وقد ارتدى حُلة أوروبية سوداء مع طربوش أحمر وضعه فوق شعر بني مصفّف بعناية.

تحرك الشيخ متقدماً وسط صفيين من منازل منخفضة تعلو حوانيت (4) متواضعة نحو المسجد الذي يقف - رغم صغر حجمه - مهيباً هو والمبنى المُلحق به مثل حارس على مدخل شارع «سيدي إبراهيم». الشارع لا يختلف في شيء تقريباً عن شوارع وحواري المنطقة المحيطة به، لكنه يكتسب أهميته المميّزة كما يكتسب اسمه، من المسجد الرابض على رأسه الجنوبي، مواجهاً لمنزل الشيخ الواقع في الجهة الأخرى على الرأس الشمالي. يقف البيت الحديث نسبياً في المنتصف تماماً أعلى من صفي المنازل الممتدة على يمينه ويساره فيعطي للشارع الضيق ميزة أخرى بسبب طوابقه الأربعة التي تنتصب متفردة وسط بيوت لا يتجاوز أعلاها الطابقين.

شعت من وجه الشيخ فرحة مختلطة بشيء من حياء وقد هب الجالسون في استرخاء ما إن رآوه يمر أمام حوانيتهم التي تنتظر صلاة الجمعة بأبواب نصف مغلقة. أسرعوا يتخلون عن استرخائهم ليلقوا له بالمباركات بينما تبارت امرأتان تصادف وقوفهما لنشر الغسيل فوق سطحين متجاورين في إطلاق زغاريد رافقت الأمنيات التي وصلتته من اليمين واليسار ممثلة بحرارة صادقة «مبارك يا شيخ سلامة».. «العقبى للبخاري».. «تعيش وتزوّج إبراهيم وإحسان». رفع الشيخ سلامة كفه الرقيقة وقد تدلت منها حبات سُبحته محيياً المباركين ثم خفضها ليربت بها قرب قلبه متمعناً في رد المباركات بأحسن منها. تحتك الكريات المصنوعة من خشب الصندل فاتح اللون بباطن يده وصدرة

قبل أن يعود ليرفع كفه مرة أخرى ويكرر الأمر عدة مرات بينما لا يتوقف سيره. متقدم خطوة واحدة عن الابنين الأزهريين على يمينه والابن الأوسط على يساره، بدا وكأنه يتحرك طائرًا بجناحين من عزوة تمتد من صلبه ومحاطًا بقلوب لا يربطها به أي صلة سوى محبتها الصادقة واحترامها العميق له.

- يا سلامة.

انطلق الصوت الضعيف الحاد من الطابق الأرضي للمنزل الملاصق للمسجد فتوقف الراكب الصغير أمام دكان بقالة كالح الجدران، تمتلئ أقل من نصف رفوفه المتأكلة ببضائع متربة، حيث استقر شيخ سبعيني مكرمش الملامح يُضيق عينين فقدتا معظم بصرهما فأصبحتا لا تكثرثان للجو المعتم داخل الدكان. كان يجلس معتمدًا بكوعه على العارضة الخالية من أي بضائع أو موازين مثل تلك التي يستخدمها البقالون أمثاله، وقد ألقى برأسه الصغير على قبضته التي كورها تحت خده في لا مبالاة لا تتناسب مع لهجته الفضولية التي رمى بها سؤاله:

- علام يباركون لك يا سلامة؟!!

رفع إبراهيم الصغير عينين قلقتين رمق بهما وجه أخيه الأكبر حامد وقد انتفخ بغیظ مكتوم من هذا الرجل الذي لا يجد حرجًا في أن يتحدث مع أبيه هكذا دون لقب المشيخة أمام الشارع كله. لكنه صمت احترامًا لوجوده في حضرة أبيه الذي لم يبدُ عليه أي التفات لهذا الذي أغضب بكرهه، بل اتسعت ابتسامته وهو يمد يسراه ليربت على كتف ابنه الأوسط مجيبًا في سعادة:

- الليلة نقرأ فاتحة محمود بإذن الله.

رفع الرجل رأسه مهممًا وقد نجح الخبر في أن يذهب ببعض من لا مبالاته:

- ما شاء الله!.. وتأخذ له من بيت من بإذن الله؟

أجاب الشيخ سلامة بلهجة لم تقلح محاولاته في إخفاء شيء من تباها عالق بها:

- نأخذ له من بيت الحاج ياسين الألفي بأمر الله.

ارتفعت همهمة الرجل وقد نجح الشيخ سلامة في إثارة جُل اهتمامه:

- الحاج ياسين ليس لديه سوى بنتٍ واحدةٍ؛ منيرة.. منيرة الصغيرة كما يدلونها.

لم يرَ الرجل رأس الشيخ سلامة وهي تومئ في موافقة ولم ينتظر تأكيدًا بل استطرد بنبرة ملاعبة مرقصًا حاجبه الأيمن:

- حظك حلو يا «وَلَه».. ثم ضمَّ أصابعه الخمسة وقبلهم قبل أن يقول: «فلقة قمر».

ازداد تملل حامد في وقفته وقد بلغ غضبه مداه وهو يرى هذا الشيخ المخرف يتناول سيرة مَنْ ستكون واحدة من نساء المنزل بتلك الطريقة. أخفض محمود نظره نحو الأرض والحياء يدفع بدماء حارة صرجت وجنتيه المكتزنتين بلون أحمر كاد أن يندلق منهما وينسال على شفثيه اللتين حاول تضيق ابتسامتهما الواسعة ففشل أشدّ الفشل.

لم يجرؤ أيُّ منهم على أن يسأل الرجل من أين له أن يعرف جمال العروس الذي تحدّث عنه وهو فاقد بصره من عدة سنوات قبل أن تكبر «ويخرطها خرّاط البنات»، بينما استترد هو في اطمئنان من لا يرى عواقب ما يقوله على وجوه مَنْ يحدثهم ولا يكثر لها:

- اسمع منِّي يا «وَلَه» يا محمود.. منيرة هي ابنة الحاج ياسين الوحيدة غير ابنه الكبير بالطبع وهي الصغرى بين أولاد خالها وخالاتها وعماتها.. الكل يدلونها.. حتى الذين يكبرونها بسنوات قليلة.. طالما كانت تأتي معهم هنا وهي صغيرة ليشتروا لها من عندي حلوى وكرملة.. دلها مثلهم تكسبها يا «وَلَه».

أمعن محمود في خفض وجهه الذي أصبح مثل حبة الطماطم من شدة الحرج بينما ربت الشيخ سلامة على ظهره وهو يقول ناصحًا:

- اسمع كلام عمك يا محمود فهو أدري منا بكل أهل الحي.

انتهت أخيرًا المحادثة التي كادت أن تودي بما يملكه حامد من جلم قليل، وأن تفجّر وجه محمود بدماء الحياء والسعادة، بينما كان يتابعها إبراهيم صامتًا مستمعًا بكلام لم يسمع مثله تقريبًا من قبل. تحرك الشيخ سلامة وخلفه أبناؤه الثلاثة نحو باب المسجد في إشارة ضمنية لأهل الشارع الذين أسرعوا يكملون استعدادهم وهم ينتظرون ارتفاع صوت حامد بأذان الظهر خلال دقائق قليلة.

استقبلتهم خيوط أشعة الشمس المنسكبة من ثقوب النوافذ العالية ورائحة البخور الخفيفة التي تدفئ الأركان.

أسرع جعفر خادم المسجد يغالب عرجته بخطوات واسعة تحت جلباب أبيض يرتديه من الجمعة للجمعة ومن العيد للعيد ليلحق بحامد، الذي أخذ يدور في كل ناحية ليطمئن على فرش الأبسطه وإتمام الاستعدادات اللازمة قبل وصول المصلين. بجانب المنبر قرفص إبراهيم يقرأ في مصحف أبيه المفتوح فوق حامل خشبي كبير بينما جلس محمود قريبًا منه وعيناه معلقتان بأبيه الواقف أمام الضريح الصغير الذي يحتل معظم الجانب الأيمن للمسجد.

راقب محمود أباه بشغف وإكبار وهو يتأمل المقصورة المطلية بلون الذهب وقد بدا من خلال تلافيف نباتاتها الخشبية الممتدة حتى السقف شاهد القبر العالي. يغطيه ثوبٌ أخضر لامع ينسدل من قمته

حتى تستقر حوافه على الأرض التي تناثرت عليها قطع فضية وأحجبة يلقيها طالبو الحاجات أو موفو النذور من فجوات المقصورة. يجمع جعفر كل ذلك عندما يدخل لينظف الضريح فيضم النقود للصدقات التي تأتي للمسجد ويحرق الأحجبة. بسط الشيخ سلامة كفيه ليقرأ الفاتحة ثم مسح بهما على وجهه قبل أن يرفع عينيه ويمر بهما على اللافتة القديمة قَدَم عمره تقريبًا ويقراها في تَوَدَة كل مرة كأنه يقرأها لأول مرة «ضريح سيدي العارف بالله إبراهيم الراضي».

رفع محمود بصره نحو اللافتة مقتديًا بأبيه ومسترجعًا في رأسه تلك الحكاية القديمة. أول حكاية تفتحت عليها عيناه وتلقته مشارب وعيه وهو طفلٌ صغيرٌ حتى كانت تبدو له أحيانًا وكأنها أول التاريخ الذي ليس قبله سوى العدم. حكاية جدهم الأكبر. تلك الحكاية التي نفذت إلى أوردته وجرت فيها مختلطة بدمائه كأنها لقاح حصَّنه أبوه به هو وإخوانه من الضياع في هذه الدنيا الواسعة دون هوية يحتمون بها ودون أرض ثابتة يعودون إليها آخر كل يوم. وماذا يمكن أن يكون أكثر ثباتًا وأمنًا من انتمائهم لشجرة جذرها يمتد للشيخ إبراهيم الراضي الذي كان من تلاميذ وأتباع المرسي أبي العباس. تابعه المخلص الذي رافقه وتعلم منه حتى توفى الله معلمه في الإسكندرية فتركها ورحل مع أسرته إلى المحروسة طالبًا للرزق وساعيًا لتفقيه الناس في شؤون دينهم. عُرف بينهم بصلاحه وكراماته التي صدَّقها الكثيرون دون حتى أن يروها بعيونهم. وعندما مات دفنه مريدوه (5) على مشارف الصحراء بعيدًا عن باقي مقابرهم ووضعوا فوق قبره قبة خضراء صغيرة، واستقرت أسرته في بيت بنوه وعاشوا فيه بجانب القبر بعيدًا عن المدينة. لا يذهبون إليها وتأتي هي إليهم مع قاصدي مقام الجد الولي للدعاء والتبرك ونذر النذور.

مع مرور السنوات زحف العمران على الصحراء حتى وصل إليهم. تحولت المنطقة المحيطة إلى أحياء واصطففت المنازل على جانبي الطريق الذي يصل البيت بالقبر محولة إياه من مجرد درب صحراوي قصير إلى شارع «سيدي إبراهيم» الذي ظل قبره قائمًا وسط المنازل في شموخ وتقرُّد حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لم يكن الشيخ سلامة قد بلغ عامه الأول بعد عندما قرر أعز أصدقاء أبيه الحاج أحمد الألفي تاجر الأخشاب الثري أن يحوّل القبر إلى ضريح داخل مسجد يشيده بماله الخاص. كما بنى بجانبه ملحقًا صغيرًا لإدارة قطعة أرض اشتراها وأوقف ريعها للإنفاق على المسجد وعلى تلبية حاجات فقراء الحي وعلى مولد يقام سنويًا لسيدي إبراهيم. أوكّل الحاج أحمد الألفي أمرَ إدارة الوقفية كلها وإمامة المسجد لأبناء وأحفاد الشيخ وسلسالهم طالما أنهم يراعون الله ويحفظون القرآن ويعرفون أحكام الدين والصلاة وهو ما اعتبره الحاج أمرًا مسلمًا به في هذه الذرية الكريمة.

فتح محمود عينيه على دنيا يدعمها ويظللها وجود المسجد والوقف اللذين تولى أبوه أمرهما بعد وفاة جده مباشرة ووهب حياته وحياة عائلته كلها لهما. فالراتب المخصّص للشيخ سلامة ضمن شروط الوقفية يكفيه هو وأسرته ويفيض، حتى إنه استطاع أن يدخر مبلغًا معقولًا أنفقه منذ ثلاثة أعوام ليعيد بناء البيت القديم الذي ظل أجداده يجددونه مرة كل مائة عام تقريبًا. وعندما حان دور الشيخ حوّلته إلى عمارة من أربعة طوابق. سكن هو في شقة الطابق الأول وتزوَّج حامد في شقة الطابق الثاني وأغلقت شقتا الطابقين الثالث والرابع في انتظار أن يتزوج فيهما محمود وإبراهيم ويعمرانها مع

أبنائهما. أما إحسان الصغيرة التي وُلدت بعد إبراهيم بأربعة أعوام فقد اشترى الشيخ لها مصوغات ذهبية بنفس قيمة شقة واحدة من شقق إخوانها، تحتفظ بها زوجته في صندوق صدفي ينتظر مختبئاً في خزانة ملابسها يوم زواج صغيرتها حتى تفتحه وتلبسها المصوغات بيديها.

أفاق محمود من استغراقه، كما انتبه الشيخ سلامة، عندما ارتفع صوت حامد بأذان الظهر من فوق منذنة المسجد القصيرة. تحرك الشيخ ببطء ماراً بالصحن الذي بدأ المصلون في التوافد عليه. جلس بعضهم هنا وهناك يتبادلون التحية أو يتلون أذكاراً بصوت خافت بينما وقف البعض الآخر متناثرين يؤدون ركعتي تحية المسجد. ما إن وصل عند أول درجة من درجات المنبر حتى كان حامد قد أنهى الأذان وأخذ جسده الفارع يتضح شيئاً فشيئاً وهو يهبط الدَّرَج الحلزوني المؤدي إلى شرفة المنذنة. خرج من باب غرفة السلم الخشبي الصغير وأغلقه خلفه ثم اتجه ليجلس في الصف الأول بجانب إبراهيم ومحمود الذي أفسح لأخيه الكبير وهو يرمقه غابطاً إياه - ضمن أشياء كثيرة - على صوته الرخيم وإيقانه لرفع الأذان.

لكنه سرعان ما انصرف عن أفكاره عندما حلَّ الصمت على الصفوف التي انتظمت جالسة. ارتفع رأسه مع بقية الرؤوس التي ارتفعت لترقب الشيخ سلامة وهو يصعد ببطء مستنداً بكفه الرقيقة المتشبثة لا تزال بالسُّبحة على سور المنبر الخشبي. عندما وصل عند آخر درجة استدار وواجه الصفوف بوجه خاشع منير تعلقت به العيون في تبجيل كما تعلقت بشفتيه الرفيعتين وهما تتمتتان بأدعية خافتة لا يسمعها أحدٌ. أخذ الشيخ نفساً عميقاً ثم رفع صوته مستهلاً الخطبة بالكلمات الأثيرة «الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد...»

* * *

ما إن دخلوا من باب المنزل عائدين بعد انتهاء صلاة الجمعة، حتى هبَّت في بئر السلم نسمة رطبة مُحمَّلة برائحة زكية، استحضرت في مخيلاتهم شكل الكزبرة المطحونة وهي تططق متلائة بجانب الثوم في بحيرة ذهبية من السمن، مبشرة بغذاء قوامه الأول ملوخية أم حامد المميزة التي تتفوق بها على نساء الحي كلهن.

صعد الثلاثة الدَّرَج خلف أبيهم مارين بباب الطابق «المسروق» بين الطابقين الأرضي والأول والمُخصَّص لتخزين لوازم وحاجيات المنزل. دق الشيخ سلامة دقات خفيفة على باب شقة الطابق الأول، بينما واصل حامد صعوده إلى الطابق الثاني ليتخفف من بعض ملابسه ويغتسل قبل أن يهبط إليهم مرة أخرى ليتناول معهم طعام الغداء. فتحت إحسان الصغيرة الباب والتفتت مسرعة للحاق بمحمد الرضيع ابن حامد الذي تجالسه حتى تتفرَّغ أمه زينب لمساعدة حماتها. تأرجحت جديلتاها الرفيعتان وهي تتفافز حوله بينما يحبو هو هنا وهناك في الصالة الواسعة وسط وسائد الجلوس الملقاة في جنباتها بين أبواب الغرف. غرفتان على اليمين أقربهما لباب الشقة هي غرفة «الجلوس» المخصصة لاستقبال الضيوف والأخرى هي غرفة الشيخ سلامة وزوجته زبيدة أم حامد. وغرفتان على اليسار: غرفة محمود وإبراهيم في مواجهة غرفة «الجلوس» وغرفة إحسان في مواجهة غرفة

أبيها وأمها. أما الحمّام والمطبخ فيقعان متواجهين في الجهة الجنوبية من الشقة على الناحية الأخرى من بابها، تفصل بينهما ردهة قصيرة.

اختفى الأب وابناه في غرفتيهم بينما توجهت إحسان لتجرجر بصعوبة «الطبلية» القصيرة المسنودة على الحائط المجاور لباب الشقة وتضعها في منتصف الصالة قبل أن تسرع لتلبي نداء أمها في المطبخ. تتناول منها طبقاً من أطباق الطعام وتضعه على المائدة المنخفضة ثم تحمل محمد الصغير وتتحرك به في خطوات ثقيلة لتضعه في أبعد نقطة ممكنة. تركض إلى الداخل لتحمل طبقاً آخر وتعود به مسرعة لتضعه بجانب الطبق السابق مستغرقة نفس الوقت تقريباً الذي يستغرقه حبو الرضيع حتى يصل إلى الطبلية. ترفع يديه عن العبث بمحتوياتها في آخر لحظة وترفعه لتبعده، مكررة الأمر عدة مرات حتى تكتمل محتويات المائدة. ما إن يستقر الرجال حول «الطبلية» وقد تخففوا من بعض ملابسهم واكتفوا بالقفاطين فقط كما خلع محمود سترته ورباط عنقه حتى تخرج زبيدة من المطبخ تتبعها زينب، فتفتح الباب لزوجها الذي اكتفى بارتداء القفطان فقط هو الآخر ويسرعون بالجلوس في الأماكن الفارغة ليبدأوا في تناول الطعام.

عندما يكون الوقت صيفاً يعتمد الشيخ أن يترك شرّاعة باب المنزل الرئيسي مفتوحة كما يترك باب الشقة وأبواب الغرف ونوافذها. تلتقي تيارات الهواء الداخلة منهم مع تلك الهابطة من شخشيخة (6) السطح ذات النوافذ التي تُترك مفتوحة أيضاً فتلطف جلسة طعام كتلك، وكل جلساتهم الأخرى إن تركوا الأبواب والنوافذ مشرّعة طوال النهار. لكن في يوم خريفي معتدل كذلك اليوم فقد اكتفوا بفتح أبواب الغرف وبعض نوافذها فقط.

مضوا يتناولون طعامهم في جوٍّ من البهجة يسببها الحدث السعيد المنتظر.

وعلى الرغم من أن محمود كان المعني الأول بهذه البهجة وأكثرهم شعوراً بها إلا أنه في تلك اللحظة كان منصرفاً عنها قليلاً وقد وجّه معظم انتباهه نحو أمه زبيدة. عيناها معلقتان بشفتيها تستحاثانها على بدء الحديث الذي أوصاها أن تفتحه على مائدة الغداء لأنه لا يملك الشجاعة أو الجرأة الكافيتين للإقدام على ذلك.

أومات زبيده له خلسة قبل أن تهتف متظاهرة بالتلقائية:

- بركاتك يا سيدي إبراهيم! الوقف الذي كنت تخشى ألا يجد من يقيم عليه يا أبا حامد أصبح حامد يدير شؤنه معك وها هو محمود أنهى دراسته وأصبح مستعداً تماماً لمعاونتنا.

تبادل الشيخ سلامة وحامد نظرات مضطربة لم تغفلها عينا محمود المتحفظتان لرصد ردة فعل أبيه. بلع سلامة ما في فمه قبل أن يقول محاولاً التملص:

- يا أم حامد، محمود لا يزال صغيراً على ذلك.

بدأ شعورًا بالخذلان يتسرب إلى قلب محمود فحاول دفعه بعيدًا بأن هتف في صوت خافت متلجلج احتاج منه إلى شحذ شجاعة جبارة:

- كان حامد أصغر مني عندما بدأ يساعدك في إدارة الوقف.

أحنى حامد رأسه متظاهرًا بأن الأمر كله لا يعنيه بينما جعل الشيخ سلامة يبتسم ابتسامة عصبية وهو يقول محاولاً مداراة حرجه:

- يا بني الأمر مختلف. أنت لديك وظيفتك. فلتولّ تركيزك كله نحو تثبيت قدميك فيها ثم بعد ذلك يدبر الله الأمر.

ثم أسرع يستطرد في لهجة حاول أن يملأها بالسرور:

- كما أن اليوم ليس مناسبًا لهذه الأمور. تفرغ للاستمتاع بفرحتك فقط.

غالب محمود خيبة الأمل التي عصفت به ورسم على شفثيه ابتسامة خافتة يرد بها على سرور أبيه وربما أيضًا يرثي بها المحاولة التي فشلت كسابقاتها.

يعرف جيدًا أن الأمر لا علاقة له بسنه. فحامد لا يهمله عُمر محمود قدر ما يهمله أن تسير أمور الوقف كما يخطط لها وهو أمرٌ لا يمكن تحقيقه إلا بأن تكون سيطرته عليه شبيهة كاملة، طالما أن أباه ستظل له اليد العليا دائمًا بالتأكيد. وأبوه؟! أه كم يقتله تهربه الدائم من الموافقة على ضمه لإدارة شؤون الوقف! كم يحبه وبتيه به فخراً وشغفاً ويحسد في قلبه حامد على قربيه منه واعتماد أبيه عليه في كل شيء! كم يطعنه ذلك كما طعنته الكلمة التي سمع أبوه يقولها عنه يوم أن خذله بتعثره في الدراسة بالأزهر حتى اضطر لنقله ليتم تعليمه بمدرسة حكومية غير دينية دون أن يكون سعيداً بهذا القرار. يومها حاولت زبيدة التخفيف عنه وعللت ما حدث بأن «محمود طول عمره حظه قليل» فأجابها ساخطاً دون أن ينتبه إلى أن أذني الفتى التقطتا كلماته «حظ أم خيبة يا أم حامد؟!»

نعم خيبة. خيبته هي التي جعلته يخذل أباه الذي لم يكن لديه أمل في الحياة غير أن يتخرج أبناؤه الثلاثة من الأزهر. فهو لم يكتفِ بأن يحفظ أولاده القرآن وأن يتعلموا تعليماً بسيطاً في الكتاب حتى وإن كان ذلك كافياً لإدارة الوقف وإمامة المسجد. بل أصرَّ على أن يلتحقوا بالأزهر وأن يتموا تعليمهم به. ومنذ التحاقه بأروقة الأزهر، تقدّم إبراهيم في دراسته بشكل جيد كما يكاد حامد أن يتم دراسته ويستعد الآن لحضور امتحان درجة العالمية. بينما يظل هو الوحيد الذي يتحمل وزر تشويه البناء الذي عاش أبوه يشيده طوبة فوق طوبة بصبر وجد دون أن تتحرك أي طوبة عن موضعها المضبوط إلا طوبته هو. حتى بعد أن حصل على البكالوريا وأصبح أفندياً يعمل بوظيفة حكومية مرموقة، حتى هذا الأمر الذي ترجوه كل أسرة لأبنائها، لم يؤهله لأن يصبح موضع ثقة للمشاركة في إدارة شؤون الوقف أو حجر الأساس الذي تقوم عليه حياتهم كلها. حتى ابتهاج الشيخ سلامة

بالوظيفة والاحتفال الذي أقامه له لم يَمُحْ إحساسه بالذنب أو يغفر له الحسرة التي أصاب بها قلب أبيه. أبوه الذي يكاد يعبده بينه وبين نفسه من شدة حبه له.

انتهت جلسة الغذاء فأسرعت زينب لعمل الشاي وتقديمه. شرب الرجال أكوابهم في لهجة قبل أن يضعوا ما تخففوا منه منذ قليل ويعجلوا إلى المسجد لأداء صلاة العصر والعودة لأخذ قيلولة تعينهم على ليلة طويلة، تبدأ بصلاة المغرب والعشاء في المسجد وحلقة الذكر الأسبوعية التي تمتد بينهما قبل التوجه إلى بيت الحاج ياسين.

عاد حامد وأسرته إلى شقتهم بعد أداء صلاة العصر بينما اعتكف الباقون كلٌّ في غرفته. سادت في المنزل كلة عصرية وديعة لم يجرح هدوءها سوى صوت خطوات أم حامد وهي تقطع الصالة نحو غرفتها حاملة الصينية النحاسية المخصصة لأدوات القهوة. تركتها على الطاولة المنخفضة الموضوعية في مواجهة خزانة الملابس قبل أن تدور حولها لتجلس على الأريكة الإسطنبولية المنقوشة بورود أرجوانية مزهزة.

تأمل الشيخ سلامة الممدد في فراشه من بين مشغولات الظهر النحاسية زبيدة المنهمكة في صنع القهوة، جسدها واكتنازه المحبب ووجهها الصبوح تحت رأسها المربوط بالمنديل الأبيض ذي الحواف المطرزة بخيوط زرقاء. ذكرته جلستها بتلك الجلسة المشابهة التي بدأ فيها كل شيء قبل أقل من شهر تقريباً.

كان يوم الجمعة أيضاً لكنه بدأ مبكراً جداً. استيقظ كل أهل الشارع مع صلاة الفجر ليشهدوا ذبح العجل الذي أحضره الشيخ سلامة احتفالاً بحصول محمود على البكالوريا وتعيينه في وظيفة جيدة بنظارة الحقانية. نعم لم يكن ذلك ما يبتغيه إلا أنه وجد فيه نعمة كبيرة وسبباً لحمد الله وشكره عن طريق إطعام فقراء الحي.

تعالت الزغاريد من النوافذ والشرفات طوال اليوم فشكلت خلفية مبهجة للحركة النشطة التي دبت في الشارع. شارك الرجال في تعبئة بعض قطع اللحم ولفها في أوراق بنية لتوزيعها نيئة على الفقراء الذين أتوا من الشوارع البعيدة. أما الجزء الباقي فتم توزيعه على البيوت حيث شاركت نساء الشارع كلهن في مساعدة أم حامد في سلق اللحم وصنع المرق وأطباق الفتة الكبيرة. بعد صلاة الجمعة مُدَّ السماط أمام المسجد كمائدة رحمن تأخرت قليلاً بعد رمضان وأسرع الرجال ينقلون ما تم طهيته في المنازل ماعدا ما يكفي غداء كل بيت ساهم في إعداد الوليمة، أو بمعنى آخر كل بيوت الشارع. أما الشيخ سلامة فقد وقف يرقب بعينين دامعتين فرحتين الفقراء المنهمكين في تناول الطعام وهو يحمد الله الذي أعانه على تحمّل تكاليف هذا اليوم من دخله الخاص وأن جعله سبباً للفرحة التي عمت أهل الشارع كله والشوارع المحيطة.

بعد صلاة العصر، ترك الشيخ سلامة حامد يُشرف على رفع المائدة ودفع الأجور للقصاب (Z) والرجال الذين أتى بهم للخدمة وعاد ليستريح وينعم بعصرية هادئة في البيت. كان يجلس متربّعاً على أريكة غرفته الإسطنبولية المزهزة ممسكاً بسُبحته المتدلّية في حجره ومنهمكاً في التسبيح

والحوقة(8) عندما فاتحته زبيدة لأول مرة. لم ترفع عينيها عن متابعة القهوة وهي تنضح ببطء على نار الموقد الصغير عندما أَلقت بسؤالها غير المتوقع:

- ألم يأن الأوان لتزويج محمود يا أبا حامد؟

ابتسم الشيخ سلامة دون أن يرفع عينيه عن سُبحته وهو يجيها بنبرة مازحة:

- يا أم حامد الولد حصل لتوه على الوظيفة.. اتركه يثبت قدميه فيها أولاً.

- قدماه ثابتتان ببركة دعائك وأمر الله.. ما دخل هذا بذاك؟!

أوماً الشيخ سلامة وهو يقول ظاناً أنها تتحدث عن الأمر بشكل عارض وأنه يستطيع أن يغلقه بكلمتين:

- نبحت له في الأيام القادمة عن عروس مناسبة بإذن الله.

- لا داعي لذلك.. أنا وجدتها.

عادت ابتسامته تتسع وهو يقول في تعجب ساخر:

- أرى أنك بدأتِ البحث دون أن تقولي لي بل وأنهيته أيضاً!

صبت زبيدة القهوة في الفنجان ثم ناولته للشيخ سلامة وهي تقول متصنعة البراءة:

- لم أبحث ولم أفعل أي شيء.. ألقاها الله في طريقي.

تعالت ضحكات الشيخ وهو يرفع الفنجان نحو شفثيه ثم تساءل وقد ازداد تعجبه:

- ما شاء الله! وهل يلقي الله بالعرائس في الطُّرقات يا أم حامد؟!

لملمت شفثيها نحو جانب فمها الأيمن، وقالت في مكر وهي تقلب البن والسكر في الكنجة مرة أخرى بعد أن ملأتها من ماء القُلة الموضوعة خلفها تحت الشباك لتصنع قهوة لنفسها:

- مسم!.. ومن أين لي أن أعرف أنني سأراها في ماتم الحاج عمران رحمه الله؟!

أسرع الشيخ سلامة يرفع فنجانها عن شفثيه ويزرد ما في فمه من قهوة حتى لا يلفظها بسبب نوبة الضحك التي أصابته وهو يقول في عدم تصديق:

- مآتم يا أم حامد؟! هل ذهبت لتأخذي بخاطر زوجته أم لتبحثي لابنك عن عروس؟!!

أجابته زبيدة في نبرة حادة وهي تراه لا يأخذ الأمر بالجدية المناسبة:

- قلت لك لم أبحث ولم أفعل! دخلت المآتم فوجدتها تجلس بجانب أمها. ربك والحق لم أميزها في البداية لكنني أدركت أنها هي عندما أكدت لي ابنة الحاج عمران أنها منيرة ابنة صديقك الحاج ياسين.

رفع الشيخ سلامة عينيه نحوها وتلاشت ابتسامته، وقد نجحت زبيدة أخيراً في أن تستحوذ على اهتمامه:

- الحاج ياسين ابن الحاج أحمد الألفي تاجر الأخشاب؟!!

تحمست زبيدة وهي ترى الجدية تقفز بين قسماته:

- هو بعينه.. ابن صديق أبيك رحمهما الله وصاحب الفضل في إقامة الوقف.

شرد الشيخ سلامة مفكراً ولم يرد عليها فأسرعت تستحثه في توجس:

- ماذا يا أبا حامد؟! هل لديك اعتراض على الحاج ياسين؟!!

أسرع يحرك رأسه نافياً وهو يجيب:

- لا، معاذ الله.. لا يوجد ما يعيب الحاج ياسين أو أسرته بل بالعكس.. لكن...

صمت لحظات يفكر في كلماته قبل أن ينطقها ببطء:

- أنت تعرفين أن الحاج ياسين تاجر ميسور.. نحن الحمد لله مستورون.. لكننا أيضاً لا نستطيع أن نوفر للبنات نفس الحياة التي تعيشها في بيت أبيها.

رفعت زبيدة الكنجة عن الموقد ووضعتها على الطاولة قبل أن يكتمل نضجها حتى لا يشتت انتباهها شيء. التفتت نحوه بجذعها وهي تجيب في انفعال:

- لا تقل ذلك يا أبا حامد!.. ابنك راتبه كبير سيكون كله لبيته.. سيكفيه ويفيض.. شقته موجودة.. أربع غرف واسعة ستكون لها وحدها.. الحمد لله أنك لم تسمع كلام من قالوا لك أن تبني بيتاً واحداً كبيراً نتشارك فيه ويعيش كل ابن مع زوجته في غرفة.. ونحن لن نبخل على مصروفات الزواج.. سنقيم أفضل عُرسٍ وندفع مهراً مُعتبراً والأثاث سنصنعه عند أفضل نجار.. غرفة جلوس ومائدة طعام أفرنجية بكراسي وسرير نحاسي كبير.

لاقت كلماتها بداخله شيئاً من الاستحسان، لا يعلم هل لأنها استطاعت أن تقنعه وتغيّر وجهة نظره أم أن الفكرة كانت قد أعجبتة بالفعل وأرادها بشدة لكنه احتاج فقط من يدفعه نحوها ويهوّنها في عينيه. رفع فنجانه نحو شفّتيه وشرب الثمالة الباقية وهو يقول مفكراً في استسلام:

- يفعل الله ما يريد.

خرج الرجال قبل المغرب قاصدين المسجد ماعدا محمود الذي أعفاه أبوه من صلاتها في جماعة ومن حضور حلقة الذكر حتى يُتم استعداده لزيارة الليلة. لكنه أمره أن يلحق بهم ليصلي معهم العشاء قبل أن ينطلقوا جميعاً من المسجد إلى بيت الحاج ياسين.

جلست إحسان على طرف فراشها تراقب من باب غرفتها المفتوح أمها وقد وضعت على كتفيها شالاً أسود يقيها برودة المساء، وأمسكت بيدها المبخرة الفخارية تتصاعد منها سلاسل دخان البخور متلوية في الهواء. أخذت زبيدة تدور بها في أنحاء المنزل تتمتم في سرها بالتعاويذ والآيات القرآنية وتدعو الله أن يتم الأمر على خير كما بدأ على خير.

بعد جلستها مع زوجها بعدة أيام تفاجأ محمود بأبيه يدعوه إلى غرفته ليختلي به هو وأمه. جلس أمامهما في جلاباب المنزل الرمادي بوجه تملؤه الحيرة. عادة ما يجتمع أبوه بهم جميعاً أو يختلي بحامد فقط إن أراد أن يدبر أمراً من أمور البيت أو الوقف الهامة في جلسات لا يُدعى إليها أبداً كالعادة. أو تختلي أمه بإبراهيم أو بإحسان لتلاطفهما عندما تكون راقئة المزاج ملاطفات حُرّم منها مبكراً في الخامسة من عمره بسبب ولادة أخيه الصغير ثم أخته وتوجيه التداييل كله لهما فقط.

أما أن يختليا به هو وحده فهو أمرٌ غريبٌ أثار حيرته وشيئاً من قلقه. لكن سرعان ما زال كل ذلك عندما فاتحاه في أمر الزواج وعرضاً عليه العروس المختارة والتي سمع الجميع كثيراً عن جمالها من قبل. اندفعت الدماء نحو وجهه وأذنيه ورقصت المفاجأة في عينيه بينما ارتجف جسده لوهلة من موجة فرح طاغية ضربت قلبه لكنه أسرع مجاهداً ليخفي كل ذلك. أخفض عينيه سريعاً محاولاً السيطرة على نفسه وتمتم بكلمات معناها أنه يقبل ما يقرّره أبوه ويختاره.

ذهب بعدها الشيخ سلامة إلى الحاج ياسين في وكالته وفتحته في الأمر. تهلل وجه الحاج ياسين ووافق على الفور بل وأبدى ترحيباً شديداً حتى إنه كاد أن يضع يده في يد الشيخ سلامة ويقراً معه الفاتحة وسط ألواح الخشب وتحت أنظار العاملين والزبائن! لكنّ الشيخ سلامة أوقفه برفقٍ واستسمحه أن يؤجل ذلك إلى الزيارة الرسمية التي حدّد معه موعدها حتى يستطيع أخذ رأي العروس كما أوجب الشرع، ولتكون قراءة الفاتحة في حضور العريس وأخويه وأخي العروس الذي يعمل مع أبيه لكنه لم يكن موجوداً في الوكالة في ذلك اليوم. بعد يومين اصطحبت زبيدة زينب زوجة ابنها وذهبتا لتأدية زيارة نسائية تقليدية تسبق زيارة الرجال على الرغم من أنها لم يكن لها

داع. فالزيجة لم تتم عن طريق خاطبة أو وسيطة وأم العريس تعرف العروس جيداً ولا تحتاج إلى أن ترى شكلها، لكنها قامت بالزيارة على أي حالٍ مراعاة للأصول.

عندما فتحت زبيدة باب الغرفة بهدوء وقعت عيناها على محمود الواقف أمام المرأة يضبط رابطة عنقه والمنديل الموضوع في جيبه مستغرقاً في دندنة جدلة (9) «انظر لخلك قلبه داب.. ياما الهوى لوع.. وكيد زمانك واتهنى». توقف عندما رأى انعكاسها في المرأة وهي تدلف من الباب. التفت مضطرباً يحاول إخفاء سعادته لكن عينيه فضحتاه في هذه اللحظة كما فضحتا فرحته يوم أن فاتحه أبوه. اقتربت منه مبتسمة ومدت يدها تدور بها بالمبخرة حول رأسه وكتفيه وهي تقرأ «قل أعوذ برب الفلق» ثلاث مرات وهو مستسلم لها تماماً.

التفتت ووضعت المبخرة بجانب الفراش قبل أن تعود لتقف في مواجهته. مدت يديها تضبط له سترته وهي تتمتم في شبهة مواساة:

- لا يحزنك ما قاله أبوك على الغداء.

انكشيت ابتسامة محمود بعد أن ذكرته أمه بما كادت فرحته أن تنسيه إياه من خيبة أمل، فاستطردت هي محاولة تبرير الأمر برفق:

- أبوك يريدك أن تثبت قدميك في وظيفتك. حتى الزواج كان يخاف أن يشغلك. هو قال لي ذلك صدقني.

قالتها بحرارة وصدق متذرة بينها وبين نفسها بأن الشيخ سلامة كان قد قال لها ذلك بالفعل يوم أن فاتحته في أمر منيرة.

- لن يمر الكثير من الوقت قبل أن يستعين بك أبوك وأخوك إن شاء الله.

أوما محمود متظاهراً بتصديقها وباطنه يتساءل عن إمكانية حدوث ذلك تحت أنف حامد، وعن احتمالات تحققه بالفعل في مستقبل ستريد سيطرة أخيه الكبير فيه أكثر من الحاضر. لكنه لم يرد أن يفسد على نفسه فرحة يومه خاصة وأنه كان يعلم أنه لن يفعل أي شيء حيال الأمر أكثر مما فعل ولن يقدم على أي مواجهات ولا حتى مع حامد نفسه. فليستسلم للأمر الواقع ولينعم بالنعمة الأخرى التي وهبه الله إياها دون حتى أن يجروء على أن يحلم بها!

عادت زبيدة تجذب انتباهه مرة أخرى وهي تتصحه بحب:

- اجلس هناك منتصب الظهر مرفوع الرأس لكن باحترام وتوقير.. اشرب وكل مما يقدمونه لك باعتدال.. لا تتحدث في حضرة أبيك واتركه هو يفتح الحاج ياسين في أمر قراءة الفاتحة ويتفق على كل شيء.. كبره أمام أصهارك يكبرونه ويكبرونك طوال العمر.

أوما محمود ملبياً أوامرها ثم رفع كفها ولثمه في امتنان. ربتت زبيدة على كتفه بحب قبل أن تنتبه فجأة على صوت حامد يرفع أذان العشاء من المسجد فأسرت تستحث محمود ليلحق بالصلاة. تبعته بالمبخرة في يدها حتى خرج من باب الشقة فخرجت خلفه ووقفت مستندة على سور السلم ترقبه وهو يهبط الدرجات حتى خرج من باب المنزل ولسانها يلهج بآيات تضرعت بها إلى الله ليقيه شر العين والحسد. رباه كم تريد لهذا الأمر أن يتم! تدعو الله من كل قلبها أن ينصف محمود الذي تؤمن في قرارة نفسها أنه لم يفرح من قبل كما ينبغي.

إذا كان لم يستطع أن يحقق حلم أبيه ويحصل على العالمية من الأزهر، فاجعل يا رب الوظيفة تعويضاً مناسباً وطريقاً يمهد له مصاهرة مرموقة كمصاهرة الحاج ياسين. اجعل يا رب منيرة، التي انتقيتها له بنفسه لكل مميزاتها وخاصة جمالها الساحر، اجعلها الثقل الذي يعتدل به ميزان حظ أقل أبنائي حظاً في الدنيا.

بعد الصلاة حث أربعتهم الخطى نحو بيت الحاج ياسين الواقع على الناحية الأخرى من الحي بعيداً عن البيوت الفقيرة والمتوسطة. لم يكن أحد منهم يرتاد هذه الجهة لذا أصابهم انبهار شديد عندما وقعت أنظارهم على السرايا المكونة من طابقين مثل سرايات الباشوات، ولكنها كانت أصغر منهن وتختلف عنهن بواجهات ذات طراز إسلامي تمتلئ بمشربيات غاية في الفن والجمال.

تقاجأوا جميعاً عندما وجدوا الحاج ياسين قد خرج ليستقبلهم بنفسه عند الباب الخارجي لسور حديقة متوسطة تحيط بالبيت. تقدم نحوهم بجسد ضئيل يكاد يختبئ وسط طيات عباءته الأنيقة وقد تهلل وجهه النحيف وأشرقت عيناه الغائرتين وهو يطلق عبارات الترحيب والحفاوة. صافح الشيخ سلامة بحرارة ولم يفلت يده بل شدَّ عليها وجذبه نحو الدرجات الرخامية المفضية للباب الخشبي الكبير. تبع الشيخ سلامة الحاج ياسين محاولاً إخفاء دهشته من إمعان الرجل في الحفاوة هكذا كما سار خلفه محمود وأخواه موزعين بين دهشة مثل دهشته وانبهار بلغ مداه مع اجتيازهم لباب المنزل. فما إن عبروا العتبة حتى وجدوا أنفسهم في صالة كبيرة محاطة من كل ناحية بالأوجه الداخلية للمشربيات التي رأوها من الخارج توازي مجالس صغيرة متلاصقة. كل مجلس مكون من طاقم أثاث أفرنجي أو عربي لم يروا في جمال أي منهم من قبل، كما لم يروا شيئاً يمتلك فخامة مثل تلك التي تمتلكها الثريات والستائر والتحف الموضوعة في كل ركن.

قادهم الحاج ياسين نحو أبعد مجلس عن باب خشبي مزخرف كبير يقع على يمينهم ليفصل الصالة الواسعة عن باقي محتويات الطابق الأول. أصرَّ على أن يجلس الشيخ سلامة على الأريكة الكبيرة في صدر المجلس بينما استقر هو على كرسيٍّ على يمينه وحامد ومحمود وإبراهيم على يساره. كاد الحرج أن يفتك بالشيخ سلامة لكنه أطاع الحاج ياسين وجلس حيث أراده أن يجلس وما كاد يفعل حتى دخل عليهم ابن الحاج الكبير. أحمد الذي ورث اسمه عن جده مُنشئ الوقفية كما ورث ما لم يرثه الحاج ياسين مع تجارة الأخشاب من طول فارغ وبنيان قوي. رحب بهم أحمد بكلمات قليلة قبل أن يجلس بجانب أبيه بينما انفتح الباب الكبير فتحة ضئيلة سمحت بخروج خادم وضعت أمامهم صينية فضية تمتلئ بأكواب منقوشة بمنمنات ذهبية وتمرعة بشراب الكركدية والتمر هندي. مضى

الثلاثة أبناء ومعهم أحمد يحتسون أكوابهم متلذذين في صمت بينما دار حديث يمتلئ بالمودة بين الحاج والشيخ دون أن يجروا أي من الصغار على المشاركة فيه. لم ينطق أحد سوى محمود لمرة واحدة فقط حينما بارك له الحاج ياسين على الوظيفة التي حصل عليها. حاول محمود جاهداً أن يحافظ على رباطة جأشه (10) وهو يرد في حياء على المباركة بكلمتين خافتين لم يسمعهما الحاج الذي استطرد حديثه متحسراً على الحظ الذي لم يسعف الفتى ليلتحق بهذا العمل أثناء تولي سعد باشا للنظارة، قبل أن يدعو على من كان السبب في إقدامه على تقديم استقالته قبل أشهر قليلة.

- كان يجب أن يستقيل يا حاج ياسين بعدما حاولوا اعتقال محمد بك فريد ردّ الله غيبته.

- لا يا شيخ سلامة.. لم يكن هذا سبب استقالته الرئيسي.. بل حكاية الأميرة التي تزوجت الخواجة النصراني!

صمت الحاج ياسين هنيهة ليرى الفضول في أعينهم. وعندما تم له ذلك ولاحظت نظرات التساؤل في أهداقهم اضطجع في كرسيه ومضى يحكي في خيلاء:

- هذا أمرٌ لا يعرفه كثيرون. وصلني من خلال دوائر معارفي الممتدة عن أميرة من العائلة تزوجت من رجل روسي مسيحي فحرمها الخديو عباس من لقبها وصادر أموالها ووضعها تحت حراسة قيم من رجاله كان أيضاً صديقاً للورد كتشنر المعتمد البريطاني.

ثم أخذ يبطئ في نبرته كأنه يشرح لهم ما يصعب على أمثالهم فهمه:

- ولما كانت هذه القوامة تشترط تقديم حسابات عن أملاك الأميرة المعزولة وأموالها إلى نظارة الحقانية فقد راجعها سعد باشا ولاحظ فيها خللاً لا يستهان به فأوصى بعزل هذا الرجل عن القوامة. بالطبع لم يعجب ذلك اللورد واستغل الأمر ليتخلص من سعد باشا وكتب إلى لندن يحاول إجراجه أمام حكومتها فحدث بينهما خلاف شديد ومشادة انتهت بتقديم سعد باشا استقالته من النظارة غاضباً.

لم ينتظر الحاج ياسين تعليقا على كلامه معتبراً إياه أمراً موثقاً فيه ومسلماً به وصل إليه من خلال معارفه من الأعيان والباشوات. بل انتقل سريعاً للحديث عن حكايات أخرى عن سعد باشا قصّها عليه حمو ابنه أحمد، عين أعيان وجه بحري.

كان الشيخ سلامة يستمع إلى قصص الحاج ياسين ومفاخراته المسالمة صامتاً ومبتسماً بينما لم يستطع محمود أن يمنع نفسه من مطالعة الرجل في إعجاب وانبهار. معقول هذا الرجل الثري ذو النفوذ الممتد وكل هذا الهيلمان سيصبح حماه هو؟! وجد نفسه يرمق حامد بحركة لا إرادية. هل يلوح في عينيه شيء من الغيرة؟ أم أن هذا الغرور الذي ملأ محمود فجأة لأول مرة في حياته هو من يهيب له ذلك؟ لم يهتم كثيراً بالتمحص لمعرفة الحقيقة بل ترك الزهو يملأ نفسه ويرفعه إلى درجات من السعادة لم يعرفها من قبل. بالطبع هو الوحيد في هذه العائلة الذي يصلح لمصاهرة كتلك. يصلح أكثر حتى من حامد نفسه. فليكن نصيب حامد في الوقف وفي أبيه أفضل من نصيبه لكنه سيظل دائماً

يفوق الجميع بما جعله أهلاً لمصاهرة كتلك. حتى إبراهيم الذي سيكبر يوماً ما ليصير نسخة من حامد، سيظل محمود متفوقاً عليه بذلك وبزوجة لم ولن تُرزق الأسرة بمتثلها. منيرة. يتذوق محمود الاسم بينه وبين نفسه بقلب خافق. كم يشتاق إليها قبل حتى أن يراها أو يعرفها!

أخفض الحاج ياسين صوته واقترب من الشيخ سلامة كأنه بذلك يخفي ما يقوله عن الأبناء:

- لكنهم قالوا لي أيضاً إن سعد باشا يلعب والعياذ بالله القمار في نادي محمد علي!

جفل الشيخ سلامة مما قاله الحاج ياسين. شعر بالحرَج لأنه لا يحب الخوض في مثل هذه الأحاديث فأسرع يجيب محاولاً تجاوز الأمر بذكاء:

- العِلم عند الله.. وحسابه عند الله..

ثم ابتسم وغيَّر دفة الحديث مسرعاً بلباقة:

- دعنا من كلام السياسة.. فلنتحدث فيما أتينا اليوم من أجله.

عاد الحاج ياسين بجذعه معتدلاً في جلسته واستمع مبتسماً للشيخ سلامة وهو يستطرد قائلاً:

- جننا اليوم يا حاج ياسين لنتشرف بطلب ابنتك لابننا محمود.

أجاب الحاج ياسين مسرعاً:

- بل الشرف لي أنا يا شيخ سلامة.. وهل كنتُ أحلم في يوم أن ترتبط ذريتي بالذرية الكريمة للشرفاء أحفاد ولي الله الصالح؟!.. منيرة ابنتكم نجهزها ونوصلها حتى باب بيتكم.. وإن أردت أن يتزوج الأولاد معنا هنا فيا أهلاً وسهلاً.. البيت واسع كما ترى حتى زواج أحمد معنا لم يُضيقه علينا..

انبرى الشيخ سلامة دون وعي منه يعيد في حماس ما قالت له زبيدة من قبل:

- لا يا حاج ياسين.. محمود لديه شفته.. صحيح هي معنا في نفس البيت لكنها منفصلة في طابق وحدها.. سيكون لابنتك شقتها الخاصة.. أربع غرف وصالة.

- والله يا شيخ سلامة يكفيننا أنها ستعيش مع فضيلتك تحت سقف واحد وتتكرم هي وأبنؤها بجوارك وجوار جدك الشريف.

اتسعت ابتسامة الشيخ سلامة وارتاحت قسماته بعد أن اطمأن لقبول الحاج ياسين بأمر الزواج في شقة محمود. همَّ باستكمال حديثه لكنه فوجئ بالحاج يمد يديه الاثنتين ليقبض على يمين الشيخ وهو

يهتف في حماس:

- نقرأ الفاتحة إذًا!

بوغت الشيخ سلامة. اتسعت حدقاته وصمت للحظات غير قادر على استجماع كلماته قبل أن يتمالك نفسه ويتساءل بنبرة مدهوشة:

- ألن نتقق على المهر والتفاصيل أولاً يا حاج؟!

- والله لا حديث في أي شيء آخر إلا بعد الفاتحة والعشاء. نحن لن نختلف أبداً يا شيخ سلامة!

قالها في إصرار ومضى يقرأ الفاتحة متمسكاً بيد الشيخ بينما تبعه ابنه أحمد الذي رفع يديه وأخذ يقرأ الفاتحة مع أبيه! حدق فيهما الشيخ للحظة مأخوذاً ثم استسلم للأمر وأشار لأولاده برأسه وبدأ في قراءة الفاتحة ومعه حامد وإبراهيم المتقاجان ومحمود الذي كاد قلبه أن ينفجر فرحاً من شدة الدق.

ما إن أنهوا قراءة الفاتحة حتى دوت من داخل البيت زغرودة عالية لا يعلم أحدٌ من هي صاحبها ولا كيف استطاعت أن تضبط زغروتها بدقة مع اللحظة التي تلت «ولا الضالين آمين»!

لم يفلت الحاج ياسين يد الشيخ سلامة بل نهض وجذبه نحو الباب الكبير وخلفهم الأولاد حتى عبروه ليجدوا أنفسهم في غرفة طعام فسيحة تجاوزت بإبهارها كل ما سبق تلك اللحظة من انبهار. أخذوا يتأملون مشدوهين المائدة البيضاوية الطويلة والاثنا عشر كرسيًا بزخارفهم الفخمة المحفورة في خشب بني داكن يلتمع متألقاً تحت شموع ثريا كريستالية عملاقة، وبين قطع السجاد المعلقة على الحائطين المتواجهين من أول الباب الكبير الذي دخلوا منه حتى باب آخر صغير على الناحية الأخرى من الغرفة. سيعرفون بعد ذلك أن هذا الباب يؤدي إلى بهو صغير يتوسط السلم المؤدي إلى الطابق الثاني وباب المطبخ وباب الحمام الذي سيغسلون فيه أيديهم.

أسرع الشيخ سلامة يفوت الفرصة على الحاج ياسين ويجلس على أول كرسي على اليمين تاركًا رأس المائدة للحاج الذي لم يجادله كثيرًا لانشغاله بطريقة أخرى للاحتفاء بهم. مدَّ يديه يمزق بهما أوصال الديك الرومي المستقر على عرش المائدة محاطًا بأوانٍ تمتلئ بشتى صنوف الأطعمة الشهية. تجاهل الحاج تمامًا الأدوات الفضية كأنه لا يراها بالمرّة. فهو لم يشتريها ليستعملها بل اشتراها فقط ليزين بها حول أطباق الضيوف الخزفية التي مضى يلقي فيها بيديه قطع اللحم مصاحبًا إياها بكل كلمات الترحيب والحضّ على تناول المزيد من الطعام، بينما كان الشيخ سلامة يتابعه بنصف انتباه وقد تملكت من نصفه الآخر تلك النشوة التي تصاحب اطمئنانًا حل بعد قلق.

قلق صاحبه لأيام قضاها يكتم خوفه من أن يقابل الحاج ياسين طلب المصاهرة بالرفض ويتعذب بضيق انتابه لمجرد شعوره بهذا الخوف من الأساس. لم يكن يحتاج إلى أن يزور الرجل في بيته ليدرك الفارق المادي بين الأسرتين حتى وإن كان نسبُه ومكانته الاجتماعية يضاهايان أسرة الحاج

ياسين بل ويتفوقان عليها. كان كلام زبيدة مطمئناً لكنه أيضاً لم يكن كافياً ليهدي اضطرابه. ذهب للحاج يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى. يفكر مع كل خطوة في التراجع. يضع تصورات شتى للطريقة التي يمكن أن يبتلع بها الرفض، ويداري جرح كرامته أمام أسرته، ويجبر كسرة خاطر زبيدة ومحمود الذي لم ير في عينيه سعادة كتلك التي رآها يوم أن فاتحه في الأمر وخلال الأيام التي تلتها رغم محاولات الفتى المستميتة لإخفائها.

لذلك جاءت موافقة الحاج ياسين كماء بارد ينزل على جمرات تتوهج تحت الرماد فتطفئ النيران قبل اشتعالها. وكل هذا الترحيب والتشرف والحفاوة المبالغ فيها يقابلهم الشيخ سلامة بالحرص وبالتواضع كما يفعل دائماً. لكنه لا يستطيع مهما حاول أن يمنع شعوراً مريحاً بالإطراء والفخر ينتشر متمهلاً في شرايينه ويعيد إليه سكينته.

نظر حوله منتبهاً من شروده وقد اتسعت ابتسامته وهو يتذكر ما قالت له زوجته زبيدة من قبل. يتعجب! كيف استطاعت تلك المرأة بفطرتها وذكائها أن تدرك أن أثاث ابنة الحاج ياسين يجب أن يشتمل على «مائدة طعام أفرنجية بكراس» قبل حتى أن تزور البيت الذي تربت فيه البنت وترى ذلك بعينيها؟! كيف لم تفترض بتلقائية الاكتفاء بصنع «طبليّة» طعام كما هو الحال في شقتهم وشقة حامد؟! وكيف مرت عليه كلماتها دون أن يفطن لوجاهتها!؟

«عفارم يا أم حامد!» تتمم لنفسه مبتسماً في رضا وهو يمد يده ويلتقط قطعة لحم من تُلّ صغيرٍ ملاً به الحاج ياسين الطبق الخزفي الأنيق الموضوع أمامه.

فتحت ميري عينيها في فزع من يرى كابوساً لأول مرة في حياته! لم تكن معتادة على الأحلام السيئة حد الهلع. لكن للأسف يا صغيرة، ولت ليالي النوم الهادئ المطمئن منذ هذا اليوم المشؤم. عندما اجتاحت قريتهم في جنوب بلغاريا فرقة من جيش بلغاريا النظامي وعصاباتهم غير النظامية عاثوا فيها قتلاً وتدميراً قاصدين تطهيرها ممن اعتبرونهم رعايا السلطان العثماني للتخلص من حكمه ومواطنيه. الفواجع التي عاشتها حُفرت بالنار في مخيلة ستظل تستدعيها دائماً كلما أغمضت عينيها كما استدعتها خلال نومتها تلك. بل وأيضاً تلاعبت بتفاصيلها بقسوة من يتكئ على جرحها وخوفها الكبير متعمداً. رأت المذبحة كلها مرة أخرى. مرت أمام وعيها المستغرق في النوم مشاهد الفزع والقتل والهروب في سرعة قيل أن يتباطأ لا وعيها أمام مشهدين بعينهما. مشهد هذا الجندي البلغاري المخيف وهو يغتصب خالتها بوحشية قبل أن يرديها قتيلاً برصاصة بين عينيها. لكن بدلاً من وجه خالتها رقية رأت وجه أمها فاطمة على جثة عارية ورأس غارقة في الدماء. ومشهد زوج خالتها وهو يحمل آيسل، ابنة خالتها وصديقة عمرها الوحيدة، مبتعداً ليعود بها إلى بلده إسطنبول فكان كأنه انتزع قطعة من قلبها الصغير آنذاك حين حرّمها من مثلها الأعلى وصديقتها الوحيدة. لكن بدلاً من آيسل كانت رقية، أختها الرضيعة التي وضعتها أمها على متن السفينة الكبيرة وأسماها على اسم خالتها الراحلة، هي من يحملها زوج خالتها وبيتعد بها!

تملّك منها وسواس مُلح دفعها لأن تعتدل من نومتها في الفراش الذي تشاركه مع أمها وأخيها حسن وأختها رقية. مدت أصابعها الصغيرة ومررتها برفق أمام فتحتي أنف أمها ولم تبعدهم إلا عندما اطمأنت بمسهما للزفير والشهيق المنتظمين. ثم التفتت نحو رقية النائمة في أقمطتها. مسحت بيدها على جبهتها الصغيرة فأصابتها راحة شديدة عندما اختلجت قسّمات الصغيرة لملمس اليد الباردة دون أن تستيقظ.

زفرت ميري أخيراً وبدأ انتباهها يتحول إلى استعادة تفاصيل الغرفة حولها. مضت تتأمل الحوائط والفراش والملاءات البيضاء. كل شيء أبيض حتى باب الغرفة. لا يكسر بحر البياض هذا سوى الستائر الزرقاء المعلقة أمام النافذة الكبيرة حيث كان يقف أبوها تيمور وقد أولاها مؤخرة رأسه ذات الشعر البني الغزير.

كان مستغرقاً تماماً في تأمل الشارع المار أسفل نوافذ مستشفى الأزرارطة التي قاموا بتسكين اللاجئين الجدد الناجين من محاولات الإبادة في أوروبا بها مؤقتاً. لم ينتبه لاستيقاظها وحركتها. عيناه معلقتان بمراقبة خليط المطربشين والمعممين وذوي القبعات الذين لم يمنعم تنافرهم في جنسياتهم وأشكالهم من التحرك بتناسق فيما يُشبه لوحة فنية حية. هذه المدينة العجيبة التي تظلل سماءها كل هذا الاختلاف بأريحية شديدة، هل يستطيع هو وأسرته أن يتدخلوا مع نسيجها المزركش أصلاً بكل هذه الألوان حتى يصبحوا جزءاً أصيلاً منها؟! يجب أن يفعلوا ذلك. ليس ثمة أمل أو حتى

رغبة في العودة. ليس ثمة انتماء لذلك الوطن القاسي الذي لم يكن من البداية سوى منفى لأبائه الشراكسة بعد أن تم تهجيرهم عنوة على يد الإمبراطورية الروسية من منطقة القوقاز في آسيا الصغرى منتصف القرن التاسع عشر. البداية في أوطان جديدة هي إذا لعنة أصابت أجيال عائلته منذ القدم! لكن هذه اللعنة يجب أن تنتهي هنا على يده. يجب أن يطأها بقدميه ويمضي بإصرار نحو الانتماء لهذا الوطن الجديد الذي اختاره القدر لهم، فيصبح جزءاً منه وشبيهاً بأهله حتى وإن كلفه ذلك مزيداً من التخلّيات المعنوية.

- إبي صباحلار!

التفت تيمور في دهشة عندما طرقت أذنيه تحية الصباح بالتركية على غير توقع! وقعت عيناه على من فتح الباب ودلف إلى الحجرة دون أن يشعر به بسبب استغراقه في أفكاره. شاب ثلاثيني ذو وجه أبيض وسيم يزينه شارب أسود مبروم بعناية، يرتدي معطف الأطباء الأبيض وطربوشاً أحمر قصيراً وتزين شفثيه ابتسامة متوددة.

- تتحدث التركية؟!

تساءل تيمور مستغرباً باللغة العربية فتحوّلت ابتسامة الطبيب من التودد إلى الدهشة وهو يهتف:

- ما شاء الله! لم يمر على وجودك بمصر سوى أيام قليلة وبدأت تتحدث العربية بلهجة تكاد تكون أصيلة! يا لها من موهبة!

لم ينتظر إجابة بل اتجه نحو الفراش حيث كانت ميري جالسة لا تزال تحملق فيه بعينيها المحمرتين وقد صنع شعرها هالة متشعثة حول وجهها. مد الطبيب يده ليفحص رقية، لكنه تراجع عندما فوجئ بها تمد يدها بحركة لا إرادية واضعة إياها على الرضیعة في توجس كأنها تحميها من خطر مجهول! عاد الطبيب يبتسم مرة أخرى متفهماً قبل أن يطلب من تيمور بالتركية أن يشرح لميري أنه سيفحصها فقط ليتأكد أنها بخير. أطاعه تيمور والدهشة لم تزايله بعد من هذا الطبيب الذي يبادر بالتحدث معه بالتركية بثقة شديدة وقد بدا أنه يعلم بوضوح إجابة تيمور لهذه اللغة! أنهى الطبيب فحصه سريعاً تحت عيني ميري المتوترتين. وما إن رفع يديه عن رقية حتى أسرع هي تحملها بصعوبة وتضعها على فخذيها ليزداد اطمئنانها عليها.

توجه الطبيب نحو تيمور وهو يقول مبتسماً:

- الصغيرة بخير لكن يبدو أن أمها مستغرقة في النوم. سأعود لفحصها عندما تستيقظ.

أوماً تيمور بنفس التوجس الذي أسرع الطبيب يحاول تبديده بأن مدّ نحوه يده ليصافحه معرّفاً نفسه:

- أنا الدكتور مراد. أعمل هنا في مستشفى الأزاريطة. أبي مصري وأمّي تركية لذا أتحدث التركية والعربية بطلاقة. قالوا لي إنك من القلائل الذين وصلوا من أوروبا ويتحدثون التركية بشكل جيد جدًا. لذا جنّت إليك وكلّي أمل في أن يصدق ذلك؛ فمنذ أن توفت أمّي رحمها الله وأنا لا أجد مجالاً للتحدث بلغتها إلا مع معارف لا ألتقي بهم كثيرًا.

ابتسم تيمور وقد بدأت حقيقة الوضع تتضح أمام عينيه. أجابه في ثقة لا تخلو من زهو بلغة تركية سليمة:

- نعم أتحدث التركية جيدًا بسبب تعاملّي مع جنود الحامية العثمانية في قريتنا وإن كنت أنا أفضل من الباقين. كثيرًا ما ترجمت لهم وعنهم. وإلى جانب البلغارية بالطبع، فأنا أتحدث أيضًا الكثير من لغة أجدادي الشراكسة. أنا الوحيد في العائلة الذي استطاع التقاط اللغة بشكل سليم من أبي وأمّي وخالي رحمهم الله.

مط الدكتور مراد شفّته في إعجاب:

- وأنت أيضًا الوحيد ممن وصلوا إلى الإسكندرية مؤخرًا من استطاع التقاط بعض الكلمات العربية ونطقها بشكل سليم! يبدو أنك موهوب جدًا في اللغات يا تيمور أفندي! كيف لم تلتفت إلى ذلك من قبل؟! قبل!

صمت تيمور لوهلة محاولاً استيعاب ما قيل. كيف لم ينتبه من قبل إلى موهبته هذه بالفعل؟! يجب أن يستغلها جيدًا في عملية تغلغله واندماجه في بلده الجديد هذا.

- على العموم سيكون تعلمك للغة العربية سريعًا إن شاء الله لأنها قريبة من التركية. تعالّ معي من فضلك يا تيمور أفندي.

تبعه تيمور نحو الخارج مأخوذًا بلباقته والهيبة التي تشع حول حضوره بينما كانت ميري تتابع كل ما يحدث دون فهم كبير حتى اختفى أبوها خلف باب الحجرة. مضت بضع دقائق كاد القلق خلالها أن يمزقها. أصبحت لا تظمن إلا عندما يكونون جميعهم حولها وملتصقين بها. يجب ألا يفترقوا أبدًا عن بعضهم البعض وألا يغيب أحد منهم عن ناظرها بعد اليوم.

استيقظت أمها ومعها حسن مع عودة تيمور مرة أخرى. مدّ حسن يديه الصغيرتين نحو أبيه فحمله تيمور بينما كانت فاطمة تتساءل في توجس:

- أين كنت يا تيمور؟! هل من جديد؟!!

أومأ تيمور وهو يقول بلهجة من لا يعرف أخيرًا ما يخبرها به أم شر:

- نعم. أوجدوا لنا مساكن نستقر بها وسننتقل لبيتنا الجديد اليوم.

لم يكن هذا البيت الجديد سوى غرفة واحدة في بيت متهالك بحارة بمنطقة بحري. سلمهم الغرفة موظف بجمعية أجنبية تأسست لمساعدة النازحين واللاجئين عن طريق تسكينهم وسط المصريين والجاليات الأجنبية الأخرى، وإيجاد وظائف بسيطة لهم تدرّ أدنى دخلٍ ممكن. البيت مكوّن من طابقين، في كل طابق ثلاث غرف. تسكن كل غرفة منهم عائلة من العائلات الكثيرة التي وصلت معهم على متن السفينة وينشركون حمامًا واحدًا لكل طابقٍ. أما الغرفة نفسها فلم تحتو سوى على أريكة قديمة، وحشيات رقيقة يفرشون ببعضهن الأرض ويتغطون بالبعض الآخر، بالإضافة إلى موقدٍ قديمٍ وبعض أدوات الطهي على طاولة صغيرة في ردهة ملحقة بالغرفة يفصلها عنها ستارة رثة.

لم تجد فاطمة نفسها في حاجة إلى معرفة لغة أهل البلد من العرب لأنها اكتفت بالتعامل مع جيرانها بلغتهم الأصلية. وكانت ميري أيضًا مثل أمها. اكتفت بالتواصل واللعب - في بعض الأحيان - مع أطفال هذه الأسر في الفناء الذي يتوسط عُرف الطابق الأرضي حيث كانت غرفتهم. لكنها في معظم الوقت كانت تفضّل الجلوس على الأريكة تحت النافذة المطلّة على الحارة. تتلّهي بمتابعة المارة، أو مشاهدة الأطفال في لعبهم من خلال باب الغرفة المفتوح بينما رقية نائمة في حجرها. هذه هي أكثر لحظات حياتها اطمئنانًا. أمها في الردهة الداخلية تعد الطعام ومعها حسن وهي هنا وفي حضنها رقية لا تفارقها أبدًا. لم يكن يقلقها سوى خروج أبيها كل يوم للعمل الذي أوجده له الجمعية في الميناء. ودت لو طلبت منه البقاء معهم وعدم الخروج أبدًا حيث لا تعرف ما الذي يمكن أن يواجهه أو يختطفه منهم. والأدهى أنه كان يخرج أحيانًا في المساء ليقابل الطبيب مراد هذا على المقهى القريب.

لم تتقطع علاقة الطبيب مراد بهم بعد ذهابهم من المستشفى بل بالعكس. توطدت أواصر صداقته بتيومر مع مرور الأيام حيث كانا يتقابلان كثيرًا في المقهى. يمضيان الوقت في تبادل الأحاديث بخليط من التركية والعربية مما ساعد تيومر كثيرًا على التقدم السريع في الإلمام باللغة الجديدة. كما أنه كان يجد في مراد ملاذًا يستطيع أن يفضي له بشكواه من عمل الميناء الشاق وأجره الضئيل وحينه لحقله وعمله الأصلي بالزراعة، حتى أتت شكواه بثمارها في هذا اليوم الذي زَف إليه فيه مراد الخبر الذي قلب حياتهم كلها وغيرها للأبد.

في هذا اليوم كانت ميري تحمل رقية كعادتها وتدور بها في الغرفة لتهددها وتلاعبها عندما استوقفها صوت دقات على باب الغرفة. نهض تيومر وفتح الباب فتهللت أساريره (11) ما إن وجد مراد أمامه والذي أسرع يهتف معتذرًا:

- اعذرني يا تيومر أفندي لم أستطع الانتظار لموعد لقائنا في المساء. سأسبقك إلى المقهى. الحق بي بسرعة لدي خبر عاجل لك.

- لا لا، أرجوك تفضل هنا. فاطمة وحسن عند جارتنا وأنا أجالس البنيتين.

تململ مراد للحظة في حرج قبل أن يخطو مستسلماً داخل الغرفة. جلس على الأريكة ثم خلع طربوشه والتفت ليضعه بجانبه فوقعت عيناه على ميري وهي تقف قريبة منه ورقية على كتفها. خاطبها مداعباً بتركية بسيطة وهو يصاحبها بإشارات يديه حتى تستطيع أن تفهمه:

- كيف حالك يا ميري؟ أكلماً رأيتك وجدتك تحملين رقية؟ إنها ثقيلة عليك!

ابتسمت ميري في خجل وإن ظلت متمسرة مكانها وهي تحرك جسدها حركة هلالية يميناً ويساراً لتهدد رقية وتتخلص في نفس الوقت من توتر أصابها به حياؤها. أسرع تيمور يحاول إنهاء الموقف وقد كاد الفضول أن يقتله:

- تعالي يا ميري اجلسي هنا.

أطاعته وتحركت لتجلس على طرف الأريكة بجانبها ورقية لا تزال بين يديها. تابعت هذا الحديث الذي دار بخليط من التركية والعربية دون أن تفهم منه شيئاً، والذي بدأ عندما التقت مراد نحو تيمور وقد عادت الحماسة تحنل صوته وملامحه:

- جبتك بما كنت تريده بالضبط. عمل بالزراعة.

مطّ تيمور شفثيه في عدم تصديق:

- حقاً؟! ألم تقل إن هذا الأمر صعب هنا في الإسكندرية؟!!

- حظك من السماء. فرصة عمل عن طريق واحد من معارف أمي يعمل لدى جودت باشا روستو التاجر التركي الثري. أتعرفه؟

- نعم بالطبع! أسمع اسمه كثيراً في الميناء.

فأوما مراد متفهماً:

- نعم بالتأكيد فتجارته تملأ أرصفة الميناء. المهم، جودت باشا لديه قصر هنا في الإسكندرية. غير قصره في القاهرة بالطبع. ينتقل هو وأسرته بينهما. هم الآن هنا في الإسكندرية. توفي الله عامل حديقة قصر الإسكندرية فجأة وهو يريد الآن جنازياً جديداً للاهتمام بالحديقة. ما رأيك؟!!

اتسعت حدقتا تيمور في فرحة تقافزت بين قسماته وهو يهتف في سعادة:

- رأيي؟! موافق بالطبع! عمل في الزراعة وعند رجل يتحدث التركية! لا أعرف كيف أشكر يا مراد أفندي!

قالها تيمور بصدق حقيقي بينما أخذ مراد ينفي متحرّجًا عن نفسه أيّ فضلٍ ثم أسرع بالرحيل بعد أن اتفق معه على اصطحابه في الغد لمقابلة الباشا واستلام عمله الجديد.

لم تفهم ميري سرّ ابتهاج أبيها المفاجئ إلا عندما عادت أمها وأعاد تيمور على مسامعها كل ما حدث بلغتهم البلغارية. فرحت لفرحهم واستبشارهم لكنها أيضًا لم تستطع أن تمنع إحساسًا بالتوتر داهمها بسبب هذا العمل الجديد الذي سيستدعي غيابه عنهم لفترات أطول مما يغيبها في عمله الحالي.

في اليوم التالي، خرج تيمور في الصباح وظلت فاطمة طوال اليوم تدور داعية الله أن يتم الأمر على خير. لم يكن انصراف ذهنها عنهم بسبب قلقها ليؤثر كثيرًا فيهم. فحسن لم يكن يحتاج سوى إغلاق باب الغرفة جيدًا وتركه يهيم في أركانها تحت ملاحظتهما العابرة. بينما كان إصرار ميري على تولي مسؤوليات رقية الرضيعة كلها وملازمتها كظلها حتى في أوقات الرضاعة، كان مفيدًا في هذه الحالة إذ لم تكن فاطمة تحتاج لعمل أي شيء وقد نصّبت ابنتها الكبيرة نفسها أمًا ثانية للرضيعة رغم طفولتها وأعوامها التسع.

عاد تيمور في المساء وقد تضاعفت سعادته وهو يحمل أطعمة ومستلزمات اشتراها لهم بعد أن منحه الباشا جزءًا من أول أجر له. انشغلت فاطمة ومعها ميري بفتح الأكياس وتقليب محتوياتها بشغف بينما يدا حسن تلاحقهما بالعبث وتيمور يعلق في فرحة وزهو على كل شيء ما إن يفضّون أغلفته.

رفعت ميري رأسها فجأة وهي تهتف في احتجاج:

- ما هذا يا أبي؟! أحضرت ثوبًا واحدًا فقط لرقية؟!

فأجابها تيمور مندهشًا من احتجاجها:

- أحضرت لكلٍ منا قطعة ملابس واحدة مؤقتًا!

فاستطردت بنفس الغضب الطفولي:

- نعم لكنها صغيرة ومسكينة وتبلل نفسها كثيرًا!

فابتسم تيمور معلقًا بنفس الدهشة:

- حسن يبلل نفسه أيضًا!

ألجم منطقه لسانها للحظات لكنها عادت تتغلب على إفحامه لها في عناد:

- إذاً تحضر لهما ملابس أكثر! ورقية أكثر من حسن لأنها مسكينة أكثر منه!

فتمتم تيمور محاولاً مناورتها بلؤم ليجعلها تتراجع عن موقفها فيضحك منها:

- هذا يعني أن نحضر أطعمة وحلوى أقل!

ولدهشته هتقت الصغيرة بنفس العناد:

- لا يههم! المهم ألا تؤذى رقية.

تدخلت فاطمة في الحديث ضاحكة:

- لا تقلقي يا ميري. اتفقت مع جار اتنا على أن نشترى أقمشة ونذهب لخياطة يونانية ماهرة تحيك لنا جميعاً ملابس جديدة كثيرة وبتكلفة قليلة.

أجابها تيمور مماًزحاً:

- سترتدين مثل ملابس المصريات؟

فأحنت فاطمة وجهها المبتسم وهي تجيبه على استحياء:

- لا أظن أنني سأستطيع تغطية وجهي كما أن هذه الملاءة السوداء التي يلفن بها أجسادهن يصعب التحكم بها للغاية.

ثم رفعت رأسها وهي تستكمل في حماس:

- اتفقنا أن نجعل الخياطة تحيك لنا أثواباً تشبه جلابيب المصريات ومعها أوشحة من نفس اللون لتغطية رؤوسنا. ما رأيك؟!

ابتسم تيمور لحماسها. لم يكن يههمه ما سترتديه قدر ما أهمه أن يراها تحاول الاندماج في هذا المجتمع الجديد. ربما لا تستميت في ذلك كما يفعل هو. فهي لا تحاول تعلم العربية مثله وتكتفي تماماً بجيرانها من الوطن القديم دون محاولة مصادقة أو حتى التعرف على باقي سكان الحارة من المصريات. لكنه استبشر بأمر الملابس هذا خيراً. ساوره أمل بأن تخرج فاطمة من شرنقتها تلك بالتدريج وتعاونه على فصل الأولاد عن الماضي تماماً، وإدماجهم في بلدهم الجديد حتى لا يعانون آلام الغربة والاعتراب كما عاناها هو وهي وأباؤهما من قبل طوال عمرهم. كان رجاؤه في ذلك كبيراً حتى إنه أنساه أن تلك البداية الجديدة المنفصلة عن كل ما مضى في كل شيء، ربما ستكون

يسيرة بالنسبة لحسن ورقية، لكنها لن تكون كذلك أبدأ بالنسبة لميري. فستان (12) بين ذاكرة لم تتفتح بعد وذاكرة امتلأ قاعها حال تفتحها بطبقة ثقيلة من ماء الفواجع الأسن بدلاً من قطرات الندى الرقيقة.

تسربت الأيام سريعة بين انشغالهم بترتيبات العرس والزواج، حتى وجد الأبناء الثلاثة أنفسهم يوماً يجلسون في المسجد بعد صلاة العشاء، ينتظرون أن يفرغ الشيخ سلامة من تلاوة وردّه ليعودوا إلى المنزل ويخلدوا للنوم مبكرين استعداداً ليوم الزفاف الحافل في الغد. نهضوا أخيراً عندما رأوه ينهض في مكانه. التفت وهمّ بالتحرك نحوهم لكنه توقف فجأة وشرّد ببصره مفكراً للحظاتٍ قبل أن يرفع عينيه ويطلب منهم أن يسبقوه إلى البيت على أن يلحق هو بهم بعد دقائق. تبادل ثلاثتهم نظرات مستغربة لكنهم امتثلوا لأمره ومضوا خارجين من باب المسجد بينما توقف جعفر عن إطفاء القناديل المعلقة والمتناثرة في تجاويف الحوائط بعدما أدرك أن الشيخ ينوي البقاء لفعل شيء لم يستطع توقعه.

عاد الشيخ سلامة ليستدير متوجّهاً مرة أخرى نحو القبلة والدهشة التي كانت تسيطر عليه قد بدأت في التراجع ليحل محلها بداخله شعور مُلحّ بالذنب. كيف فاته أن يؤدي ركعتي استخارة قبل أن يتخذ خطوات جادة في زيجة محمود مثلما فعل في زيجة حامد؟! هل أنساه الشيطان أم نفسه العجولة التي تظن أنها عليمّة ببواطن الأمور ومتيقنة من كل شيء؟! أم تراه انشغاله بتوجسه من رفض الحاج ياسين واعتبار الأمر فاجعة إن حدث قد ملك عليه أمر نفسه وأنساها كل احتمال آخر؟! وهل يمكن أن يتدارك الأمر ويؤدي الصلاة الآن وعقد القران سيتم خلال سويعات قليلة والبنات ستزف لبيتهن غداً؟! وماذا إن لم يكن في الأمر خير، هل تكشف عنه الصلاة ويفسد العرس؟! ساورت نفسه خاطرة خبيثة بالألا يؤدي الصلاة حتى لا يقع أي شر في الغد طالما أن أوانها قد فات بالفعل. لكنه نفّس رأسه سريعاً واستعاذ بالله من وساوس الشيطان.

لا يفوت أوان الصلاة أبداً يا سلامة! أدّ واجبك حتى وإن كنت متأخراً ومقصراً فيه وتوكل على الله فهو حسبك. فالذي ذكرك بعد كل هذه الغفلة قد فعل ذلك لحكمة لا يعلمها إلا هو وستعلمها أنت في وقتها.

راقب جعفر الشيخ سلامة وهو يرفع يديه بتكبيرة الإحرام ويؤدي الركعة الأولى ثم الثانية، ويجلس للنشهد قبل أن يعود ليسجد مرة أخرى. جبهته ملتصقة بالأرض وعيناه مغمضتان وقلبه يستشعر كل كلمة في الدعاء. اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب. يستكمل باقي الدعاء ويعيده ثلاث مرات بنفس الخشوع قبل أن يقوم من سجوده ويسلم وقد أحس أنه أدى واجبه وخفت إحساسه بالذنب.

عاد جعفر يدور بخطواته البطيئة العرجاء يستكمل إطفاء القناديل ولملمة الأيسطة عندما وجد الشيخ سلامة ينهي الصلاة - التي لم يستطع أن يحيط علماً بداعيها - قبل أن ينهض ويستدير خارجاً من المسجد. وما إن وطأت قدماه أرض الشارع حتى انشغل فكره تماماً بتفاصيل اليوم التالي وما يجب

عليه إنجازة قبل حفل الزفاف. عاد إلى البيت وتناول عشاءه معهم وهو يلاطف إحسان ثم تناول كوباً من النعناع الدافئ وخذل إلى النوم مطمئناً وقد نسي الأمر برمته.

لم يعلم كم مضى من الوقت وهو نائم عندما انتثر فجأة مستيقظاً من هلع مبهم يضرب صدره! جلس في فراشه يحاول التقاط أنفاسه المبهورة والسيطرة على ضربة فزع لم يكن يعلم أنها الأولى إلا عندما عاجلته فجأة تلك الثانية. أرهف سمعه وزاغت عيناه وهو يحاول عبثاً أن يكذب ما أدركته نفسه بأن الصوت الذي ظن أنه مجرد بقايا هلوسات تصاحبه من عمق نومه، قد أخذ يتضح ويتبلور في نبرة حامد وهي تملو من آخر الشارع بأذان الفجر!

شعرت زبيدة به فأسرعت تعتدل من نومتها وهي ترمقه في قلق بعينين محمرتين من أثر الاستيقاظ المفاجئ:

- بسم الله الرحمن الرحيم! ماذا بك يا سلامة؟!

حاول أن يصيغ ما به في جملة متماسكة فلم يجد ما يقوله. لم يسعفه لسانه الذي شعر به مترخياً في حلقه الجاف مثل أطرافه ومفاصله التي انتشر بها خدرٌ أحسَّ من قوته أنه يشل حركته بالكامل. ابتلع ريقاً لا وجود له وتمتم بصعوبة وبصوت خافت مبجوح:

- ناوليني شربة ماء يا زبيدة أكرمك الله!

- عيني يا خوي!

أسرعت تزيح الغطاء من على جسدها وتدب بقدميها معاً على الأرض دبة اهتزت لها الشبكة التي تحمل حشية السرير وأعمدته النحاسية. تناولت القلة الفخارية من صينيته القابعة مكانها تحت الشباك ودارت حول الفراش حتى أصبحت في مواجهة الشيخ سلامة الذي تناول منها القلة ودلق منها رشفة صغيرة في فمه ابتلعها ببطء فرطبت فمه وهدأت روعه قليلاً. أخذت منه زبيدة القلة وأعادتها إلى مكانها قبل أن ترجع لتجلس في مواجهته وتضع يديها على ركبتيه وهي تهتف محاولة طمأنة نفسها وإياه:

- استعذ بالله من الشيطان يا أبا حامد.. كابوس وراح لحاله.

نظر الشيخ سلامة في عينيها صامتاً لوهلة قبل أن يجيبها بنبرة مترددة:

- لم يكن كابوساً يا زبيدة.. لم أر شيئاً في منامي.

كان صوت حامد يصدح فوقهما بشهادة أن محمداً رسول الله عندما عقدت زبيدة حاجبيها وهي تهتف في توجس:

- ماذا تقصد يا سلامة؟! هل تخفي عني شيئاً؟!

ظلَّ الشيخ سلامة يرمقها في حيرة. أيقول لها على ما في نفسه وينقل لها قلقاً يلازمها طوال هذا اليوم الهام؟ أم يكتم الأمر في صدره ولا يشاركها إياه؟! لكنه لن يتحمل ذلك. لن يقدر على حمل هذا العبء الثقيل وحده دون أن يتخفف منه ولو قليلاً معها هي بالذات، الوحيدة التي يعلم جيداً أنها ستفهمه. وها هي عيناها تتفذان بداخل أعماقه فيشعر وكأنها عرفت كل شيء بالفعل قبل أن يهتف به هو في صوت متلجلج:

- البارحة.. بعد صلاة العشاء.. تذكرت أنني لم أؤدِّ صلاة استخارة على زيجة محمود.. فأدبت الركعتين واستغفرت الله على تأخيري وغفلتي.. ثم عدت وقد نسيت الأمر تماماً.. لكن...

توقف عن حديثه. لم يجد ما يقوله أكثر من ذلك ليصيغ ما يشعر به، لكنه لم يكن في حاجة لأن يقول أي شيء آخر. كما توقع، كانت زبيدة هي الوحيدة القادرة على فهم فداحة ما حدث وتفهم شعوره نحوه. عادت بجذعها نحو الخلف وقد شحِبَ وجهها واتسعت حدقتها في دعر. وضعت أنامل قلقة على ذقنها وهي تهتف بصوت مبوح ونبرة باترة لخصت بها الأمر كله:

- صليت استخارة بعد العشاء واستيقظت فرعاً مع أذان الفجر!

فرغ حامد من الأذان فساد بينهما صمت مشحون مثقل بوقع آخر جملة قالتها زبيدة. كانت تعرف أن زوجها لم يكن يوماً ولياً أو صاحب كرامات مثل جده الأكبر. لكنها أيضاً كانت تعلم أنه لم يعدم قَطُّ سبل الوصل التي تمده ليس فقط برجاحة عقل وبصيرة نافذة تدركان جوهر الأشياء بالأسباب. ولكن أيضاً بحدس لا يخطئ وبسريرة شفاقة نقية تدرك وتستشعر حتى وإن لم تتوافر كل الأسباب، فما بالك إن جاء هذا الحدس بعد صلاة عمد بها إلى الاستخارة والسؤال!

قطعت زبيدة الصمت أخيراً متسائلة في تردُّد:

- أحب أن أقول للولدين أن يبلغا حامد بأن يوم هو الصلاة اليوم؟

- لا لا، سأذهب للمسجد

قالها وهو يزيج الغطاء ويهبط من الفراش مسرعاً. لم يشعر في يوم أنه بحاجة إلى الصلاة قدر ما شعر في هذه اللحظة. أراد أن يركض نحو الجامع. يسجد ويتضرع متذلاً إلى الله بدعاء يصارع القدر ويرده ويصرف عنهم شر القضاء إن كان في الأمر شرٌّ. أما إن لم يكن هناك بُدٌّ من المكتوب فليدعُ الله أن يترفق بهم في وقوعه وأن يلطف بهم فيما جرت به المقادير.

- أحضري لي ثلاث تمرات وأنا سأتوضأ في سرعة.

قالها الشيخ سلامة وهو يتجه نحو الحمّام مارًا بالصلاة التي وقف في وسطها محمود وإبراهيم يرمقانه بدهشة. كانا معتادين على أن يسبق حامد الجميع قبل الفجر بقليل ليتفقد تجهيزات جعفر ويرفع الأذان لكن لم يكن أبوهما ليتأخر قط عن الاستيقاظ واللاحاق به. أما أن يكون حامد قد أنهى الأذان بالفعل والشيخ سلامة لم يتوضأ بعد فهو شيء لم يحدث قط من قبل.

تبعته زبيدة نحو الصلاة بخطوات متناقلة وطلبت من الفتّيان باقتضاب أن يسبقا أباهما وهو سيلحق بهما ليؤم الصلاة بعد دقائق. نفذ محمود وإبراهيم ما طلبته منهما وخرجا من الشقة والدهشة لم تزالهما بعد. زفرت زبيدة محاولة إخراج ولو جزء يسير مما يعتمل في صدرها. مدت يديها لتخلص المنديل المتشابك مع أطراف شعرها البني القصير ذي التجعيدات المتوسطة، وتعيد ربطه فوق رأسها وهي تتجه نحو المطبخ واجمة.

أشعلت مصباح الكيروسين ووضعت على طاولة خشبية ملتصقة بالحائط بجانب الباب ثم انحنت لتخرج من تحتها قفةً خوصية صغيرة مغطاة بمنديل أبيض كبير. رفعت طرفه كاشفةً عما يحويه من حبات تمر بنية داكنة أخذت يدها تعمل بينهم في آلية. تضغط على بعض الحبات بشكل عشوائي لتنتقي أكثرهم لينًا وتضع منه في وعاء فخاري صغير بينما كان بصرها شاردًا تمامًا. عقلها يقلب كل الاحتمالات السيئة التي لم يكن أي منها ليقبل عن مصيبة أو فضيحة أو حسرة ما تصيبهم جميعًا وأولهم ابنها قليل الحظ هذا الذي تعرف أن السعادة تكاد الآن أن ترفعه وتعلق به في السماء.

* * *

ظلّ القلق ملازمًا لها أثناء تناولهم طعام الإفطار. خرج بعده الرجال كلٌّ إلى شأنه، وعادت زينب بابنها إلى شقتها، بينما بقيت هي تدور في أرجاء البيت منشغلة تمامًا عن إحسان وغارقة في تفكيرها الذي لم يصرفها عنه قليلاً إلا دقائق خفيفة على باب الشقة قرب الثامنة صباحًا. ما إن فتحت الباب حتى أطلقت المرأة التي كانت تقف خلفه زغرودة طويلة رنانة قبل أن ترفع البرقع «الشبيكة» كاشفة عن وجه أبيض مدملج ذوعينين مرسومتين بالكحل وذقن مزين بوشم فلاحى دقيق. دخلت مسرعة وأخذت زبيدة بين ذراعيها بحميمية كادت أن تخفيها بين تلافيف الجسد الأربعيني الممتلىء، الذي لم يفلح الجلباب الفضاض ولا الملاء السوداء الملفوفة حوله في أن يخفي تقسيماته بينما هتفت صاحبتة بنبرة عالية مرحة:

- صباح الخير يا أم العريس.. مبارك بإذن الله.. العقبى لإبراهيم وإحسان.

حاولت زبيدة أن تغالب قلقها بابتسامة صغيرة وهي تقول ملاطفة:

- يا مسك الليل أين نحن وزواج إحسان!؟

شهقت مسك الليل وهي تهتف مستنكرة:

- ابصقيها من فمك يا أم حامد.. كلها سنة والثانية تكبر وتدور وتأتي لها سعيدة الخاطبة بالعرسان صفوف أمام الباب وأتي أنا لأجليها يوم عرسها كما سأجلي الآن عروس ابنك وأجعلها له مثل قطعة الحلاوة السمسمية.

قالتها وهي تغمز لزبيدة التي أجابتها متذكرة:

- صحيح!.. ألم يكن من المفترض أن تكوني الآن في بيت الحاج ياسين من أجل جلوة العروس والحنة؟!!

- سأخرج من هنا وأذهب إلى هناك على الفور، لكنني مررت لأصطحب معي اسم النبي حارسها إحسان كما وعدتها.

عقدت زبيدة حاجبها وهي تهتف في استنكار:

- ما هذا يا مسك الليل؟! ماذا يقول الناس؟! اعتذرت عن دعوة نرجس أم العروس للذهاب أنا وزينب وأرسلت الطفلة الصغيرة لتراقب ما يحدث وتحكيه لي؟!!

- ماذا تقولين يا أم حامد؟! أصبحتم أسرة واحدة ولا داعي لهذا التفكير؟! هم أجّلوا الحنة إلى نهار يوم الزفاف بدلاً من اليوم السابق عليه بسبب عمّة العروس التي وصلت متأخرة من السفر وأنت وزينب اضطررتما للاعتذار عن الدعوة بسبب ترتيبات شقة العروس والعريس وعشاؤهما. سببهم مفهوم وعذرك مقبول، لكن ما ذنب الصغيرة؟! وحياة حبيبك النبي دعيها تأتي معي تلعب مع العيال.

زفرت زبيدة في استسلام:

- اللهم صل وسلم عليك يا نبي، أمري إلى الله.. يا إحسان.

لم تكذ تنطق باسمها حتى خرجت إحسان من غرفتها نحوهما راكضة، بعد أن قضت الدقائق القليلة الماضية تتسمع للحديث الدائر بالخارج وهي تدعو الله أن تتمكن مسك الليل من إقناع أمها باصطحابها معها. رمقتها زبيدة في دهشة وهي تراها تقف أمامها مرتدية الثوب الذي حاكته لها من أجل العرس وقد مشطت شعرها في جديلتين متناسقتين وأعدت نفسها تمامًا للخروج!

- ما شاء الله! لم تنتظري حتى موافقتي!

أطلقت مسك الليل ضحكة طويلة وهي تقترب من إحسان وتحنني لتحضنها هاتفة في سعادة:

- الله أكبر عليها نبيهة ما شاء الله!

أخفت إحسان وجهها المحمر بالخجل من أمها ودفنته بين ثديي مسك الليل العامرين. غمرها الصدر باكتنازه وبخليط الروائح الزكية التي تتصوع من صُرة قماشية ملفوفة حول وسطها ومخفية بعناية تحت ملاءتها. هنا تستقر زجاجات العطور والزيوت وأحقاق الدهانات والمكاحل المملوءة بالكحل الذي صنعه بنفسها وباقي المواد والأدوات التي تحتاجها لتجميل العروس وتزيينها وتجهيزها لليلة عُرسها.

هبطت إحسان سلم المنزل وكفها الصغير مخفي في اليد الناعمة البضة يلاحقها صوت أمها بأوامر وتعليمات كثيرة لتظل هادئة ومهذبة طوال اليوم. اخترقت الشوارع متجرجرة خلف مسك الليل التي كانت تسير بخطوات بطيئة واثقة فيهتز وسطها وتصطك حوله أدواتها مصدره طقطقات خفيفة تزيدها اختيالاً وفخراً. فخر وصل قمته اليوم بعدما طُلبت بالاسم لبيت الحاج ياسين الألفي، الذي قرر أن يأتي لابنته مثل بنات الباشوات بمجموعة من الماشطات الماهرات لجليها وتحنينها قبل الزفاف وعلى رأسهن مسك الليل، أمهر وأفضل ماشطة في الحي كله، وربما أيضاً في القاهرة كلها، بعدما بدأت نساء البكوات يطلبنها ولم يتبق لها سوى خطوة واحدة وتدخل سرايات الباشوات لتزين نساءهن وبناتهن.

ما إن اقتربتا من منزل الحاج ياسين حتى لاحت لهما الحركة الدؤوبة في الحديقة حيث انتشر رجال منهمكين في فرش المقاعد والموائد وتعليق المصابيح والزينات والأعلام، لكن لم يكن أي من ذلك ليصرف إحسان عن السببين الرئيسيين لفضولها الذي أتى بها من أول اليوم لأنها لم تستطع الصبر عليه حتى موعد حفل الزفاف في المساء: العروس التي حكمت أمها عن جمالها، والبيت الكبير الذي قضى إبراهيم كل الأيام الماضية يصف لها إبهاره وفخامته.

دخلت مسك الليل الصالة الواسعة تسبقها زغاريدها العالية فانضمت لها الكثير من النساء المنتشرات في أرجاء المنزل بالسنتهن اللاتي تراقصن في أفواههن بمهارة. أسرع نرجس أم العروس تستقبلها بحفاوة قبل أن تتادي على ابنتها. أقبلت الفتاة من الناحية الأخرى للصالة محاطة ببنات خالاتها اللاتي كن يشبهنها إلى حد كبير لكن لم تكن أي منهن تمتلك هذا الجمال الدقيق الناعم في كل تفاصيله كما كانت منيرة. مرتدية ثوباً بسيطاً في لون الخردل الداكن المنقوش بورود حمراء صغيرة، طويل الطرف والأكمام فأخفى جسدها بالكامل لكنه لم يستطع أن يخفي تناسقه وانحناءاته الفاتنة. رفعت إحسان رأسها لترمق تلك التي ستكون زوجة أخيها بانبيهار صرفها عن إبهار البيت الكبير وفخامته. أخذت تماماً بتأمل تفاصيلها؛ بشرة سمراء في لون سنابل القمح المتلألئة تحت أشعة شمس عصرية رانقة، وعينان في لون العسل تغمرهما نظرة هادئة مستسلمة، وجديلة سميكة في لون البندق تسترسل لامعة على كتفها حتى خصرها، وملاحح منمنمة رقيقة فوق شفيتين رفيفتين في لون الورد تلوح عليهما ظلال ابتسامة ضيقة مستكينة كانت سبباً في أن تتعقد على وجنتيها غمازتان كحبتَي عنب قرمزيين تتوقان لمن يقضمهما.

أخذت مسك الليل تحتضنها وتقبلها وهي تطري على جمالها بصوت أسمع المنزل كله:

- اللهم صل على النبي الله أكبر.. بدر في تمامه.. يا حلالها يا دلالها جاءها زينة رجالها.

ثم أسرع تذييل مديحها بمزيد من الزغاريد قبل أن تلتفت نحو ثلاث ماشطات شابات هرولن نحوها ووقفن ينتظرن أوامرهما. أشارت لواحدة منهن أن تتجه مع منيرة وبنات خالاتها نحو الطابق الثاني لإعدادها لبدء عملية «الجلوة» أو تجهيز العروس ليوم الزفاف وليلة العرس حتى تكون في أبهى صورة ممكنة، بينما تحركت هي مع الفتاتين الأخريين نحو المطبخ. اجتازت إحسان غرفة الطعام الكبيرة متأملّة تفاصيلها التي حكى عنها إبراهيم من قبل في انبهار، وقد ازداد عليها اندهاشها لمراى كل هذه الهدايا الفخمة الثمينة التي أرسلها بعض من معارف الحاج ياسين من البكوات والباشوات والأعيان، وقد رُصّت كيفما اتفق متكومة أو متفرقة على مائدة الطعام الكبيرة لتراها النساء في غدوهن ورواهن. في البهو الصغير الذي يقع خلف غرفة الطعام مباشرة دلفت إحسان يسارًا خلف مسك الليل والماشطتين لتجد نفسها في أكبر مطبخ رآته عيناها الصغيرتان! غرفة واسعة تمتلئ بنساء كثيرات يتحركن حول عدة مواقد مشتعلة لتجهيز وليمة العرس. أو يدخلن ويخرجن في سرعة من باب صغير يفضي إلى الجزء الخلفي من الحديقة، حيث ينتصب ثلاثة أفران من الطوب تفوح منهم رائحة الخبز ولحم الخروفين اللذين أرسلهما الشيخ سلامة في اليوم السابق.

لم يستطع الشيخ سلامة أن يردّ رجاء الحاج ياسين له بأن يتم العرس ووليمته بالكامل في منزل العروس متحججًا بالأقارب الذين سيأتون من عدة أماكن بعيدة ويحلون ضيوفًا قبل الزفاف بعدة أيام، حيث سيكون من الصعب عليهم وخاصة على النساء من بنات الخالات والعمات أن يتحركن كثيرًا من أجل حضور العرس في بيت العريس. يزيد على ذلك أنهم قد اضطروا لتأجيل يوم الجلوة والحنة إلى نهار العرس بدلًا من الليلة السابقة عليه بسبب تأخر وصول عمّة العروس الكبيرة ورأس العائلة من السودان، حيث تقيم مع زوجها الذي يعمل هناك، والتي أيضًا تعاني من صعوبات في الحركة مما سيجعل أمر عقد حفل الزفاف كله في مكان إقامتها هو الأنسب له؛ فالحاج ياسين لا يستطيع أن يحرم أخته التي ربّته وكبيرة العائلة من جزء ولو يسير من عرس صغرى بنات العائلة وفاكحتها المحببة المدللة من قبل الجميع. لم يجد الشيخ سلامة مفرًا من الموافقة على الرغم من شعور خبيث انتابه بأن السبب الحقيقي لذلك هو أن الحاج ياسين يريد أن يكون العرس في أفخم صورة ممكنة، وهو أمرٌ لن يتم بالقدر الكافي في منزلهم وشارعهم المتواضع، لكنه عاد واستعاذ بالله من وسوسة الشيطان موبخًا نفسه على هذا التفكير خاصة وأن أسباب الحاج ياسين كلها منطقية ولا غبار عليها، لكنه أيضًا تعمد أن يشارك في الوليمة بخروفين ابتاعهما وأرسلهما لبيت العروس حتى لا يقال إن العريس وأسرته تركا حماه الثري يحمل عنهم كل التكاليف. كما أنه طلب ألا يتم إحضار أي راقصات أو «عوامل» لا يليق وجودهن في عرس حفيد ولي الله «سيدي إبراهيم الراضي» وابن شيخ مسجده، لكنه وعد الحاج ياسين الذي وافق على مضمض بأنه سيعوضه عن ذلك بمفاجأة ستفرحه كثيرًا وتشرّفه أمام المدعوين.

جلست إحسان على مقعد خشبي صغير ملتصق بالحائط تتلذذ باحتساء كوب من شراب الكركدية المثلج. أخذت بالتفرج على مسك الليل وقد اندمجت في خلع ملاءتها السوداء وفك الـ «صُرة» المربوطة حول وسطها كاشفةً عن الزجاجات والأحفاق الملونة وأدوات التجميل الخشبية والنحاسية

وأدوات أخرى لم تتبينها جيداً. أخرجت كريات عجينة السكر المُعدَّة من قبل، وأخذت تناولها للماشطتين فتقمن بتمريرها سريعاً على شعلة أحد المواعد قبل أن يُعملن أناملهن الصغيرة في شدها وطبها عدة مرات متتابعة لتليين العجين الذي بدا ذهبياً متألئاً وجاهزاً للتعيم وتجميل بشرة العروس الرقيقة.

عادت مسك الليل وخلفها الفتاتان الممسكتان بكريات العجين نحو الصالة الواسعة، تتبعهما إحسان متقافزة مع باقي الأطفال الذين تجمهروا ينتظرون في فضول مشاهدة هذا الذي يتم عادة في غرفة العروس المغلقة في حضور النساء الكبيرات فقط. لكن لحسن حظهم سيتم عمل جزء صغير منه اليوم في صالة المنزل حتى تستطيع عمه العروس الكبيرة أن تشهده وتفرح به دون الحاجة إلى تكبُّد عناء صعوبة الحركة نحو الطابق الثاني. أخيراً أقبَلت منيرة مع بنات خالاتها والماشطة التي اصطحبتها منذ قليل وقد تخففت من ثوبها وارتدت ثوباً آخر كاشفاً عن جسدها كله تقريباً، استعداداً لأول خطوة في عملية الجلوة، أو إزالة شعر الجسد بالكامل. لم تستطع الكثير من الحاضرات أن يكتمن شهقات الإعجاب الذي اختطف أبصارهن وقد أبرز هذا الثوب الأبيض الكاشف، عن جمال تخطى كل ما كن يرينه من منيرة في ثيابها العادية، والتي كانت تخفي بديع تناسق استدارات خصرها وعجيزتها وساقبها وانحناءات جذعها وصدورها الفاتنة وتألؤ جيدها وبشرتها القمحية، قبل حتى لمسات مسك الليل التجميلية.

أسرعت نرجس أم العروس تلمس خلسة الباب الخشبي وهي تتمتم في سرها بالمعوذتين وتشير لاثنتين من خادمتها. هرولت إحداهما تنثر البخور في المباخر المنتشرة في الأركان لتعيد تأجيج جمراتها بينما ناولتها الأخرى طبقاً يمتلئ بالملح الخشن فأخذت تقبض حفنات من الحبيبات البيضاء السمكية وتنثرها في الأركان وبين المدعوات لردع نظراتهن الحاسدة.

جلست منيرة بنفس الابتسامة الضيقة المستكنة على يسار عمته التي جلست في صدر الصالة كأنها هي - لا نرجس - سيدة المنزل صاحبة الأمر والنهي فيه، بينما افتقرشت الأرض تحت قدميها سعدية الدمنهورية الخاطبة وقد أسندت الطلبة على فخذها وتأهبت لإحياء الاحتفال في محاولة منها لتبرير المبلغ الكبير الذي نفتحها إياه نرجس لتعويضها بعد أن أغضبها أن تتم زيجة ابنة الحاج ياسين الألفي دون تدخلها ووساطتها. وضعت مسك الليل على الطاولة المنخفضة صينية نحاسية أحضرتها لها إحدى الخادمت، وقد تكومت في وسطها الحنة المعجونة بماء الورد، على الرغم من أنها كانت تعلم أنها لن تقوم باستخدامها لرسم النقوشات على جسد العروس بعد أن اعترضت بنات خالاتها على ذلك لكونه «موضة قديمة»، ولأن الوقت المتبقي حتى لقاء العريس لن يكفي لتجف الحنة على جسدها بالكامل، لكنها حرصت على وضع الصينية على أية حال حتى تستطيع من تريد من الحاضرات أن تلقي «النقوطة» على حوافها.

جثت مسك الليل على ركبتيها وأطلقت زغرودة عالية كانت بمثابة إشارة البدء. أخذت سعدية الدمنهورية تنقر في سرعة على السطح المشدود بينما تقرد مسك الليل عجينة السكر الذهبية على ساق منيرة وتجذبها في تتابع بأنامل محترفة وقد ارتفع صوتها بالغناء «يا ناعمة يا غريبة يا بنت

الناس الطيبة». بينما رددت معها النساء والبنات اللاتي اندمج بعضهن في الرقص والبعض الآخر في التصفيق وإطلاق الزغاريد.

بعد دقائق أصاب إحسان الملل من مشاهدة نفس الأمر تكرر مسك الليل على كل أنحاء جسد منيرة فانطلقت مع باقي الأطفال يلهون راكضين في كل أركان المنزل. يعيشون في غفلة من النساء المشغلات بالهدايا الموضوعة على مائدة الطعام. يخرجون ليلعبوا قليلاً وسط الرجال المنهمكين في رصّ الموائد والكراسي وتعليق المصابيح والزينات، أو يدورون حول المنزل نحو الجهة الخلفية حيث تنهزم النساء الجالسات يتصببن عرقاً أمام الأفران المشتعلة قبل أن يعودوا إلى صالة المنزل الواسعة مرة أخرى. يتناولون حبّات الفاكهة والمكسرات والحلوى من الأطباق العامرة الموزعة على كل الطاومات وهم يتسمعون خلصة لنميمات تجري همساً بين النساء. وقفت إحسان بجانب مجموعة منهن تدس حبات البندق في فمها وهي تتابعهن وهن يتبادلن خلصة ما يعرفنه عن عمّة العروس الكبيرة ووصولها من السودان، وعن خالاتها وخالها وعن سيدات لا تعرفهن إحسان لم يحضرن حفل الحنة، ويتراهنّ على أنهن لن يأتين لحضور الزفاف في المساء.

أنهت مسك الليل عملية إزالة الشعر من كل الأجزاء المكشوفة من جسد منيرة قبل أن تصطحبها مع أمها وبنات خالاتها وباقي الماشطات لغرفتها في الطابق الثاني، لاستكمال عمليات النتف في المناطق الحميمة، وفي وجهها وترجيح حاجبيها وباقي عمليات الحك والدعك والتلميع. سعدت إحسان بالهدوء الذي ساد في الصالة الواسعة بعد أن تفرقت النساء والفتيات بين المطبخ والطابق الثاني، ولم يتبق سوى عدة نساء كبيرات جلسن متناثرات في الأركان أو حول العمّة الكبيرة المستقرة في مجلسها. همت باستغلال الفرصة لتقوم بالمزيد من الركض واللعب غير مكترثة بما يحدث في الطابق الثاني حتى همست لها طفلة أخرى، كانت قد تصادقت عليها في الساعة الماضية، بأنهما يمكن أن تتسلا وتختبئا في غرفة مواجهة لغرفة منيرة لمشاهدة ما يحدث فيها. ترددت إحسان للحظات متذكرة تعليمات أمها وما يمكن أو توقّعه بها من عقاب إن علمت بفعلة كذلك، لكنّ فضولها كان أكبر من خوفها فتبعته هذه الفتاة صاعدة نحو الطابق الثاني وهي تتلفت في ذعر. تسللت الفتاتان ملتصقتين بحائط الدهليز الطويل مقتربتين من الغرفة التي ينبعث من بابها الموارب صوت جلبة النساء المتجمعات حول العروس، ثم دلفتا في سرعة خلف باب الغرفة المواجهة له. لم تستطع إحسان أن تتبين تفاصيل الغرفة المظلمة لكنها كانت تستطيع أن تراقب بسهولة دون أن يلاحظهما أحد، من خلال فتحات الباب المشغول بالكامل كأنه مشربية كبيرة، ما يحدث في غرفة منيرة من خلال الباب الذي ترك موارباً ليسهل على النساء الدخول والخروج منه لجلب الحاجيات وأباريق المياه التي تم تسخينها مخصوص لحمّام العروس. هدأت أنفاسها المضطربة رويداً رويداً وقد ألصقت وجهها الصغير هي والطفلة الأخرى بنقوب الباب وبدوتا مأخوذتين تماماً بتأمل الطست الكبير الموضوع في منتصف الغرفة، وقد جلست منيرة في منتصفه على كرسي الحمّام الخشبي الصغير عارية تماماً ومستسلمة ليدي مسك الليل. دعكت وجهها برماد الفرن للمساعدة في إزالة الشعيرات القصيرة. ثم بدأت في فقرات طويلة من فرك جميع أنحاء جسدها باللوف والحجر الخفاف بطبقات كثيرة من الصابون والزيوت المخلوطة بالعمّور قبل أن تدلق عليها المياه الساخنة من أباريق نحاسية تحملها لها النساء المتحركات في سرعة، تخرجن وتدخلن من الباب الموارب أو

تدرن حولها في الغرفة لتساعدنها هي والماشطات الثلاثة. تسكب المياه على الشعر البندقي الطويل فتغمر أنحاء الجسد الذي ازداد لمعانه وإشراقه وتجلّى جماله أكثر. وفي كل مرة، ترفع منيرة، المنكومة في استكانة تحت سطوة النساء المحيطات بها، كفيها لتمسح عن وجهها القطرات المتبقية دون التفات كبير لما يفعلنه بها أو ما يجري حولها.

أخيرًا أنهت مسك الليل حمّام العروس الذي ظنت إحسان أنه لن ينتهي أبدًا، وانحنت لتقبّل منيرة هاتفة وهي تغمز بعينها في خبث:

- حمّام العافية.. والمرّة القادمة هو من يحمّيك.

ارتفعت ضحكات النساء وهمزهن بينما ابتسمت منيرة نفس ابتسامتها الهادئة تاركة نفسها مرة أخرى ليديّ مسك الليل تجفف جسدها بالمنشفة الكبيرة، وتمشط شعرها في جديلتين سميكتين، قبل أن تعلن أنها أصبحت «مجلوة» وجاهزة لارتداء ملابسها الداخلية وثوب العرس والطرحة. في تلك اللحظة بوغتت إحسان والطفلة الأخرى بواحدة من بنات خالات منيرة تفتح الباب فتراجعتا في دعر حتى لا تصطدما به. رمقت السيدة الفتاتين المرتعدتين في دهشة تحولت إلى غضب وهي تهتف امرأة:

- ماذا تفعلان هنا؟! هيّا اهبطا إلى الصالة ولا تصعدا مرة أخرى!

أسرعت الفتاتان تركضان ممتثلتين لأمرها نحو الأسفل، وما إن وصلتا إلى الصالة حتى زال رعبهما وانتابتهما نوبة ضحك كادت أن تُذهب بأنفاسهما المتلاحقة من الجري والخوف. نسيت إحسان ما حدث تمامًا بعد أن أقنعتها الفتاة أن تلك السيدة لا تعرف أمها ولن تترك الزفاف والاحتفال لتحكي لها عن شيء تافه كهذا. اطمأنت إحسان وانشغلت فيما تبقى من النهار في معاودة اللعب والركض هنا وهناك إلى أن حلّ المساء دون أن تشعر. تقاجأت مع باقي الأطفال بأصوات جلبة المدعوين، من الرجال المتجمعين في الحديقة، ترتفع ومعها همهمات بعض الفتيات اللاتي أسرعن نحو المشربيات ليراقبن ما يحدث في الخارج قبل أن يطلقن الزغاريد معلّناتٍ عن وصول العريس وأسرته.

(٤)

- الإسكندرية -

هذا المساء الدافئ في القاهرة كانت تقابله ليلةً باردةً في الإسكندرية. تساقطت سلاسل فضية رفيعة من أمطار خفيفة غسلت الشوارع في رفقٍ. انقطعت بعد دقائق قليلة فخرج أطفال الجيران يعاودون اللعب في الفناء غير أبهين بالبلل الذي أصاب أرضه من مياه تسرّبت من خلل الشقوق. ثم انبرت واحدة منهم تدق باب الغرفة الموارب فالتفتت ميري نحوها وهي متربعة في مكانها المفضل على الأريكة ورقية نائمة في حجرها.

- تعالي يا ميري العبي معنا!

- لا أريد. لا أحب ألعابكم!

- لكنك كنت تلعبين معنا من قبل!

- لا أريد أن أعب الآن! لن أترك رقية وحدها!

- ماذا سيحدث لها؟! اتركيها نائمة على الأريكة. إنها صغيرة لن تتحرك من مكانها! وحتى إن بكت ستسمعونها أو ستسمعها أمك من المطبخ!

- قلت لن أتحرك من مكاني.

قالتها ميري في عناد فشأحت الطفلة بيدها في ضيق قبل أن تذهب لتعاود اللعب مع بقية الأطفال.

هكذا كان قلقها. كلما ثار سبباً للخوف نهضت بقية مخاوفها تُصارع بعضها البعض فيصيبونها بالشلل حتى يكاد قلبها الصغير أن ينفجر من الإنهاك؛ فالوجل الذي يعرّب بداخلها الآن بسبب تأخر أبيها عن موعد عودته من عمله أيقظ فزعها غير المبرّر على أخيها وأختها وعلى رقية بالذات. تهويمات وخيالات لفواجع غير منطقية لكنها لا تملك حبالها شيئاً سوى الفزع الشديد والإسراع نحو حمل الرضاعة وإصاقها بنفسها كأنها هكذا تحميها من هذا الخطر المبهم الذي لا يراه أحدٌ سواها.

لكن هذا لا يمنع أنها لم تكذب عندما قالت إنها لا تحب اللعب الذي يلعبونه في الخارج. نعم كانت تلعب معهم أحياناً. لكن أيّاً من هذه الألعاب لم يكن ليضاهي لعبها مع آيسل في حقول الذرة وبين المروج الواسعة وبجانب البحيرة الكبيرة وسط الجبال المغطاة بالأخضر والغابة المحيطة بقريتهم جنوب بلغاريا. لم يكن أيٌّ من هؤلاء الأطفال ليملاً الفراغ الذي خلفته آيسل، ابنة خالتها وصديقة عمرها الوحيدة، مثلها الأعلى الذي كانت تتطلع إليه دائماً في إعجاب وانبهار وتقديري بها في كل شيء. كم تسخط على زوج خالتها هذا الذي كان غائباً عن القرية وقت ما حدث لكنه استطاع أن

يعثر عليهم بمعجزة قبل ركوبهم السفينة التي أتت بهم إلى هنا بساعات قليلة. منذ ظهوره المفاجئ بعد هروبهما من المذبحة ورحيل أيسل معه إلى بلده إسطنبول وهي تشعر كأنها فقدت انترانها. خسرت قطعة من روحها، جزء رقيق تهشم بداخلها وسكن محله شعور ثقيل لا تعرف كنهه (13) بالضبط لكنه لا ينفك يغييم سماواتها ويعكر مياه حياتها ويجعل منها تلك المضطربة الخائفة طوال الوقت.

خرجت أمها من ردهة المطبخ وهي تحمل حسن. تأملت السماء وقد لاح ضوء القمر شاحباً من خاف السحب الخفيفة قبل أن تهتف في شيء من القلق:

- تأخر تيمور!

استدارت واختفت خلف الستارة مرة أخرى دون أن تنتظر إجابة بينما عادت مشاعر ميري تتضارب بداخلها! لا تعرف كيف يجب عليها أن تشعر حيال عمل أبيها الجديد هذا؟! هل تحبه لأنه جعل حياتهم أفضل أم تكرهه لأنه السبب في تأخر أبيها بالخارج أكثر مما يمكن أن يحتمل خوفها المتواصل؟!!

تحسنت حياتهم كثيراً بعد أن ثبت تيمور نفسه في هذا العمل. تفانى وتقن في زراعة الزهور وأعواد القرنفل والنعناع وتنسيق الحديقة في شكل جمالي جعل الباشا وزوجته يحبانه في وقت قصير. وما أزداد تمسكهما به هو قدرته على التحدث معهم بلسانهم التركي بل والترجمة للهانم في بعض الأحيان، بعد أن تحسنت لغته العربية كثيراً بفضل صديقه مراد، حتى إنها كانت تستأنه على أصغر أبنائها أثناء لعبه في الحديقة، أو حتى لاصطحابه إلى منازل أصدقائهم وشركاء الباشا من الجالية التركية أو الباشوات المصريين ليلعب مع أبنائهم.

لم تستطع ميري أن تتكر أن هذا العمل أزداهم استقراراً ورفع كثيراً من مستوى معيشتهم، لكنها لم تستطع أيضاً أن تمنع شعوراً نما بداخلها بأن هذا التغيير الذي أصابهم بسببه لن يكون الأخير، كأنها كانت تعرف مسبقاً ما سيحدث في هذه الليلة.

التفتت نحو الباب عندما شعرت بتيمور يدلف منه. تنفست أخيراً في اطمئنان وقد عادت بعض من مخاوفها تخذل إلى نوم مؤقت بداخلها. خرجت فاطمة وحسن لا يزال على ذراعها وهي تهتف في تأنيب:

- ما كل هذا التأخير يا تيمور؟!!

- تعالي يا فاطمة اجلسي.. هناك أخبار جديدة أريد إطلاعك عليها.

جلست فاطمة على يسار ميري بينما جلس تيمور على يمينها بوجه يلوح السرور من قسماته رغم اضطرابه. تأملاته في ترقب وهو يتمتم متوجساً من ردة فعل فاطمة:

- سننتقل إلى القاهرة.

اتسعت حدقتا فاطمة في ذهول بينما شعرت ميري أنها لا تستطيع أن تفهم جيدًا ما يقال.

- لماذا يا تيمور؟! سفر ورحيل وغربة مرة أخرى؟!!

أسرع يهتف متحمسًا كأنه يتلو دفاعًا أعده لهذه اللحظة:

- الأمر مختلف الآن يا فاطمة. الباشا يريد ترقية. سيجلعي سكرتيرًا ثانيًا له ومترجمًا للهانم، وسأكون المشرف الأول على شئون قصرى القاهرة والإسكندرية بما في ذلك شئون حديقتيهما مع خدم ومزارعين يعملون تحت إمرتي. سيرفع أجري وستتبدل حياتنا تمامًا.

صمتت فاطمة لا تعرف ماذا تقول. التفت تيمور نحو ميري موجهًا لها حديثًا تحفيزيًا أراد أن تسمعه فاطمة:

- أتعرفين يا ميري.. لقد وعدني الباشا بأنه ما إن نستقرّ في القاهرة حتى سيأتي لنا بمدرس منزلي يعلمنا جميعًا اللغة العربية. حتى حسن سيتعلم معنا عندما يكبر قليلًا لأنني أريده أن يذهب إلى المدرسة.

تساءلت في استنكار وتوجّس انتقل إليها من ردة فعل أمها دون أن تفهم كثيرًا دوافعها:

- ما هي المدرسة؟!!

- المدرسة هي مكان يذهب إليه الأولاد كلَّ يومٍ ليتعلموا أشياء جميلة وجديدة.

اتسعت حدقتها وهي تهتف في ذعر:

- كل يوم؟! تريد أن يخرج حسن ويذهب وحده إلى هذا المكان كل يوم؟! ألا يكفي أنك تخرج كل يوم من أجل عمك هذا؟!!

ابتسم تيمور مندهشًا مما قالته، حتى فاطمة غلبت الابتسامة حيرتها فلاحت على شفيتها رغم ملامحها القلقة. وحدها ميري هي من ظلت مقطبة في حنق. ماذا دهى أباه؟! ألا يكفيها قلقًا خروجه للعمل كل يوم؟! على الأقل العمل يأتي لهم بالطعام والملابس والحلوى، لكن المدرسة هذه ما فائدتها؟! لا ينقصها إلا أن يأتيها في يوم ليقول لها إن رقية أيضًا ستخرج كل يوم للذهاب إلى مكان جديد يخترعه لها؟! شعرت بنفسها تنتفض في تحفز عندما طرأت هذه الفكرة على مخيلتها. لن يحدث هذا أبدًا! لن تسمح له أن يحدث! لن تفارقها رقية أو تبعد عنها ولو حتى لساعة واحدة في اليوم!

عاد تيمور يلتفت نحو فاطمة وهو يتساءل مُلحًا في توجس:

- ماذا قلتِ يا فاطمة!؟

تعلقت عينا ميرى بوجه أمها متمنية من قلبها أن ترفض هذا الجنون الذي يقوله أبوها لينتهي كل شيء ويبقون كما هم في حياتهم تلك التي اعتادت عليها ولا تريد تغييرها، لكن لخبيتها زفرت فاطمة قبل أن تتمم مستسمة:

- حسنًا يا تيمور..ننتقل إلى القاهرة.

- القاهرة -

تعلقت إحسان بملاءة أمها التي دخلت الصالة مع زينب وهي تحمل ابنها الصغير وحولهما بعض القريبات، بينما أقبلت نرجس تستقبلها بحفاوة شديدة وتصطحبها نحو الطابق الثاني لترى العروس.

جلست إحسان تنتظر مع باقي النساء والفنيات حتى أقبلت عليهن منيرة محاطة بأمها وحماها وقريباتها في ثوب العرس الأبيض، وقد تدلت جديلتاها البندقتين على كتفيها من تحت الطرحة المطرزة بمنمنات لامعة أنارت، مع الحلي الذهبية الكثيرة التي ترتديها، وجهها المزين بمساحيق مسك الليل وعينيها المرسومتين بكلل أبرز جمالهما وفتنتهما.

جلست على أريكة وضعت لها أمام باب غرفة الطعام الكبيرة بعد أن تركت إحدى ضلفتيه مفتوحة بينما تم إغلاق الأخرى مخصوص لعمل كوشة صغيرة أمامها. بدت في مجلسها وكأنها أميرة من أميرات الحكايات التي تحكيها الجدات لأحفادهن. «ست الحسن» أو «فرط الرمان في صواني ذهب» مستقرة على عرشها تحاوطها عيون مأسورة بسحرها وزغاريد تبارك ليلتها الكبيرة بينما تراقب هي كل ذلك بنفس النظرة الهادئة المستسلمة والابتسامة الضيقة المستكينة.

ما إن هدأت الأجواء قليلاً حتى أسرع زبيدة تصطحب إحسان إلى الحمام فساعدها على التبول، ثم أخذت تهندم لها ثوبها المتكرمش وشعرها المبعثر من أثر اللعب طوال النهار. كانت إحسان مستسلمة ليدي أمها تماماً ومسترسلة في حكي كل ما رآته خلال اليوم - ماعدا تسللها للطابق الثاني - بحماس وانفعال وزبيدة تستمع لها بنصف انتباه وتلاحقها بايماءات خافتة.

- هل تكون العروس سعيدة يوم حنتها وزفافها؟!

- نعم بالتأكيد.

- لماذا إذاً لا تبتسم منيرة ابتسامة كبيرة طوال الوقت؟!

فأجابتها زبيدة بمزاحة وهي تفك جديلتها المتشعثتين وتعيد تجديلهما مرة أخرى:

- من الحياء يا عديمة الحياء يا من ستقضحينا يوم عرسك.

لم يبدُ على إحسان أنها فهمت أو اهتمت حتى بالتركيز في مزحة أمها بل انتقلت متلهفة إلى سؤالها التالي:

- هل سيحضر خالي وأولاده الزفاف؟

- بالطبع. إنه بالخارج مع أبيك ومحمود.

فضحكت إحسان ضحكة بلهاء وهي تقول:

- كنت أظن أن الخيلان لا يحضرون الزفاف ويحضره الأعمام فقط.

تساءلت زبيدة وهي منهكة فيما تفعل دون اهتمامٍ حقيقيٍّ:

- ما الذي جعلك تظنين ذلك؟!!

- سمعتهن يقلن إن خال العروس وأولاده لن يحضروا اليوم بينما أن عمته الكبيرة وصلت من أجل الزفاف من أسبوع.

هزت زبيدة رأسها بميكانيكية قبل أن تنتبه فجأة إلى ما قالته إحسان للتو فأدارتها وتأملت وجهها الصغير وهي تتساءل في استغراب:

- ماذا قلت؟! سمعتين يقلن متى وصلت عمه العروس الكبيرة؟!!

أجابتها إحسان ببساطة غير مدركة خطورة ما تقول:

- من أسبوع.

- هل أنت متأكدة؟!!

- نعم.

عادت زبيدة تديرها مرة أخرى لتستكمل تعديل شعرها بينما عقلها يتأرجح في حيرة. لماذا إذاً قالوا لهم إن عمه العروس الكبيرة تأخرت ولم تصل من السودان إلا البارحة وأجلّوا الحنة إلى اليوم من أجل ذلك؟! ما الذي يستدعي الكذب في شأن مثل هذا؟! أم أن الأمر لا يعدو كونه سوء تفاهم، وأن إحسان فهمت الأمر بشكل خاطئ أثناء انهماكها في اللعب والشقاوة؟!!

عادت إلى الصلاة وجلست بجانب عمه العروس الكبيرة وهي ترمقها في ارتياب. يا رب هل ينقصها قلق فوق قلقها؟! خاطرتها فكرة أن تحاول استدراج السيدة الكبيرة في الحديث ثم تسألها بشكل عارض عن موعد وصولها أو أن تسأل نرجس أم منيرة، لكنها أفيقت فجأة من أفكارها تلك وأخذت تعنف نفسها على تماديها في السير وراء كلام العيال، وإصابة نفسها بمزيد من التوتر لأسباب لا معنى لها. الأدعى أن تركز اهتمامها فيما يستحق حقًا التركيز. وهل هناك ما يمكن أن يفوق أو حتى يعادل استيقاظ الشيخ سلامة فزعًا في الفجر بعد صلاة الاستخارة؟! يكفيها التوجس الذي تعيش فيه ولتدعو الله أن يمر اليوم على خير.

تعلمت عيناها نصف المنتبهتين بنرجس وهي تمرر المبخرة فوق رأس منيرة هاتفة بعينين دامعتين:

- أعوذ بكلمات الله التامة.. من كل شيطان وهامة.. ومن كل عين لامة.

فأسرعت مسك الليل تختطف منها المبخرة ممازحة إياها في استنكار:

- ما هذا يا أم أحمد؟! ترقبها رقية الأطفال؟!!

مدت نرجس يدها تمسح دمعة انزلت من عيناها وهي تقول في تأثر:

- والله قلبي مشغول عليها كأنها عادت طفلة صغيرة.

- ابصقيها من فمك! بل عروس وست العرائس! ولم القلق يا أم أحمد وهي ذاهبة إلى بيت أشرف الناس وأطيبهم؟! طمئنيها يا أم حامد.

جاهدت زبيدة لتبتسم وهي تجيب على حديث وجدت نفسها فجأة طرفاً فيه دون إنذار مسبق:

- منيرة في عيني يا أم أحمد.

- أرايت؟!!

هتقت مسك الليل في انتصار لا معنى له قبل أن تسترسل في إطلاق الزغاريد تصاحبها بقية النساء والفتيات وتتابعهن زبيدة باذلة مجهود كبير لتحافظ على نفس الابتسامة التي تستعين بها على إخفاء قلقها. تتلفت حولها في وجل كأنها تنتظر أن تباغتهم مصيبة ما فجأة وتسرق فرحتهم مخلفة حسرة وربما أيضاً فضيحة لا دواء لها. كم يثيرها أيضاً قلق نرجس على ابنتها وخوفها عليها. هذا الخوف الذي بدا واضحاً وجلياً منذ أن صعدت معها إلى غرفة العروس ورأتها وهي تتحنى لتعلق دبوساً صغيراً في ذيل فستان العرس حتى «يخزي العين» ثم استغراقها في نثر الملح الخشن طوال الطريق من الغرفة حتى الصالة، وأخيراً موقف الرقية هذا. استعادت بالله من الشيطان الرجيم وهدأت نفسها بأن هذا شيء طبيعي. هذا الخوف البادي على وجه نرجس ليس إلا خوفاً من الحسد وهو حال كل أم يوم عرس ابنتها فما بالك إن كانت الابنة فاتنة الجمال مثل منيرة!

ظلت هكذا، تتابع ما يحدث حولها بنصف انتباه بينما يستهلك النصف الآخر صراعا مع قلقها الذي قفز عالياً وقت عقد القران ثم عاد ليخفت بعد أن تم العقد وارتفعت الزغاريد مبشرة. لم يصرفها عنه قليلاً سوى الجلبة التي ثارت فجأة في الخارج معلنة عن وصول المفاجأة التي كان الشيخ سلامة قد وعد الحاج ياسين بها. راقبت في فضول وشيء من عدم التصديق، النساء والفتيات وهن يتسابقن للالتصاق بالمشربيات المطلة على الحديقة للتأكد من الخبر المدهش الذي تسلل إليهن. الشيخ سلامة أحضر سي «داود حسني» بنفسه ليحيي حفل الزفاف! كانت تعرف أن زوجها تربطه بالرجل

الشهير علاقة معرفة منذ أن كان يتردد على حي الجمالية لزيارة أقارب أمه، فتعرّف هناك على جيرانهم اليهود وابنهم طالب مدرسة «الفير» المنبئ بموهبة موسيقية فريدة «دافيد حاييم» والذي قدر له أن يكبر ويصير داوود حسني الموسيقار العبري. كانت تعرف كل ذلك، لكن لم يخطر ببالها أن تكون المفاجأة التي وعدّ الشيخ سلامة الحاج ياسين بها هي أن يحضره بنفسه ليحيي الليلة! تلاشى قلقها للحظات وحل محله فخرٌ شديدٌ بزوجها الذي رفع رأس ابنه ورؤوسهم كلهم أمام أصهارهم وأمام كل الناس. ظلت تراقب، متظاهرة بسعادة رزينة، النساء وهن يتبادلن كلمات الانبهار بحماس شديد، بينما قلبها يتراقص بداخلها وهي تتخيلهن جالسات غداً مع قريباتهن وجاراتهن يتحاكين عن عرس ابنة الحاج ياسين على ابن الشيخ سلامة، وكيف أن داوود حسني الذي عمل مع سي عبده الحامولي بنفسه رحمه الله قد حضر ليحيي الليلة!

خيم الصمت على الجميع عندما استقر الرجل المهيب على المقعد المخصّص له. استغرق ضبط العود دقائق بدت طويلة جداً ثم بدأ أخيراً يُعمل أنامله على الأوتار المشدودة فانبعثت منها النغمات الساحرة. انتشر أثير اللحن وخرق صدور الحاضرين بجذلٍ مُربكٍ يمهد الطريق للصوت الرخيم الذي حلق بهم في سماء الطرب ما إن بدأ ينشد كلمات دوره الشهير «أسير العشق».

تراجعت إحسان خطوتين للخلف تتفرج على النساء المتراحات أمام المشربيات في فساتينهن الملونة اللامعة، وقد ألقن وجوههن بالثقوب الخشبية واستغرقتن نشوة اختطفت قلوبهن وأبصارهن وغيبتهن تماماً عن نفوسهن وعن الزفاف وعن كل ما حولهن وحتى عن العروس! وجدت إحسان نفسها تستدير نحوها وتتهمك في تأملها عن كذب وقد انفض عنها كل النساء اللاتي تسابقن منذ أول اليوم للتلق حولها. بدت قسماتها مرتاحة لهذا الفراغ الذي أحاط بها أخيراً. استرخت قليلاً في جلستها وأحنت رأسها محدقة نحو أصابعها التي تدور حول بعضها البعض متشابكة في حبرها كأنها تحاول اللحاق بكلمات الأغنية وهي تدور معهم:

ضناني البعد أشكي لمين هواني

وأنا في الحب لوعنى زماني

مأخوذة هي أيضاً باللحن والصوت لكن مع شعور غريب بأن شيئاً مختلفاً قد حلّ بها. أو كأن جزءاً من روحها كانت مختبئة ووجدت الفرصة أخيراً لتتجلى على قسماتها مروحة عن نفسها وعن صاحبها، فأعطت لشفثها هدنة قصيرة من الابتسام المستكين وسمحت لعينيها أن تومضا بنظرة هادئة أخرى غير تلك التي احتلتها طوال اليوم.

غنى سي داوود كثيراً في هذه الليلة مستمداً من انتشاء الحاضرين واندماجهم معه ما يشجعه على الإعادة والزيادة. غنى حتى تململ محمود في جلسته كاتمًا استعجاله لانتهاؤ الحفل وحتى كبر خوف الحاج ياسين من أن يبرد الطعام حتى غلب هذا الخوف رغبته بالتفاخر بطول المدة التي أحيها داوود حسني في فرح ابنته، فأخذ يستحث الرجل لينهي الغناء ودعا الخدم لمد الأسمطة مستمتعاً بمشاهدة الوليمة الفاخرة وانبهار المدعوين وتلذذهم بها.

وما إن انتهوا منها حتى صدحت أصوات ضاربي الطبل من الفرقة التي رافقت العريس في طريقه لداخل المنزل لأصطحاب عروسه. أسرعت السيدات والفتيات يغطين رؤوسهن ويدنين أوشحتهن على وجوههن في اللحظة التي دخل فيها محمود. توقف ما إن وطأت قدماه أرض الصالة الواسعة. احمر وجهه الذي يميل قليلاً نحو الطفولة ويصارعها بشاربه الصغير المبروم وقد وجد نفسه فجأة وسط هذا الجمع الهائل من النساء المتحفزات وزغاريدهن العالية. تعثرت نظراته وهو يبحث بينهن بقلب خافقٍ أرهقه الانتظار والشوق عن تلك التي قضى الليالي الماضية كلها يفكر فيها ويتساءل عن شكلها وجمالها الذي حكى عنه أمه لأبيه. ازداد وجيب قلبه ما إن وقع بصره عليها؛ تجلس مكانها منكمشة في ثوبها الأبيض اللامع وقد أسدلت نرجس على وجهها طبقتين سميكيتين من طبقات الطرحة فأخفتها تماماً لكنهما لم تستطعا أن تخفيا جمالها الذي تصرخ به كل قطعة فيها مهما تم تخبيئتها. تقدّم نحوها في حُلته البيضاء الأنيقة وطرבוته الأحمر الفاقع محاولاً الحفاظ على ثباته وإخفاء رجفة أصابته بسبب العيون الكثيرة المصوبة نحوه. رجفة بلغت مداها عندما وجد نفسه يجلس بجانبها مختلساً نظرات خجلي نحو طرفي جدليتيها البندقيتين وأصابعها المتشابكة في توتر، وقد فشل تماماً في استشفاف أي شيء من ملامحها من تحت الطرحة البيضاء.

بعد دقائق من الغناء والزغاريد نهض مرة أخرى مصطحباً إياها نحو الخارج. وما إن وضعت يدها الرقيقة الباردة في ذراعه حتى شعر بجسده ينتفض بلسعات اضطراب لذيذ أسكره وسحب روحه حتى كاد أن ينفجر قلبه من شدة الخفقان، لولا أن تمالك نفسه وهو يسير بها نحو الخارج محاطاً بمباركات المدعوات ثم المدعويين وأصوات الطبول والغناء.

ساعدتها في ركوب «التختروان» أو المقصورة الخشبية المغلقة التي أصر الحاج ياسين على صنعها خصيصاً لزفة ابنته، متجاهلاً تعليقات الناس بأن هذا الشيء قد انتهى استخدامه من سنوات بعيدة بل وساخرين منه ومتسائلين عن الطريقة التي سيجلب بها عبيداً يحملون هذه الداھية وبداخلها ابنته؟! لكنه تحدّاهم باستحضار أفضل نجار في بر مصر وجلب له أفضل أخشاب استطاعت تجارته أن تصل إليها واتفق معه على أن يعيد تصميم التختروان بحيث يصبح له عجلات ويجذبه حصانان وقد كان. وها هي منيرة تجلس مختبئة داخل مقصورة خشبية غاية في الفخامة تجرها الخيول مثل أميرات ألف ليلة وليلة وسط الحناطير الكثيرة والفرقة التي رافقت الزفة من بيت العروس حتى بيت الشيخ سلامة حيث تنتظرها شقة الزوجية في الطابق الثالث.

عندما انتهت المباركات وتراجع عنه المدعويون أخيراً، أسرع محمود ليلحق بها داخل غرفة النوم حيث وجدها جالسة على طرف الفراش مختبئة لا تزال تحت حصونها البيضاء الرقيقة. اقترب منها بخطوات وجلة وقلب راجف حتى أصبح أمامها مباشرة. مدّ يدين مرتبكتين ورفع عن وجهها الوشاح ببطء. اختلست نحوه نظرة سريعة خائفة قبل أن تحني وجهها بسرعة. لم تستغرق النظرة أكثر من لحظة واحدة لم يكن يحتاج لأكثر منها حتى يغرق في بحر العسل الساكن في عينيها، ويكاد أن يتوقف قلبه عن الخفقان وقد أيقن تماماً أنه وقع في الحب.

مرت اللحظات التالية على الواقفين أمام باب البيت في صمت مشحون بالتوتر حتى ارتفعت الزغاريد فجأة مبشرة بتمام الأمر ومطمئنة الجميع على بكاره العروس (14). أسرع الناس بباركون للحاج ياسين والشيخ سلامة الذي أخذ يردُّ على التهاني ولسانه يلهج بالحمد والشكر على أن كل مخاوفه قد تبين أنها لم تكن سوى محض أوهام.

في صالة الشقة كانت نرجس تقف متفردة، بين ملاءات النساء من أقارب الشيخ سلامة وجيرانه، بحيرة سوداء فوق ثوبها اللامع ويشمك أبيض على وجهها مثل نساء الكوات والباشوات، تبكي فراق ابنتها. أقيلت عليها زبيدة تحتضنها مطمئنة إياها على منيرة ومؤكدة أنها ستكون لها مثل إحسان وأكثر. ثم اتجهت نحو مشربية غرفة الجلوس ففتحتها وأطلت منها مطلقة زغاريد احتفالها بتلك الراحة التي عادت أخيراً تنتشر في شرايينها بعد أن كاد دمها أن يجف.

رفع الشيخ سلامة رأسه نحو المشربية بعد أن ميزت أذناه صوتَ زغرودة زوجته. التقت أعينهما لوهلة تبادلًا خلالها نظرة اطمئنان لم يلحظها أحدٌ. لم يساورهما أي شك في أن مرور الليلة على خير سببه أن قلقهما كان شيئاً لا أساس له! وتناسا تمامًا احتمالية أن يكون الله قد تقبل دعاء رفعه إليه الشيخ سلامة في الفجر ثم - بشكل لا يليق به - ذهب عن باله تضرعه هذا بأن يرد الله عنهم سوء قدره وأن يلطف بهم، ولو مؤقتاً، قبل أن تجري المقادير التي ليس منها بُدُّ.

(لمحة)

ما إن دخلوا من باب المنزل حتى أفعمت أنوفهم الرائحة الزكية المعتادة مبشرة بغداء الجمعة المميز. رقى الشيخ سلامة الدرجات في ببطء مثقل بالأعوام التسعة التي أضيفت على كاهليه، وقد حفرت أحاديدها على وجهه وتحت عينيه وانتصرت لبياض لحيته على سوادها فغزاه وغلبه رغم أنه لم يتجاوز منتصف الخمسين بعد. دلف من باب شقته المفتوح يتبعه إبراهيم بينما واصل حامد صعوده نحو شقته ليغتسل ويتخفف من جيبته وعمامته. وقف محمود وحده على البسطة يسترق النظر نحو ابنه حسين وعلي وهما يلعبان مع ابن عمهما محمد، متعثرين في القط البرتقالي الصغير الذي يحاول دس نفسه بينهم بينما إحسان تتعهدهما بالمتابعة حتى لا يؤذوا أنفسهم. كبرت أخته وأصبحت أنسة كبيرة لا يخلو وجهها وقدها من ملاحه، رغم أن جمالها يحتاج إلى القليل من التدقيق حتى تستطيع العين ملاحظته وتذوقه جيداً. دار ببصره في الصالة دورة سريعة قبل أن يعود نحو إحسان بعينين تحاولان مواراة خيبتهما.

- أين منيرة يا إحسان؟

- في شقتها.

لم ترفع رأسها أو حتى تفكر لثانية واحدة قبل أن تجيبه بالإجابة المعتادة. عاد يرقى الدرجات ببطءٍ ماراً بباب شقة حامد ومتجاوزاً إياها نحو الطابق الثالث حيث شقته. هل حقاً كان ينتظر إجابة مختلفة؟! هكذا هي منذ دخلت بيتهم. طالما حاول جذبها لتندمج مع الباقيين. طالما حاول اجتذابها

لتتألف معه هو زوجها وأبو ابنيها. لكنها استمرت على طبعها الهادئ المنزوي. أحياناً يسائل نفسه، كيف يزداد هيامه بها يوماً بعد يوم رغم طبعها هذا؟ لكنه يعود ويعترف بأن عشقه لها ينمو بداخله إلى ما لا نهاية ربما بسبب طبعها هذا؛ رقتها الهادئة تلك تزيد جمالها فتنة وتزيد فؤاده اشتعالاً ونفسه عذاباً.. عذاباً يشبه معاناة مَنْ يحب بلا أمل وليس من كانت معشوقته هي زوجته ومَلِكَ يمينه! كيف لا وهو يحس وكأنه مُحَرَّمٌ عليه أن يبثها مشاعره التي تجيش بداخله لها، لأنه يعرف أنه لن يلقى في المقابل سوى ابتسامة مستكينة من شفيتها الورديتين. طبعها الهادئ الخجول هذا يمنعها دائماً من أن تجيبه أو تتجاوب معه فتظل صامته أمام كل ما يقوله أو يفعله. وهو بطبعه لم يكن يملك الإقدام الكافي والحداقة المناسبة التي تجعله قادراً على المناورة والمحاولة الدؤوبة، مع جنس النساء عامة ومعها هي خاصة، حتى ينجح في تغيير طبعها ودفعها لمشاركته تبادل الحب بطريقة أوضح وأكثر إفصاحاً كما يليق بزواج وزوجته. فاستسلم لحبه الصامت لها مكتفياً بوجودها بجانبه وبما عدّه منها حباً هادئاً خجولاً يليق بملائكيته، معتبراً نفسه أكثر رجال الأرض حظاً، فقط لأنها زوجته ومن نصيبه.

دخل الشقة وألقى نظرة سريعة داخل حجرة الجلوس. كما توقع، وجدها جالسة في مكانها المحبب على الأريكة شاردة من خلال ثقوب المشربية في متابعة حركة الشارع بينما «سُكَّرة» الخادمة تجلس على الأرض تحت قدميها. تأمل بقلب خافق جانب وجهها ببشرته القمحية الصافية وقوامها الممشوق وقد تدلت عليه حتى خصرها الدقيق جديلتها البندقية. في الخلفية تدور الأسطوانة السوداء في الجرامافون الذي أحضره لها ما إن طلبته وصوت سيد درويش يتصاعد منه متغنياً بسؤاله الذي لا إجابة له «يا فؤادي ليه بتعشق؟» مثيراً بداخله شجوناً لم يكن يعرف أنها موجودة أصلاً.

تحرك نحو غرفته ليستبدل ملابسه. هل شعرت بدخوله كما شعرت به «سُكَّرة» لكنها لم تتحرك من مكانها أو حتى تلتفت نحوه؟! نفض رأسه بسرعة نافية عن ملاكه مثل هذا السلوك. بالتأكيد هي لم تشعر به لأنها كانت مأخوذة بأغنية سيد درويش التي يعلم جيداً كم تحبه، لكنه لم يستطع أن يمنع قلبه من التمني. شد ما تمنى أن تشعر بدخوله فتهب نحوه معبرة عن شوقها له.. كم تخيلها وهي ترافقه وهو يستبدل ملابسه لتبادله حديثاً مسترسلاً يتقلب بين حكايات عن تفاصيل اليوم التي لا معنى لها وبين كلمات الحب التي تبدأها هي فيجيبها بأن يصف لها الوحشة التي تزحف على صدره وقلبه ما إن يخطو خارج عشهما الصغير، لكنه يفيق كل مرة من خياله بخيبة أمل يعالجها سريعاً بنظرة خاطفة لها فيتلج صدره المضطرم بحقيقة أن الله خصه هو وحده بها، وهو أمر لا يعد الشعور بالخيبة حياله إلا ضرباً من الكفر. كيف لا يكون ممتناً من كل قلبه من تعيش حوله البشرية في ظلام بينما لا تشرق الشمس إلا عليه هو فقط!؟

عاد ليتوقف أمام باب غرفة الجلوس مرة أخرى وقد ارتدى جلباب المنزل وهو يهتف في توجس:

- منيرة.. هيا من أجل الغداء!

التفتت نحوه أخيراً ورمقته بعينيها العسليتين الخابيتين وهي تومئ دون أن تتطرق بكلمة. سبقها هابطاً السلام لأنه كان يعرف أنها لن تتحرك من مكانها إلا عندما تنتهي الأغنية. توقف على آخر درجة تفصله عن باب شقة أبيه عندما وصله صوت زينب زوجة حامد وهي تسأل ابنه حسين بنبرة أحس بها شيئاً من اللؤم:

- معقول ماما لم تطبخ أي شيء من أجل غداء اليوم؟

لمح من خلال الباب أمه زبيدة وهي ترمقها قائلة بنظرة ذات معنى:

- ولماذا تريدان منيرة أن تطبخ يا زينب؟ ألا يعجبك طبيخي؟!!

دخل محمود في تلك اللحظة واتجه بسرعة نحو غرفة الجلوس متظاهراً بعدم الالتفات لما يحدث، بينما كان يسترق النظر خلسة نحو زينب التي انتفضت عندما باغتتها حماتها بسؤالها قبل أن تجيب في تلعثم:

- لا بالطبع يا حماتي.. أنا فقط.. أقصد أن منيرة لا تأتي لمساعدتنا في طهي غداء الجمعة وتحتفظ بـ «سكرّة» في شقتها طوال اليوم.. فظننت أنها كانت تساعدنا في طهي صنف ما ستحضره معها!

صمتت زبيدة للحظة وهي تتأملها في شيء من الغيظ المكبوت. زينب لم تكذب فيما قالت. ولو كانت الظروف مختلفة ما كانت زبيدة لتصمت على ذلك أبداً، لكنها للأسف لا تملك خياراً آخر. كلهم لا يملكون خياراً آخر منذ اللحظة التي خطت فيها منيرة ابنة الحاج ياسين على سن ورمح داخل بيتهم، ووجدوا أنفسهم جميعاً فجأة مسؤولين عن الحفاظ لها على نفس مستوى حياتها التي كانت تعيشها في بيت أبيها. حتى وإن استدعى ذلك شيئاً من عدم الإنصاف لزينب أو تغيير الكثير مما اعتادوا عليه.

- لا أنتظر منكن أصنافاً يا ست زينب. هلا توقفتِ عن كلامك السخيف هذا وذهبتِ لتحضري بقية الأطباق؟!!

قالتها زبيدة في حزم وجفاء لتغطي بهما على ضعف موقفها، لكن زينب كانت أجبن من أن تواصل مناقشة حماتها فتوجهت نحو المطبخ مسرعة وهي تحمد الله أن أنهى الموقف على خير. مرت زينب بجانب إحسان وهي خارجة من المطبخ. وضعت إحسان طبق الأرز على الطبلية ثم انتصبت في مواجهة أمها وهي تهمس في ضيق مبعثه كرهاها للظلم وليس بسبب أية مشاعر إيجابية نحو زينب أو سلبية نحو منيرة:

- زينب محقة يا أمي! منيرة لا تساعدنا أبداً! إنها تكاد تكون لا تختلط بنا أصلاً! وأنتِ لا تتحاملين إلا على زينب! يبدو أنكِ غير منتبهة لضيق حامد.

زفرت زبيدة وقد بلغ غيظها مداه وهي تجد نفسها مكتوفة اليدين هكذا ومضطرة للإتيان بما لا تريده أبدأ. أسرعت تهمس في عصبية لتنتهي الأمر مدارية حقيقة أنها مغلوبة على أمرها:

- والله عال! كبرت وأصبحت تملين عليّ ما يجب أن أفعله! اصمتي. محمود في الداخل ولا نريده أن يسمع هذا الكلام الفارغ!

دخلت إحسان متذمرة بينما تابعتها زبيدة بعينين حانقتين. بالطبع سمع محمود كل شيء، كما أنها تعرف كل شيء دون أن تكون في حاجة لأن تنبهها إحسان أو غيرها. كيف لا تقطن إلى ضيق حامد المكتوم حتى وإن حاول إخفاء ذلك؟! لم يكن ضيقاً يسببه حبه لزينب أو مراعاته لمشاعرها ولكنه كان شيئاً يشبه الغيظ من الحظوة التي يخصون بها زوجة محمود دون زوجته. كيف لا تقطن إلى غيرة زينب التي تنهش أحشاءها مهما حاوت إخفاءها عن أعين الجميع؟ تلك الغيرة التي أخذت تتعاطم مع مرور السنوات رغم صمتها وعدم إتيانها بأي قول أو فعل يفصح بوضوح عما بداخلها.

لم تتحل زينب قط بأية شجاعة تدفعها للتصادم مع طبع حامد الحاد أو شخصية حماتها القوية، ولم يكن هناك مجال لذلك من الأساس بسبب صمت منيرة الدائم وانطوائها المستمر في شقتها وزهداها في كل شيء ترغبه عادة أية امرأة كان يمكن أن تكون مكانها. جبن زينب هذا أنقذها لأنه دفع زبيدة لأن تلتصق لها العذر بينها وبين نفسها وهي ترى الأسباب تتراكم ضاغطة على صدر زوجة بكرها يوماً بعد يوم. فمن أين لها هي ذات الجمال المتواضع وابنة الأسرة المتوسطة بما يؤهلها لتتساوى مع أو حتى تقترب من «سلفتها» ذات الجمال الساحر وابنة واحد من أكبر تجار القاهرة؟! كيف كان يمكن أن تتجاهل كل هذه الحفاوة التي استقبلت بها منيرة في بيت لم يستقبلها ولو بجزء يسير من نفس هذه الحفاوة؟! حتى حموها الشيخ سلامة كانت فرحته أكبر من أن يستطيع إخفاءها مهما حاول، وكان حرصه على الحفاظ على نصاعة منظرهم في عيني صهره شديداً حتى إنه أسرع بإحضار خادمة لأول مرة في تاريخ المنزل، بعد زواج محمود بمنيرة بشهر واحد فقط. صحيح أن «سكرة» كانت تساعد في أشغال الثلاث شقق، وأن إقامتها كانت في غرفة أعدت لها في الطابق المسروق وليس في أية شقة منهم، إلا أنه كان معروفاً للجميع أن الشيخ سلامة لم يأت بها إلا بعد أن لاحظ تردد خادمات بيت الحاج ياسين على شقة محمود لخدمة منيرة كما اعتادت دائماً.

وكان كل ذلك لم يكن كافياً؛ ففي الوقت الذي كانت فيه منيرة تحمل وتلد ابناً إثر الآخر، كانت زينب تحصد حسرات فشلها في الإتيان بأخ أو حتى أخت لمحمد، كأن رحمها قد استنزف من حصاد واحد فقط وأصابه جذب دائم لا ثمر بعده.

عاد حامد من شقته وخرج الشيخ سلامة وإبراهيم من غرفتيهما بعد أن ارتديا جلبابي المنزل. التف الجميع حول الطيبيلة، ثم سادت لحظة مشحونة بالاضطراب على الجميع إلا إبراهيم الذي هتف بشكل تلقائي:

- أين منيرة؟! -

أسرعت إحسان توكزه في ذراعه في تأنيب على سؤاله المتسرع. شعر بالحرج واتجهت عيناه نحو محمود بنظرة معتذرة فوجده يرمقه في شيء من اللوم. وبينما خالج عدم الارتياح ملامح سلامة، بدا الغيظ المكتوم على وجه زبيدة ولاحت ابتسامة هازئة على شفاه حامد وزينب.

دخلت منيرة في تلك اللحظة بنفس الملامح الهادئة الخابية، فأفسح لها محمود مكاناً بجانبه في صمتٍ دون أن يحاول أحدهم تأنيبها على وصولها المتأخر هذا بعد جلوس الجميع - وخاصة الشيخ سلامة - حول الطاولة!

لا يهم كم سنة مرت عليها في بيتهم، وكم جمعة تناولت غذاءها معهم، ستظل دائماً لحظة جلوسها خلف الطاولة لحظة حرج بالنسبة لها لما تجده من صعوبة في الجلوس متربعة على الأرض من أجل تناول الطعام. أخذت تتلملم وهي تحاول ثني ساقيها تحتها في عدة أوضاع مختلفة دون أن تجد أيهم مريحاً لها تحت الأنظار المحمقة فيها. أخيراً أشفق عليها إبراهيم وأشفق أكثر على أخيه الجالس بجانبها يراقبها في قلة حيلة. أسرع يناولها نمرقة (15) من النمارق الموزعة بين جنبات الصالة وضعتها تحت مؤخرتها واستقرت أخيراً عليها وقد ارتفعت قامتها عنهم قليلاً بسبب جلوسها عليها. رمى محمود أخاه إبراهيم بنظرة شاكرة ممتنة على إنقاذه لها وله بسرعة بديهته وإن كان تمنى بينه وبين نفسه لو كان هو من وافته تلك الفكرة.

مضوا يتناولون طعامهم في صمتٍ لعدة دقائق قبل أن ينتبهوا على صوت خطوات تصعد السلم وتتوقف قبل باب الشقة بقليل. ارتفعت رؤوسهم في تساؤل بينما علا صوت الشيخ سلامة مستقراً عن الباب.

- أنا يا سيدي.

وصلهم الصوت النسائي الرقيق دون أن يكون له أي دلالة عن تلك التي تقف ببابهم. ظنوا للحظة أنها واحدة من طالبي الحاجات أو مستحقي صدقات الوقف المعتادين على زيارة الشيخ سلامة في بيته دون موعد. لكن سرعان ما ارتفع صوت منيرة على غير عادتها وقد تملكت منها دهشة شديدة:

- حنة؟! -

- نعم يا ستي خادمك حنة.

- تعالي يا حنة!

أسرعت منيرة تقف لتستقبل خادمة أمها في زيارتها غير المتوقعة تلك! خطت المرأة الأربعينية الملفوفة بالسواد بخجل حتى توقفت عند عتبة الشقة دون أن تتجاوزها. أخفضت يدها الملتفة بوشاحها كاشفة عن وجه شاحب وعينين دامعتين مضطربتين. رمقتها منيرة وهي تتساعل في توجس:

- خير يا حنة؟! -

توترت المرأة للحظة قبل أن تخفض عينيها مجيبة في خجل وبنبرة حزينة:

- البقية في حياتك يا ستي. سيدي الحاج تعيشي أنت من ساعة.

حملت منيرة نحوها غير قادرة على الاستيعاب بينما تعالت حولها أصواتهم وهم يحولون في صدمة. أسرع محمود يقف في مكانه ويتجه نحوها وقد تملك منه خوفٌ عظيمٌ عليها من وقع الخبر. اقترب منها متوجسًا من ردة فعلها قبل أن يطوقها بذراعيه ويحتضنها بهدوء ليحتوي حزنها غير أنه بما يمكن أن يقع عليه من لوم بعدها من أمه أو من حامد، لكنها لم تتحرك، لم تذرف دمعًا ولم يطفرف لها جفن، كأنها تحولت إلى تمثال جامد في مكانه. لم تتجاوب مع حضنه الموسي هذا ولم ترفع يديها إلا من أجل أن تفك ذراعيه المتشابكتين حولها وتخفضهما في رفق ولكن بحزم. تحركت أخيرًا مجتازة إياه ثم الخادم التي أفسحت لها الطريق لتعبر نحو السلالم وتصعدا نحو شقتها بخطوات هادئة وجمود مريب، كأنها مسحورة بتعويذة ما أو سائرة نحو هدف محدد لا يراه أحد غيرها!

أسرع الشيخ سلامة يستحث محمود قائلاً:

- هيا يا محمود اذهب خلف زوجتك. لا تتركها.

ثم التفت نحو إبراهيم وحامد مفرزًا إياهما:

- ارتديا ملابسكما بسرعة. أحمد أخو منيرة يحتاجنا أن نكون بجانبه الآن.

- ومن يوم العصر يا أبي؟! -

هتف بها حامد في استنكار من لا يطيق أي مساس بنظام الوقف أو المسجد مهما كانت الظروف. رمقه الشيخ سلامة في ضيق قبل أن يقول مؤنبًا:

- الواجب أولى بتفكيرنا الآن يا حامد.

فأجابه حامد في إصرار:

- المسجد واجبنا أيضًا.

زفر الشيخ في حنق بعد أن غلبه حامد بمنطقه قبل أن يقول مستسلمًا:

- فليبق إبراهيم ليؤمهم في الصلاة.

فهتف حامد بنبرة لا تخلو من سخرية:

- تأخذني أنا معك وتُبقي هنا إبراهيم الذي ترك الأزهر من أجل الجامعة ليؤم الصلاة؟!!

التقت إبراهيم نحوه هاتفاً في حدة:

- وهل طلبة الجامعة لا يصلون يا سي حامد؟! ثم ما الداعي لفتح هذا الموضوع الآن؟!!

هم حامد بالرد عليه مستدعيًا ما نما بينهما في السنوات الماضية من مشاحنات وما انتاب علاقتهما من توتر، لكنه توقف عندما هتف فيهما الشيخ سلامة غاضبًا على غير عادته:

- ما شاء الله! نترك الواجب والرجل الذي لم يبرد دمه بعد ومنتظر نتيجة شجاركما! فلتبقَ يا حامد على أن تلحق بنا بعد العصر وأنت يا إبراهيم هيّا ارتدِ حُلُتك.

أخفض حامد وجهه راضيًا بعد أن نجح في الحفاظ على حظوته، كما هي العادة، في كل شيء يخص الوقف بينما زفر إبراهيم فيما يشبه الإشفاق على زهو أخيه بتلك الانتصارات الوهمية.

أسرع محمود يلحق بمنيرة. تبعها داخل غرفتهما وهو يتأمل جمودها هذا بإشفاق وقد بلغ في تلك اللحظة حبه لها وخوفه عليها درجة لم يبلغها من قبل! راقبها وهي ترص ملابسها في حقيبتين كبيرتين استعدادًا لأيام الحداد التي ستقضيها في البيت الكبير. مضى مستسلمًا ليستبدل ملابسها في توجس متوقعًا انفجارها في أية لحظة بينما بدت هي منصرفة عنه تمامًا كأنه غير موجود بالمرّة. خلعت جلاب المنزل فبدا جسدها الملفوف رائق البشرة فاتنًا كعادته لم تتل منه السنوات أو يؤثر فيه الحزن. أدخلت ساقها في ثوبها الأسود ورفعته إلى وسطها قبل أن تتركه فجأة معلقًا هكذا عند منتصف جسدها وتتكئ على عامود الفراش النحاسي وتجهش بالبكاء. كاد محمود أن يسرع نحوها محاولاً تهدئتها، لكنه تسمر مكانه عندما صدرت من وسط دموعها فجأة ضحكات خافتة متقطعة أخذت تتصل وتتعالى حتى تحولت إلى قهقهة بائسة دون أن تتوقف عن ذرف الدموع! تأملها في استغراب لم يخل من إشفاق! حاول أن يقترب منها لكنها أسرعت تشير له بأن يظل مكانه ثم مسحت دموعها في ثبات وعادت ترتدي ملابسها وقد استرجعت جمودها مرة أخرى لكن خلف طبقة من الدموع.

في شقتها، كانت زبيدة تتحرك في توتر بين الباب المفتوح وإحسان التي كانت تجالس ابني منيرة حول الطبلية لتلهيها عما يحدث وتساعدتها على استكمال طعامها. مر إبراهيم أمام باب الشقة حاملاً حقيبتين منيرة وواصل هبوطه بهما ليضعهما في الحنطور المنتظر أمام باب المنزل. راقبته زبيدة بشيء من الدهشة ثم التفتت متسائلة نحو الشيخ سلامة الذي أقبل نحوها من غرفته بعد أن استبدل ملابسها:

- لم هاتان الحقيبتان الكبيرتان يا سلامة؟!!

فأجابها في بساطة:

- بالتأكيد ما يلزمها لتبقى هناك حتى الأربعين.

- أربعين؟!!

ثم زفرت وهي تستكمل في شيء من السخرية:

- وهل سيتحمل ابنك بعدها حتى الأربعين؟!!

رمقها سلامة في لوم كأنه يقول لها «أهذا وقته؟» ثم أجابها في حزم:

- يجب أن يتحمل! البنت تينمت للتو! المهم حاول أنت وإحسان إلهاء حسين وعلي وأنا سأحاول الإرسال لكم بالأخبار أولاً بأول.

قالها وأسرع يهبط السلالم خلف إبراهيم قبل أن يتبعه بعد قليل محمود ثم منيرة. ترتدي السواد وتغطي وجهها باليشمك الأبيض الذي لم يخف نظرات الجمود في عينيها وقد خالطهن لمعة تصميم غريبة!

- شتاء ١٩٢٢ -

القاهرة

(١)

جَلَسَتْ ميري إلى مائدة الطعام الخشبية المستديرة على أقرب كرسي لنافذة الصالة المطلّة على شارعهم الضيق. رغم برودة الجو إلا أنها تعمدت تَرْك درفتيها مفتوحتين حتى يصلها بوضوح صوت الشاعر المستقر على دكته في صدر المقهى الكائن أسفل منزلهم. تدندن معه أغنياته في جذل بعد أن قضت أياماً وليالي طوال بجانب النوافذ تتسمع لنغماته وكلماته المحببة فتطرب لها روحها وتحفظها عن ظهر قلب وتعيدها بينها وبين نفسها في سرية حتى يرتفع صوتها دون أن تنتبه. تتلقى كلمة إطراء من أي فردٍ يصدف وجوده بجانبها معجباً بصوتها وإحساسها الموسيقيّ. تجفل وتخجل بشدة. تعود لتخفض صوتها وتحاول أن تظل منتبهة حتى لا يسمعها أحد قبل تنسى نفسها في يوم آخر ويتكرر الأمر مرة أخرى.

جسدها الناضج رغم نحافته ملفوفٌ في روب منزلي ثقيل منقوش بورود زرقاء فاتحة في لون عينيها. على ظهرها تنام جديلتاها بصفارهما الشاحب تكادان لا تتحركان، بينما أناملها البيضاء الملطخة باللون الأحمر تعمل بتؤودة وحرافية. تبسط أمامها على الطبق الورقة الخضراء الرقيقة قبل أن تأخذ حفنة صغيرة من الأرز المخلوط بالأعشاب الصغيرة الخضراء ومعجون الطماطم. تضعهم

بهدهوءٍ بعد حافة الورقة بقليل ثم بخفة تجمع الطرفين وتدير الحافة للداخل عدة دورات سريعة وفي ثوانٍ يصبح إصبع محشو الكرنب جاهزاً للنوم في سكينه بجانب إخوانه في واحدٍ من إنائين موضوعين أمامها.

ارتفع خلفها صوت طُرق على باب الشقة. دقائق ضعيفة سريعة متتابعة في إلحاح على النصف الأسفل من الباب. تملمت ونظرت إلى يديها وحولها في قلة حيلة قبل أن تنادي بنبرة مضطرة:

- تعالي يا خالتي افتحي الباب.. يداي مشغولتان!

لم يتوقف إلحاح الكف الصغير خلال الثواني التي أعقبت نداءها حتى ظهرت من الداخل امرأة خمسينية سمراء ممثلة الجسد. ترتدي جلباباً أسوداً وتلف رأسها بمنديل أبيض بينما قدمها المدسوستان في نعلين صوفيين تحتكان بالأرض في كل خطوة وهي تقترب من الباب في مللٍ وحنقٍ. ما إن فتحت حتى توقف الدق ووجدت نفسها أمام طفل لم يكمل التاسعة من عمره. جسده مختبئ في جلباب كالح وستره صوفية قديمة ورأسه كأنها دمل ناتئ تحت طاقية «شبيكة» لا لون لها ويده النحيلة ممدودة نحوها بسلطانية تمتلئ باللبن الزبادي.

مطت المرأة شفيتها قبل أن تهتف في دهشة وضيق:

- ما هذا يا ولد يا ددق؟! ألم أقل لك مئة مرة أن تحضر لي الزبادي قبل أذان المغرب مباشرة حتى يكون طازجاً على العشاء واتفقت مع معلّمك على ذلك؟!

أجابها ددق وجسده يتلوى متملماً:

- المغرب اقترب يا خالتي أم نعيمة!

شهقت أم نعيمة ثم هتفت بنبرة متوعدة:

- يا ابن الكذابة! الشيخ حامد رفع لثوه أذان العصر!

أخذ ددق يتقافز في قلة صبر وهو يهتف متوسلاً:

- والنبي يا خالتي. اليوم فقط. حتى أستطيع أن أسبق دعيس وأركب زقزوقة عم مصيلحي قبله!

ابتسمت ميري وهي لا تزال منهمكة في لف المحشو. الحي كله يعرف عن هذا الصراع الطفولي القائم باستمرار بين ددق صبي اللبّان ودعيس صبي الكوّاء. صراع عابث على أشياء تافهة لكنه دائماً ما تسبب في ضياع أو تلف ملابس الزبائن أو أطباق الزبادي أو تأخر وصولهم عن المواعيد المتفق عليها. حوادث صغيرة تنتهي بعلاقة ساخنة يتلقاها ددق أو دعيس أو كليهما قبل أن يعودا مرة أخرى لصراعهما كأن شيئاً لم يكن.

رفعت أم نعيمة كفيها وهي تهتف في غيظ:

- إلهي تنقلب بكما الزقزوقة وتقصف رقبتيكما.

لم يبالي ددق بضيقها أو حتى بدعائها عليه. لم يكن يشغله سوى التسابق الطفولي الذي يريد أن يفوز فيه بأي ثمن حتى ولو «انقصت» رقبته. أخذ يتقافز مستكماً توسله كأنها لم تقل شيئاً:

- والنبي يا خالتي والنبي وحياء رحمة نعيمة.

اختفت ابتسامة ميري وهي تلتفت في قلقٍ نحو أم نعيمة التي ما إن سمعت الاسم حتى شحب وجهها وتوقف الكلام في حلقها ومدت يدها تضغط بها على صدرها محاولة تهدئة قلبها الثكلان، بعد أن ضربته موجة حزن مفاجئة لذكرى وحيدتها التي رحلت قبل ثلاث سنوات.

أسرعت ميري تنهره محاولة إنهاء الموقف بسرعة:

- كفى يا ددق! تعال ضع السلطانية هنا بجانبني واذهب ولا تفعل ذلك مرة أخرى.

قبل أن تنهي كلماتها كان الطفل الصغير قد دخل ألقى السلطانية بجانبها على المائدة ثم دلف من الباب نحو الخارج طائراً حتى اختفى على السلم. أخذت أم نعيمة نفساً عميقاً وهي تغلق الباب بينما عادت ميري لاستكمال لف المحشو وهي ترهف سمعها في ترقب محاولة التنبؤ بما سيحدث. هل سيعبر الموقف بسلام كما يحدث في معظم الأوقات؟ أم ستكون هذه من المرات القليلة التي لا تتحمل فيها الذكرى وتتهار باكية؟ لكنها تنفست الصعداء عندما أدركت أن أم نعيمة استطاعت تمالك نفسها حين وجدتها تقرب لتقف بجانبها متأملة محتويات الإناءين قبل أن تقول في إعجاب:

- جدعة! من يرى المحشو يظن أنك مصرية ابنة مصريين، ولست ابنة خوات وأسمك ميرماما.

اتسعت ابتسامتها وهي تكرر ما لم تتوقف عن قوله طوال الثلاث سنوات الفائتة:

- ميربابا يا خالتي. ليس ميرماما!

مطت أم نعيمة شفثيها وهي تهتف مستنكرة:

- بابا! هؤلاء الخوات يا أخواتي كيف يفكرون؟! يسمون بناتهم أسماء رجالي!

التفتت عائدة نحو غرفتها بينما رفعت ميري صوتها مجيبة في إصرارٍ لطيف:

- لست خواتية يا خالتي! أنا مصرية واسمي نعيمة.

لم تحتج أن ترى وجه خالتها لتعرف أن ابتسامته واسعة تزينه الآن. كما تزينه في كل مرة تكرر على مسامعها ما يفيد تمسكها الشديد بأن يتم تسميتها باسم الغالية التي أكد لها الجميع أنها سبقتها إلى الفردوس.

تركت ميرى المحشو وشردت نحو النافذة المفتوحة بجانبها بعدما أعادتها خالتها - بسبب الحيرة وليس أخوة الأم - إلى ما قبل ثلاث سنوات مضت عندما قرروا الانتقال إلى هذا البيت الجديد.

تذكرت هذا اليوم عندما توقف الحنطوران وخلفهما العربة الكبيرة التي تحمل حاجياتهم وأثاثهم أمام باب المقهى. رمقهم روادها في اهتمام قبل أن تتركز عيونهم على تيمور وهو ينزل من الحنطور الأول يتبعه حسن وقد أصبح صبيًا يافعًا في التاسعة من عمره. تلفت تيمور حوله في حيرة للحظات قبل أن يقبل عليه رجل أربعيني يرتدي جلبابًا مخططًا بالطول تحت سترة أنيقة. فوق رأسه طربوش طويل وفي يده منشفة يهشش بها أمام وجهه وهو يقترب منهما وفضوله يسبقه:

- أي خدمة يا حضرت؟! -

التفت نحوه تيمور ثم أجابه بعربية أصبح يتقنها جيدًا:

- أنا تيمور أفندي.. (مشيرًا إلى الطابق الثاني فوق المقهى) استأجرت هذه الشقة من شهرين من المعلم سيد.

أشرق وجه الرجل وهو يهتف متهللاً:

- آه أنت المستأجر الجديد! ألف مرحب. محسوبك الحاج صابر شيخ الحارة.

- تشرفنا يا حاج صابر.

ثم عَقَبَ تيمور مداعبًا:

- لكن هذه ليست حارة.. إنه شارع.. الحارة لا تبدو كذلك.. أعرفها وسكنت بوحدة في الإسكندرية قبل أن ننتقل إلى القاهرة من سبع سنوات.

فابتسم الحاج صابر وهو يقول موضحًا:

- هكذا يقولونها «شيخ حارة» ليس ثمة «شيخ شارع».. يبدو أنكم خواجهات؟

قاوم تيمور حتى لا تبدو على وجهه أمارات الملل. هاك السؤال المكرر! والذي يجرجر وراءه ذيلًا لا ينقطع من الأسئلة. من أي بلد أنتم؟ متى وصلتم مصر؟ كيف؟ لماذا تركتم بلدكم؟ أنتم مسلمون؟! أتراك أنتم إذا؟ كيف تكونون خواجهات ومسلمين في نفس الوقت؟!

أوما تيمور مبتسماً وهو يجيب محاولاً تفادي أكبر قدرٍ ممكنٍ من الأسئلة:

- نعم. وصلنا مصر قبل أكثر من سبع سنوات تقريباً.. جئنا من بلد بجانب بلاد الإجريج لكننا مسلمون والحمد لله.

هكذا اعتاد أن يجيب. كما اعتاد أن يصف البلاد التي أتوا منها بأنها «بجانب بلاد الإجريج» وذلك لأنه عرف بالتجربة أنه سيُدخل نفسه في متاهات لا نهاية لا إن قال اسم بلد غير معروف تماماً للمصريين مثل بلغاريا. لكنه يعرف جيداً أن اليونان مألوفة لديهم لكثرة تواجد أهلها بينهم.

استراح تيمور قليلاً عندما وجد الحاج صابر يومئ راضياً بما تلقى من إجابات دون أن يتكبد عناء طرح أسئلتها. كاد أن يطمئن تماماً، لكنه تقاجأ بالرجل يحيد نحو نوع آخر من الأسئلة:

- وأين كنتم تسكنون في القاهرة قبل مجيئكم إلى شارعنا؟!!

أجابه تيمور مستسماً لموجة ثانية من الاستفسارات:

- كنا نساكن في ملحق الموظفين والخدم الخاص بقصر جودت باشا روستو. هل تعرفه؟

- بالطبع ومن لا يعرفه؟! هل تعمل لديه؟

- نعم. أنا سكرتيره الثاني والمشرف على شئون قصره.

ثم أسرع يجيب على السؤال الذي لاح في عيني الرجل قبل أن يسأله:

- لازلت أعمل لديه لكنني قررت الانتقال إلى سكن مستقل لأنكون قريبين من مدرسة ابني حسن (ربت على رأس حسن الذي كان يتابع الحديث صامتاً في رزانة لا تليق بطفولته) وأيضاً لأن لدي بنتين وكما تعلم يستحسن أن يكونا على حريتهن في بيت خاص. صحيح أنه كان لدينا غرف خاصة في الملحق لكن السكن الخاص أفضل.

- عين العقل يا تيمور أفندي. زين ما فعلت.

تلقى تيمور مديح الرجل مبتسماً بينما عقله مشغول بالسبب الرئيسي لقرار الانتقال والذي شعر بالخرج من أن يفصح به لغريب. فتيمور الذي أراد أن يزيد استقرار أسرته في الوطن الجديد كان يخطط للمستقبل بإحكام. هو يعرف أن أبناءه لن يصيروا جزءاً من مصر بشكل حقيقي إلا إن تزوجت ابنتاه من أسر مصرية أصيلة وأكمل حسن تعليمه حتى يحصل على وظيفة مرموقة. ومن أجل هذا وذاك جاء قرار الاستقلال بالسكن من أجل شكل ومستوى اجتماعيين يحققان له أهدافاً لم تكن لتتحقق لو ظلوا محصورين في خانة «خدم الباشا».

انطلق صوت غناء الشاعر في خلفية هذا الحديث الذي طال وتشعب بلا داع. أخفضت ميري رأسها مجتازة مظلة الحنطور باحثة بعينيها عن مصدر هذا الصوت. كانت في الخامسة عشر من عمرها. فتاة صغيرة اكتشفت لتوها شغفها الكبير بالغناء. صارت مهووسة به. تبحث عنه في كل مكان فكانت فرحتها لا توصف عندما اكتشفت أنهم سيسكنون فوق هذه المقهى حيث يغني هذا الشاعر ذو الصوت العذب.

التقت عندما سمعت أمها تنهر رقية وهي تحاول المرور من أمام ركبتيها والنزول للشارع. أسرعت تمسك بها وتجذبها لتجلسها على فخذيها في حزم بينما الطفلة تتلوى وهي تهتف متذمرة:

- أريد أن أنزل إلى الشارع مثل حسن.

- حسن كبير.

- حسن يكبرني بعامين فقط.

فهتقت ميري في حسم:

- حسن رجل. لا نزول إلى الشارع يا رقية إلا عندما ننزل كلنا، فهمت!

أفحمت رقية في بكاء محتج تلوع له قلب ميري. يا رب تخاف عليها حد الهلع وفي نفس الوقت لا تتحمل رؤية دموعها! لا تملك أمام هذه المواقف سوى أن تتحامل على نفسها لتجد حلاً متوسطاً يرضي الصغيرة ولا يثير فزعها عليها حتى وإن أرهاقها بأي شكل آخر.

حملت ميري رقية وهبطت بها من الحنطور لتكف عن بكائها. أخذت تتحرك بها جيئة وذهاباً ما بين الحنطور الذي ظلت أمها جالسة بداخله وموقف أبيها مع هذا الرجل الغريب فسمعته وهو يتساءل في حيرة:

- ما الذي أخرجكم هكذا وقد استأجرتم البيت من شهرين!؟

- مظاهرات الثورة يا حاج صابر منعنا ولم نستطع المجيء إلا عندما أفرج الإنجليز عن سعد باشا ورفاقه من جزيرة مالطة وسمحوا لهم بالسفر لحضور هذا المؤتمر في باريس فهدأت الدنيا قليلاً.

أوما الرجل متفهماً قبل أن يهتف في أسف وهو يختلس النظر نحو تيمور ليلتقط أثر كلماته عليه:

- والله لا أعرف ماذا أقول لك يا تيمور أفندي! لقد سافر المعلم سيد إلى بلده بالصعيد وقت المظاهرات ليكون بجانب أهله، وترك لك المفاتيح مع الست أم نعيمة قاطنة الطابق الأول.. لا حول ولا قوة إلا بالله!

تساءل تيمور في قلق:

- ماذا هناك يا حاج صابر؟!!

حاول الحاج صابر أن يخفي استمتاعه بإثارة فضول تيمور نحو ما لوح به من معلومات وهو يفصح عنها أخيراً في تأثر:

- الست أم نعيمة فقدت ابنتها الوحيدة في الثورة. سقطت شهيدة برصاص الإنجليز (16) لعنهم الله.

- هل كانت تسير في المظاهرات النسائية التي سمعنا عنها؟!!

مطَّ الحاج صابر شفثيه قائلاً:

- لا أحد يعرف إن كانت قد تصادف سيرها بجانب مظاهرة ما فتلت رصاصة عشوائية أم أنها كانت متأثرة بما يحدث في البلد فقادت حماسها للانضمام إلى إحدى المظاهرات النسائية تلك. لكننا أكدنا لأمها المسكينة أنه بغض النظر عن أي شيء فإن ابنتها شهيدة لا جدال في ذلك وأنها الآن عروس في الجنة. المشكلة الآن أن الست من يوم ما حدث وهي لا تخرج من بيتها ولا تكلم أحد خاصة الرجال لأنها أصبحت تعيش وحدها. ربما إنَّ صعدت إليها زوجها.. ربما تجيبها!

أجابه تيمور متحرّجاً:

- زوجتي للأسف لا تحسن سوى كلمات عربية قليلة.

- لكنك تتحدثها جيداً ما شاء الله!

- نعم نتحدثها جميعاً جيداً. تعلمناها على يد مدرس خصوصي لكن زوجتي للأسف لم يكن لديها ما يكفي من طاقة لمواصلة التعلم ففضلت الاعتماد علينا في أمور التواصل هذه.

عندئذ التقت الحاج صابر نحو ميري التي كانت تقف قريباً منهم تحمل رقية وتلاعبها:

- وابنتك هذه تتحدثها جيداً؟!!

- نعم.

زفر الحاج صابر قائلاً في استسلام:

- إذاً لا حل لدينا سوى أن تصعد هي إليها. إنه خيارٌ غير مأمون العواقب لأن نعيمة رحمها الله كانت في مثل عمرها، لكن لا حل آخر لدينا.

وهكذا وجدت ميري نفسها تصعد سلالم البيت الجديد في أول مهمة لها كسفيرة للأسرة مع الجيران. مهمة ستضطلع بها كثيرًا بسبب عدم قدرة أمها على مجاراة دروس اللغة العربية مع المدرس المنزلي الذي أحضره لهم تيمور كما وعدهم قبل تركهم للإسكندرية.

دقت على الباب وهي تنادي بصوت خافت مبحوح لتُعلم المرأة أن الطارق ليس رجلًا. وقفت تنتظر في وجل ازداد عندما انفتح الباب وأطلت من خلفه أم نعيمة بوجهها الشاحب وعينيها الكسيرتين وقد لاح بهما شيء من اللفهة!

- أنا ميري ابنة السكان الجدد.

قالتها مبتسمة وهي ترمقها في توجُّس من ردة فعلها. هل تغلق المرأة الباب في وجهها أم تنهار في اليكأء؟! لكن لحسن حظها أنزل الله السكينة في تلك اللحظة على القلب المكلم وتفاجأت بالمرأة تفتح الباب لآخره وتفسح لها متممة في رقة:

- أهلا وسهلاً يا ابنتي. تفضلي.

خطت ميري داخل الشقة في توتر تحت عيني أم نعيمة الدامعتين. تركتها واختفت في الداخل لدقائق قبل أن تعود لها بمفتاح الشقة هكذا بمنتهى البساطة!

أسرع رجال الشارع يعاونون الأسرة الجديدة على نقل أثاثهم ولوازمهم وقد استبشروا بهم خيرًا بعد أن استطاعت ابنتهم إخراج أم نعيمة من عزلتها. بل وأكثر من ذلك! تفاجأوا بالمرأة ترسل صبي البقال ليشتري لها من السوق خضرواتٍ ودجاجًا. ولأول مرة منذ استشهاد نعيمة تتصاعد أبخرة الطهي من نافذة مطبخ الأم بعد أن أصرت على أن تقوم بتحضير الغداء للسكان الجدد كما تقتضي الأصول.

هبطت لهم بنفسها بصينية تحمل أطباق الأرز والبطاطس بالصلصة والدجاج المحمَّر والحساء. شكرتها فاطمة بكلمتي الشكر العربيتين اللتين تعرفهما بينما تعلقت ميري بذراعها مُصرَّة على ألا يأكلوا إلا إن أكلت هي معهم! بكت أم نعيمة في تأثر وامتلأت لطلب ميري فجلست تأكل معهم أكلاً مطبوخًا بعد أن عاشت الفترة الماضية كلها لا تأكل سوى الخبز الجاف والجبنة البيضاء.

في اليوم التالي هبطت لها ميري متحججة برغبتها في تعلُّم صناعة الملوخية. بينما أنها في الحقيقة كانت قد رقت كثيرًا لأم نعيمة وكانت تريد أن تخفف عنها وتدفعها بشكل غير مباشر للعودة لتناول الأطعمة الشهية.

وهكذا توالى بها الأيام معززة روابطها بالمرأة الطيبة التي احتضنت الثلاثة أبناء خاصة ميري واستعوضت بها عن غابت بلا رجعة. بادلتها ميري حبها بحب مماثل واحتواء لحزنها ومزاجها الذي أصبح كثير التقلب بعد ثكلها. كانت شبه مقيمة في شقتها حيث تعلمت منها الكثير واستعانت بها

للتواصل مع باقي نساء وفتيات الشارع. وعندما نصح البعض تيمور بتغيير اسم ابنته الكبيرة ليسهل للناس التعامل معها، بعد أن وجدوا كلهم تقريباً صعوبة في نطق الاسم الأصلي وتحرّج من تداول اسم التدليل، لم تتردد الفتاة ثانية واحدة قبل أن تختار «نعيمة» ليكون اسمها الجديد. بكت أم نعيمة ليلة كاملة وهي تشكر الله على أنه لن يجرمها لذة النطق بالاسم المحبّب طوال ما تبقى من عمرها.

* * *

تركت ميرري أحد الإناءين في المطبخ لتقوم أم نعيمة بطهيه عندما تستيقظ من قيلولتها. حملت الإناء الآخر صاعدة به السلالم نحو شقتهم بالطابق الثاني لتساعد أمها في إنهاء طهي غداء تأخر عن موعده بسبب ظروف سفر أبيها المفاجئ.

عندما جلسوا إلى مائدة الطعام كانت فاطمة قد أنهت هي وتيمور حزم الحقائق من أجل سفرة مباغته فاجأه بها جودت باشا. أبلغه في الصباح قبل ساعات قليلة أنه سيسافر معه إلى الإسكندرية ومنها إلى يافا ثم اسطنبول لعقد صفقات تجارية جديدة. ليست هذه هي المرة الأولى التي يسافر فيها تيمور مع الباشا فقد اعتاد دائماً اصطحابه معه للترجمة بينه وبين التجار الشوام وللإشراف على شئون منزله الذي يقيم به دائماً في اسطنبول. لا يمنعه عن ذلك حتى ظروف الحرب التركية اليونانية. فقد كان جودت باشا دائماً قادراً على تدبير أمور تجارته لضمان استقرارها ودوامها، لكن كانت هذه هي المرة الأولى التي يعرف فيها تيمور عن أمر السفر قبل موعده بساعات قليلة. فانقلب حال المنزل مع وصوله بالنبا قبل أذان الظهر ولم يهدأ إلا بعد أذان العصر بساعة مع جلوسهم لتناول غداء متأخراً عقب عودة حسن من مدرسته القريبة.

على عكسه هو الذي جلس يتناول طعامه في رزانة متقمصاً شخصية رجل البيت المسؤول عن نسائه خلال فترة سفر أبيه، كانت رقية تتلمل في جلستها تريد أن تترك طعامها بسرعة لتعود إلى لعبها في الشارع فنهرتها ميرري في حزم:

- رقية لن تلعبني إلا عندما تأكلين أكلك كله. كما أنه لا لعب في الشارع إلا عندما أكون أنا جالسة بجانب الشباك.

استقرت رقية في مقعدها على مضض (17) لم يخفف وطأته سوى ملاطفة تيمور لها. طالما حاولت فاطمة إثناء ميرري عن الجلوس لساعات بجانب النافذة لمراقبة رقية أثناء لعبها في الشارع. حاولت إقناعها بأن الشارع آمن والأطفال كلهم يلعبون فيه، لكن هيهات أن يؤثر في خوفها عليهم وعلى رقية بالذات أية طمأنة منطقية إذا كان قلقها نفسه غير منطقي، هذا القلق الثقيل المستمر الذي استقر في داخلها منذ صغرها فأصبح كأنه جزء من نفسها، يسيطر عليها ويحرّكها كيفما شاء في تسلط مستبد لا تملك حياله سوى الاستسلام له صاغرة حتى ولو على حساب راحتها.

ما إن أنهوا طعامهم حتى أكمل تيمور ارتداء ملابسه وقام بتنسيق شاربه وخصلات شعره البنية قبل أن يضع فوقها طربوشه الأحمر. قام بتوديعهم مقبلاً إياهم واحداً تلو الآخر ثم هبط السلالم بهدوء

خلف مكاري(18) الحنطور الذي سبقه حاملاً الحقائب، بينما أسرعت ميري نحو الأريكة الإسطنبولية الملاصقة للحائط تحت نافذة الصالة.

قرصت معتمدة على ركبتيها وأطلت تتأمل أباهما وهو يركب الحنطور ويبتعد به وهي تلاحقه بعينين تملأهما الحسرة. كم مرة سافر أبوها مع الباشا إلى إسطنبول وكم مرة همت بأن تبلغه بأمنية حياتها وهو يقبلها قبل رحيله ثم تتراجع في آخر لحظة وتعيش نادمة على تقويتها هذه الفرصة حتى تأتي سفرته التالية؟ لماذا تلزمها شجاعة خرافية لتتطرق أمامه وأمامهم جميعاً بهذا الطلب البسيط الذي تعلم جيداً أن لو أبوها أوصله للباشا لن يعصى عليه تنفيذه؟ ما الصعوبة في قول «أبي، حاول أن تبحث في إسطنبول عن زوج خالتي وأيسل فإن وجدتتها فسلّمها هذا الخطاب»؟ عشرات الخطابات تكتبها لابنة خالتها وصديقة طفولتها التي لم تصادق بعدها أحداً، عشرات الورقات تملأها وتخبئها في خزانة ملابسها بعيداً عن أعين الجميع. تعلم أن أيسل لن تستطيع أن تقرأ السطور العربية التي تخطها لها ولا تعرف كيف تكتب لها بلغة طفولتهما البلغارية، فهي تعرف كيف تتحدث بهذه اللغة لكنها لم تتعلم أن تكتبها، لم تتعلم أن تكتب سوى العربية، لكن إن استطاع تيمور أن يجدها فيمكن أن يترجم لها كلمات ميري بكل بساطة. ستتحمّل أن يطلع ثالث على أدق مشاعرها وأن يقرأ ما كتبتة لها. مستعدة هي أن تفعل أي شيء ليصل ما كتبتة إلى أيسل. فقط إن وجدها تيمور، فيمكن أن يكون لكل العُقد حلول. فقط إن وجدها. لكنه لن يبحث عنها. إن أراد ذلك لفعله منذ أول مرة سافر فيها مع الباشا إلى إسطنبول. لكنه لم يفعل ولا تعرف هي لماذا؟! لم تسأله ولن تسأله! لن تجعل أحداً منهم يعرف أنها عكسهم جميعاً؛ لم تستطع أن تتخلص تماماً من الماضي، وأنها لا تزال معلقة بأحد حباله. كيف تجاوزوا هم كل ما مضى؟! كيف استطاعوا؟! حسن ورقية كانا صغيرين جداً فليس لديهما ما يتذكرانه أو ينسيانه، لكن أمها وأباهما؟! ربما لأن فقدانهما الأساسي كان في خالتها رقية؟ أخت أمها وابنة خال أبيها والتي برحيلها في هذا اليوم المشئوم لم يتبقّ لهما ما يتعلقان به؟! فأيسل صغيرة في نظرهما لا يريدان سوى أن يطمئنا عليها وقد اطمأناً بالفعل لأنها مع أبيها ولا تحتاج لأكثر من ذلك، وانتهى الأمر بالنسبة لهما خاصة بعدما أطلقا اسم رقية على أختها الصغيرة واستعوضا بها ونسيا كل ما فات!

لكن هي، كيف تنسى؟!!

نعم لقد خفت ألم الماضي وذهب لكن آثاره باقية لا تزال.

اعتدلت في جلستها لتستقر على مؤخرتها. اعتمدت بمرققها على حافة النافذة وأسندت رأسها عليه وهي تتابع رقية أثناء انهماكها في لعب الشارع. تصاعد إليها صوت الشاعر بنغم هادئ أقرب ما يكون إلى الحزن فلون الكون حولها بلون رمادي خافت.

يا ترى كيف حالك الآن يا أيسل؟ كيف تبدين؟ هل غيرت اسمك مثلي؟ لا أظن. لقد اختار لك أبوك اسماً تركياً كأنه كان يعلم أنك يوماً ما ستتقلين لتستقري بين بني وطنه. ترى هل أحببت وتزوجت؟ أظن أن الأمر كان سهلاً جداً بالنسبة لك فأنت تعيشين وسط أهلك. لست غريبة بينهم لا يلتفت لك

الفتيان إلا للون شعرك وعينيك وملامحك الأوروبية، لكن ساعة الجد لا تدخلين حساباتهم أو حسابات الأمهات أو الخاطبات. حتى الجاليات الأجنبية، إما أنهم مسيحيون لا ينفعونك أو مسلمون لكن لا يصاهرون غير أبناء جاليتهم. هل أصبح لديك صديقات؟ بالتأكيد كان الأمر أسهل بالنسبة لك. وصلت فوجدتي جيران وأقارب وأبناء وبنات عمومة واندمجت في حياتك الجديدة بسرعة. كان لديك استعداد كبير لذلك؛ البدء من جديد. كان لدينا كئنا، ولدي أنا أيضاً هذا الاستعداد بعد كل ما حدث لنا، لكن استعدادك للتخلي كان أكبر بكثير في هذا اليوم الذي افترقنا فيه. لا أعلم لماذا؟! هل لأنك فقدت أمك قبل ذلك بأيام قليلة فأصبح كل فراق آخر هيناً بالنسبة لك؟! لا أعلم! ما أعلمه يقيناً أن بالتأكيد خسارتك بعد هذا اليوم لم تكن مثل خسارتي.

لكن بالرغم من كل شيء، يراودها دائماً هذا اليقين - أو أمنية بيقين - أنها في يوم مشمس أو ليلة مقمرة تمر بخيال آيسل فتشعر بالافتقاد والوحشة نحو صديقة طفولتها. وحشة عابرة. ليست وحشة مقيمة، لكنها تأتيها على أية حال.

بالتأكيد تأتيها.

ربما.

(٢)

عندما اجتاز محمود عتبة المسجد استقبله عبق البخور وذبالات المصابيح الهادئة، وغمره دفء خفف من وطأة البرد الذي ظل يلسعه وهو هائم على وجهه لساعات طويلة. لا يتذكر أين صلى المغرب؟! ربما في السلطان حسن أو بجوار الحسين! مرَّ بمناطق كثيرة، عبرها دون أن يكون حاضرًا فيها ووقعت عيناه على تفاصيلها دون أن يراها، هذا الثقل القاسي الذي احتل داخله لم يسلم منه خارجه أيضاً بعد أن استحوذ على حواسه فصار كمجذوب يسير بلا هدف لكن في حلة أنيقة بدلاً من جلباب مهلهل.

رمقه جعفر بنفس نظرتة المحايدة. لم يقترب منه ولم يحاول حتى إلقاء السلام عليه، كأنه خُلق لخدمة المسجد ولا شيء آخر، لكنه تابعه بعينيه وهو يرتمي جالساً بجانب ضريح جده كأنه يستتجد به من ضيق الدنيا وقسوتها. أسند رأسه إلى الحائط خلفه وأغمض عينيه مستغرقاً في أثير الذكر ومستجدياً ولو قطرة واحدة من موجات السكينة الحائمة فوق عمائم ورؤوس الرجال المتحلقين بجانب المنبر. عشرة رجال في دائرة يتصدرها أبوه الشيخ سلامة، على يمينه يجلس إبراهيم بوجه حليق أسمر وديع رغم التصميم الذي تمتلئ به عيناه والتحدي الذي لم يكن من طبعه وشبَّ مع قامته العشرينية النحيفة. يرتدي حلة رمادية أنيقة ثلث بقسده المتناسق بعد أن تخلى عن الأزهر ولباسه.

تتمايل الأجساد تمايلات خفيفة نحو الأمام والخلف. لم يقصدوا تناغمهم ولا حتى إتيانهم بهذه التمايلات، لكن ما إن يبدأ الذكر وتُغمض الأعين حتى تنتاب الأجساد رعشة وتتحرك دون إرادتها مدفوعةً بهذا الفوران المحبَّب الذي لا تعرفه أرواحهم إلا في رحاب هذه الحاضرة. علا صوت

إبراهيم العذب بإنشاده سمح له أبوه مؤخرًا أن يختم به جلسات الذكر بينما ظل حامد صامتًا مبتلعًا تحفظه احترامًا لأبيه، نائيًا بنفسه عن مشاركة الرجال استغراقهم وهم يرددون خلف كل جملة لفظ الجلالة في توسل وضعف.

أتيت الباب صفر الحال الله الله

ودارت بي رحي الأوحال الله الله

فأرجو كرامة في الحال

أيا أحباب يا أقطاب

أتيت الباب يا أحباب الله الله

ذليل لاذ بالأعتاب

تتخر الكلمات صدره. تنفذ إلى قلبٍ مُثقل مرهق يائس. بحث عن السكينة تحت كل حجر ولم يجدها فلجأ إلى هذه الأعتاب يحمل ذله على كتفيه، ينشد لقلبه طمأنينة مفقودة ويرعبه مجرد التفكير في حاله إن لم يجدها هنا في هذا الملاذ الأخير.

انتبه عندما ارتفع صوت حامد بأذان العشاء. تُلّفت حوله بعينين زائغتين فوجد المسجد قد امتلأ، يحجبه عنه جسدٌ رجلٍ يمدُّ له يده فاستند عليها ليقف ويعتدل في صف المصلين الذي امتد بين مكان جلسته والحائط المواجه من المسجد. عرض عليه الرجل أن يتقدّم ليصلي في الصف الأول بجانب أخويه خلف أبيهم تمامًا كما يحدث دائمًا، لكنه تمت له شاكراً بأنه مرتاح في موقعه هذا الملاصق لمقام جده. وما إن انتهت الصلاة حتى عاد إلى نفس جلسته الأولى مغمض العينين غائبًا عمًا حوله.

فرغ المسجد من المصلين فوقع بصر الشيخ سلامة على محمود المتكوم بجانب الضريح. زفر من نغزة حزن أوجعت صدره. أوقف حامد وإبراهيم اللذين همًا بالتوجه نحوه وأشار لهما بأن يعودا إلى المنزل ويتركاهما مع أخيهما وحده. أطاعا أباهما ورحلا مارين أمام محمود الذي لم يفتح عينيه ولم يلتفت لهما مطلقًا، ولا لأبيه الذي اقترب منه بخطواتٍ بطيئة حتى جلس متربّعًا قبالة، تحت أنظار جعفر الجالس منزويًا في ركن بعيد ينتظر انتهاء جلسة أدرك أنها ربما تطول قليلًا.

جاهد الشيخ سلامة ليرسم ابتسامه باهتة على شفتيه وهو يربت على ركة محمود ففتح عينين محمرتين أراعتا أباه ومزقت قلبه الموجوع أساسًا، إذ أدرك أن ابنه قد أنهى لتوّه نوبة بكاء عاتية وأنه يكتّم المزيد. تمالك نفسه قدر الإمكان وحاول الحفاظ على ابتسامته وهو يهمس متسائلًا في رقة:

- أين كنت وقت صلاة المغرب يا بني؟

مرّ سؤال أبيه بجانب أذنيه دون أن ينفذ إليهما. كان مستغرقاً في سؤال آخر جعله لا يسمع شيئاً ولا يفكر في شيء سوى أن يخرج، أن يلقيه في حجر أبيه ربما يجد لديه ما يطفى النار المضطربة في صدره ويُخلصه من هذا العذاب بأي ثمن.

- هل يمكن أن تحدث الكرامات في الحال؟!!

تراجع الشيخ سلامة بجذعه نحو الخلف مندهشاً من آخر شيء توقع أن ينطق به ابنه المكلوم. فكّر قليلاً ثم قال وقد عادت الابتسامة ترتسم على شفثيه:

- نعم يمكن، لكن هذا يتوقف على مدى فهمك لمعنى الكرامة ومعنى توقيتها.

عقد محمود حاجبيه مستفسراً فاستطرد الشيخ سلامة بنبرة صوته العذبة:

- الكرامات يا بني تحدث طوال الوقت. تحدث حولنا ولنا طوال حياتنا. كل لحظة تمر هي كرامة حدثت في وقتها المضبوط. الكرامة لا تقع إلا في وقتها المناسب. نفسك العجولة تصور لك أن لحظة دعائك بها وطلبك إياها هي أنسب لحظة لحدوثها لأنك تكون في قمة احتياجك لها، لكن الكرامات لا تستلزم الاحتياج قدر ما تستلزم الاستعداد، وعندما تضحى مستعداً لها بعد أن تتعلم وتفهم، وبعد أن تصير مهياً لاستقبالها وفهم قيمتها والحفاظ عليها، حينها فقط تأتي الكرامة دون تقديم أو تأخير؛ فهي تحدث «في الحال» كما قلت، لكنه الحال الأنسب لك ليس الحال الذي تريده، وهذا يفصح لك عن معنى الكرامة. فلا يستلزم أن تكون الكرامة معجزة تقلب الأمور رأساً على عقب وتعيد المفقود وتحقق المستحيل، لكنها يمكن أن تكون عوضاً يشفي الجرح دون أن يُمحي أثره، رضا يُسعد بالقليل دون أن يُكثره، أو سكينه تعين على الابتلاء دون أن ترفعه.

أوماً محمود في حيرة موزعاً بين رغبة عارمة في التصديق والاطمئنان وبين ألم يمنعه عن الاقتناع. أحسَّ الشيخ سلامة بالثشتت الذي يعاني منه ابنه فهتف متسائلاً في قلة حيلة:

- ماذا حل بك يا بني؟! كنت قد بدأت تتحسن في الأيام الماضية فما الذي حدث جعلك تنتكس هكذا؟!!

صمت محمود لحظات متردداً. ها قد جاءت اللحظة التي لا مفر فيها من الإفصاح عن الخبر الذي دمّره في الساعات الماضية قدر ما تحطم خلال آخر سبعة أشهر وربما أكثر. ما الفرق بين الإفصاح والكتمان؟! أليس في الحالتين ستقع الفاجعة ولا رادّ لها، لكن الفرق كبير. إذا كانت المعرفة بالأمر جرحاً فالنطق به ذبح.

- منيرة ستزوج غداً.

اتسعت حدقتا الشيخ سلامة من المفاجأة، كيف لم يخطر على بال أيّ منهم هذا الشيء من قبل؟! كيف لم يفكروا ولو للحظة واحدة في احتمالية حدوث ذلك منذ أن بدأ الأمر في هذا اليوم من سبعة أشهر؟!!

هذا اليوم الذي أتاهم فيه خبر وفاة الحاج ياسين قبل أن تلمم منيرة الكثير من حاجياتها، أكثر من اللازم، في حقيبتين كبيرتين وتذهب بهما إلى بيت عائلتها.

وبعد أن انتهت أيام العزاء الثلاثة دون أن تبدو منها أي بادرة للعودة إلى بيته، اضطر محمود إلى أن يمتثل لنصيحة أبيه ويتركها حتى الأربعاء وسط أسرتها وأقاربها لتنتهي بونسهم عن حزنها ويتمها. أيام وليال طويلة مرت عليه وشوقه لها يكاد يقتله، يفترق وجودها في كل تفصيلة رغم أنه كان دائماً وجوداً هادئاً منطويّاً لا صوت له. يتلمسها في كل ركن ويشم رائحتها على كل ملاءة وغطاء.

وبعد أن انتهت الأربعون يوماً ركض نحو بيت الحاج ياسين تسبقه لهفته ليعود بها إلى البيت الذي اشتاق لها قدر ما اشتاق هو وأكثر. جلس في صالة المنزل الواسعة ينتظر نزولها من الطابق الثاني هي وابنه الكبير حسين منشغلاً بملاعبة ابنه الصغير علي، عندما دخل عليه أحمد بملاح مرتبكة لم يلحظها محمود في البداية. تبادل محمود معه حديثاً قصيراً دون أن يلتفت - من فرط البهجة المسيطرة على حواسه - إلى التوتر الذي يحاول أحمد إخفاءه. وعندما طلب محمود منه أن يتعجل مجيء منيرة صمت أحمد للحظات محاولاً تمالك نفسه قبل أن يفجر في وجه محمود آخر ما كان يمكن أن يتخيل أن يقال له في هذه اللحظة:

- منيرة تريد الطلاق.

مرت ثواني صمت ثقيلة فقد خلالها محمود قدرته على الاستيعاب أو الشعور. تلملم أحمد في جلسته متحرجاً فبدأ محمود يدرك تدريجياً فداحة ما سمعه للتو كأنه يستعيد وعيه بعد أن فقد في تلك اللحظات القليلة الماضية. «لماذا؟!» سألها في قلة حيلة وضعف لم يشعر بمثلها من قبل ولم يأخذ في المقابل أي رد منطقي يريحه. لمدة شهر كامل بعدها لا يتلقى أي إجابات سوى جملة واحدة مبتورة باردة لا تدل على شيء «النصيب انتهى». شهر كامل يحاول أن يفهم ما يحدث. يطلب مقابلتها. يريد أن يتحدث معها ويفهم منها. يستنطق فمها هذا الذي صمت معه أكثر مما تكلم، لكنها رفضت في قسوة باترة أن تقابله معلنة أن قرارها نهائي لا رجعة فيه، حتى أحمد الذي كانت علاقته به طيبة وكان دائماً ما يدافع عنه أمام أبيه الحاج ياسين ويدعمه في التجديدات التي كان يقترح تطبيقها في وكالة الأخشاب ولم يقتنع بها أبوه قط، حتى أحمد وقف وقفة محايدة باردة. لم يفهم محمود لماذا لم يحاول أن يضغط على أخته للتراجع أو حتى أن يفهم منها دوافعها التي كان يظن وقتها أن لا أحد يعرفها سواها. شعر بلوم شديد نحوه وهو يجده متجمداً هكذا لا يحاول مساعدته أو الوقوف بجانبه كما كان يفعل هو معه أمام أبيه، بل بدا وكأنه مؤيد لما تريده منيرة حتى وإن لم يفصح عن ذلك صراحة. أطارت الحيرة النوم من عينيه، وكادت أن تؤدي بعقله حتى اضطر تحت ضغط أمه وأبيه أن ينفذ طلبها حفاظاً على كرامته وإنهاءً للسُخف والحرج الذي يسببهما الأمر.

طلق منيرة وعاد لا يعرف أين يضع روحه وأين يضع جسده في بيت خالٍ منها. وقع في غرامها من أول يوم بل من أول لحظة. تمنى لو لم تكن طبيعتها الهدوء الدائم والسكون والصمت والانطواء حتى يستطيع أن يتكلم معها كثيراً ويفصح لها عما يكبر داخل قلبه لها. شغف ظل يعيش في حجرات

فؤاده مع مرور السنوات خاصة بعد أن أصبحت أم ابنه حسين ثم علي. أحياناً كان يتأملها خلصة أثناء شرودها أو نومها غير مصدقٍ أن كل هذا الجمال وهذه الوداعة ملكه هو وحده من دون الرجال! كيف يريدونه إذاً أن يتقبل ببساطة أن يستيقظ في يوم ليكتشف أن سعادة التسع سنوات الماضية كانت محض أوهم، وأن المرأة الوحيدة التي هام بها طعنته بخنجر الرفض التلم في قلبه، وأن ما ظنَّ أن الدنيا تسترضيه به، بعد أن عاش عمره كله تضعه في خانة العاديين جداً في كل شيء، قد عادت وانتزعت منه بقسوة تفوق قسوتها لو لم تكن قد منحتة أي شيء على الإطلاق.

نعم لم يكن يرى نفسه سوى هكذا دائماً. لم يكن يجد في نفسه سوى شخص عادي بل وأقل من العادي؛ فهو ليس حامد الكبير الذي تُسند إليه المهمات الضخمة والمسؤوليات الخاصة بالوقف، ويُنظر إليه على أنه خليفة الشيخ سلامة والشيخ القادم الذي سيحمل الأمانة من بعده، ولا هو أيضاً إبراهيم الصغير الذي يستبشر الجميع به لأنه سُمي على اسم الجد الولي، الذي يتلقى التدليل من كل ناحية، والذي شب مع الأيام لا ليصبح نسخة معادة من حامد كما كان محمود يظن، بل ليصبح شخصية نائفة متفردة لا مثيل لها في العائلة. هو مجرد محمود الأوسط الذي لا يميزه شيء، بل هو محمود الذي خيب أمل أبيه ولم يستطع الاستمرار في الدراسة بالأزهر. صحيح أن أباه جاهد ليخفي عنه خيبته هذه، وصحيح أنه يوم حصوله على البكالوريا وتعيينه في الوظيفة الحكومية أبدى سعادة حقيقية وأقام احتفالاً كبيراً، إلا أن كل هذا لم يكن نقطة في بحر من فرحته واحتفاله بحامد يوم حصوله على العالمية من الأزهر واشتغاله بتدريس العلوم الدينية مثل الشيوخ الكبار. كما أنه لم يكن كافياً ليُنسى محمود أنه كان أول من أفسد على أبيه أمنية حياته؛ بأن يشهد اليوم الذي يرى فيه أبناءه الثلاثة شيوخ أزاهرة ذوي مكانة دينية عالية، وربما كان هو أيضاً السبب في أن يتجرأ إبراهيم ويترك الأزهر من أجل الجامعة والعمل السياسي؛ فإقدام إبراهيم على هذا الفعل لم يخفف من وطأة كونه - هو محمود - أول من تسبب في هذه الخيبة. بل كان يهيئ إليه أحياناً أنه يُنظر إليه على أنه أول من فتح باب هذه الخيبة وأنه لولاه، ربما ما أقدم إبراهيم على ترك الأزهر.

ثم أين هو من إبراهيم؟! أين هو من شخصيته القوية النائرة وثقافته وصلابته؟! كيف يقارن من أرغمة خيبته وفشله على ترك الأزهر بمن كان ناجحاً فيه وتركه بملء إرادته الحرّة لأنه شجاع بما فيه الكفاية ليفعل ما يقرره ويصر عليه غير عابئ باللائمين.

لذا كان زواجه من منيرة أمراً فوق قدرته على التخيل أو التصديق. فكيف رغم كل ذلك يختاره أبواه وتخصه الدنيا من دون أبناء العائلة جميعاً، من دون حامد ذي المكانة الفريدة في البيت والحي كله، ومن دون إبراهيم وثقافته وشخصيته، ليكون هو من يصاهر الحاج ياسين الألفي بمكانته وثرائه وأفضاله على العائلة هو وأبوه من قبله؟! كيف التقت نحوه الدنيا فجأة بعد أن عاش عمره كله تغض بصرها عنه، بل وتمنحه دون غيره زوجة في جمال وحسن منيرة من غير أن يسعى نحوها أو حتى يجرؤ على تمنيتها بينه وبين نفسه؟! كان يظن أن الحياة رضت عنه أخيراً وأنها تعوّضه عن كل خيباته وتعوّض معه كل من تسبّب هو في خيبتهم، ثم استيقظ فجأة على لطمة قوية انتزعت منه كل شيء وأعادته إلى الخانة الأولى بل وإلى ما دونها، خاصة بعد أن عمد إلى أن يضع نفسه بنفسه في

موضع اتهام من أفسد كل شيء على عائلته وعلى نفسه، وبعد أن ملأ قلبه يقينٌ عجيبٌ لا يعرف منبعه أن كل ما يحدث ليس إلا بسبب عيب فيه أو تقصير منه.

لمدة ستة أشهر ظلَّ يدور في دوامة ابتلاعه. يذهب إلى العمل ويعود منه ذاهلاً. يجلس في مكانها الأثير على أريكة غرفة الجلوس بجانب الجراففون الذي أحضره لها مبهجاً ما إن طلبته، ومعه أسطوانات لسيد درويش وداوود حسني ظناً منه أنها ستستمع له لتتذكر يوم عرسهما. يجلس وحده مكانها شاردًا من النافذة لا يسمح لأحد بأن يجالسه أو يتحدث معه، حتى حسين وعلي عندما يأتيان في زيارات قصيرة، بعد أن تم الاتفاق على أن تظل حضانتها مع أمهما، كانا يبيتان في بيت جدهما ويقضيان معظم الوقت مع جدتهما وعمهما إبراهيم وعمتهما إحسان، بينما توقف محمود تقريباً عن البقاء في منزل أبيه ولا حتى من أجل تناول الطعام. اعتادت إحسان أن تجهز له صينية وتضع بها له كل يوم قبل أن تهبط بها في اليوم التالي دون أن يتناول منها سوى القليل. عافت نفسه الطعام، كأن الحب الذي كان يجيش به قلبه تحوّل إلى قار سائل أسود يثقل قلبه المجروح وينز من هذا الجرح مالئاً صدره ومعدته فيزدهه في كل شيء حتى فقد الكثير من وزنه وأصابه ذبول اعتصر قلب سلامة وزبيدة عليه، لم يهدئها قليلاً سوى استرداده لجزء من حيويته خلال اليومين الماضيين حتى إنه عاد يتناول معهم الطعام ويتبادل أحاديث قصيرة مع إخوته. فرحا بهذا التقدم دون أن يسألاه عن السبب، ظناً أنه بدأ يتجاوز الأمر ويستعيد طبيعته مرة أخرى. لم يمر بخيالهما قط أن يكون هذا التحسن نتيجة فكرة طرأت له بأنه ربما يكون كل ما فعلته منيرة سببه حزنها على أبيها، وأنه ربما بعد أن ينتظر قليلاً ويعطيها ما يكفيها من الوقت لتنتهي حزنها وتهدأ، ربما بعدها إن حاول معها مرة أخرى، أن تستعيد رشدها وتذكر رعونة ما فعلته وتعود إليه فيسامحها على كل شيء ويضمها إلى صدره ليشفيه من ثقل فراقها قبل أن يشفيها هي من حزنها، لكن ما ظن أنه الأمل الذي سيرفع الحجر عن صدره لم يكن سوى أفعال وضعها هو بنفسه فوق ظهره، فجاءت الخيبة مزلزلة قاصمة أقرسى مما لو لم يسبقها هذا الأمل الزائف.

تأمل الشيخ سلامة محمود والحسرة تكاد تمزق أحشاءه. فجأة وجد نفسه ينطق بالسؤال الذي حيّره كثيراً ولم يجرؤ على أن يسأله لابنه طوال الأشهر الفائتة:

- هل أحببتها لهذه الدرجة يا بني؟! -

نظر له محمود صامتاً للحظات. لحظات استغرقتها آخر حروبه مع قلبه قبل أن يعلن استسلامه في سؤال عكس عجزه الكامل تحت قيود ولهه:

- وهل يعيبي حبي لزوجتي؟! -

- لا.. بل يرفعك عند الله درجات.

أغمض عينيه وزفر مبتسماً في سخرية متألمة:

- حبُّ يرفعني عند الله ولا يقربني قيد أنملة ممن أحب!

تململ الشيخ سلامة متحرِّجًا. فكر قليلاً حتى ظن أنه وجد الإجابة المناسبة:

- الله مَطَّلَع على ما في قلوب العباد والبشر غير مطلعين. ربما كان يجب عليك أن تفصح لها عن حبك أكثر مما فعلت.

حرك رأسه نافيًا:

- لا يا أبي لم يكن هذا هو السبب. لم يكن المزيد من الإفصاح ليجدي أو يغيِّر أي شيء أو يملأ كوبًا أعطى إليّ وهو ممتلئ بالفعل.

عقد الشيخ سلامة حاجبيه عاجزًا عن فهم ما يرمي إليه محمود الذي استطرده رافعًا آخر رايات استسلامه:

- كان هناك رجلٌ آخر.

أسرع الشيخ سلامة يتمتم كالمُدوِّغ:

- أستغفر الله العظيم. أعوذ بالله من قذف المحصنات. لا يا بني لا تجعل شيطانك يدفعك لظلم الفتاة واتهامها في عرضها.

هتف محمود في عصبية وقد استنفذ كلام أبيه صبره وتحمُّله:

- يا أبي أنا لا أقصد أيَّ شيءٍ سيئٍ بل بالعكس. الذنب لم يكن ذنبها.

صمت للحظات قبل أن يستكمل بنبرة عاشق يعلن هزيمته:

- منيرة كانت تحب رجلاً آخر قبل حتى أن تعرفني.

ثم مضى يحكي لأبيه ما ظلَّ مخفيًا عنهم كل الأعوام الماضية ولم يعرفه سوى هذا الصباح!

عندما وصله الخبر شعر كأن الدنيا كلها قد انهدمت فوق رأسه. لم يرَ حوله شيئًا سوى الخراب. دون وعي منه قادته قدماه إلى وكالة الألفي لا يبحث عن مُسكِّنٍ لألمه بل عن معنى له، تفسير واحد لكل ما حدث وما سيحدث. ظنَّ أن الفهم سيريحه قليلاً لكنه لم يكن سوى خنجر آخر طعنه في قلبه وكرامته.

مرّ وسط العاملين المنهمكين في تنفيذ تجديلات تفتتح بها الوكالة عهدها الجديد. استقبله أحمد دون أن يتفاجأ كأنه كان منتظرًا قدومه ومستعدًا له تمامًا، فما إن تصافحا حتى اصطحبه نحو غرفة مكتب داخلية وأغلق عليهما الباب ثم جلس أمامه وحكى له كل شيء دون مواراة أو إخفاء، خاصةً بعد أن شعر بندم شديد وهو يراه قد أصبح ضائعًا هكذا مثل شبح ضال.

فتحت منيرة عينيها منذ طفولتها على حب رجل واحد لم يدخل قلبها سواه؛ رشدي، ابن خالها الوحيد الذي يكبرها بعامين. شبيًا معًا وكبير ما بينهما حتى بدأ رشدي يفكر في خطبتها وهو ما قابلته الحاج ياسين برفض قاطع. لم يكن الحاج ياسين فخورًا جدًّا بأقارب زوجته حتى يعيد مصاهرتهم. كان يفوقهم في الثراء وفي المكانة الاجتماعية التي عمل عمره كله على إعلانها دون أن يدخر من أجل ذلك أي أموال أو مجهود. لم يكن إذاً من الممكن، بعد كل ما فعله ليضع نفسه وأسرته في مصاف البكوات والباشوات وصفوة المجتمع، وبعد أن زوج ابنه من ابنة عين أعيان وجه بحري، أن يُفسد كل ذلك بتزويج ابنته الوحيدة ودرة العائلة كلها لشاب لا يملك عملاً ثابتًا وأبوه لا يملك شيئًا سوى دكان عطارة بسيط ومغمور في حي الأزهر، حتى وإن كان ابن خالها.

تمسك الحاج ياسين بموقفه في تصميم عنيف حتى إنه حبس منيرة في المنزل ومنعها عن الخروج أو مقابلة أي شخص، خاصةً خالاتها وبناتهن حتى لا يقمن بنقل الرسائل بينها وبين رشدي. أغلق بابه في وجه كل أقارب زوجته مما تسبب في قطيعة وعداء قاما بينه وبينهم لفترة لا بأس بها خاصةً مع أم رشدي وأختيه، بينما حاول أبو رشدي أن يحافظ قدر الإمكان على علاقته بأخته المغلوبة على أمرها، واستمات رشدي في محاولاته لإقناع الحاج ياسين بقبوله دون فائدة. استمر في محاولاته حتى آخر قطرة في دمه. لم يتوقف حتى بعد أن وصلهم خبر خطبة منيرة لمحمود. هدّد بأنه سوف يذهب إلى هذا العريس ويحكي له عن كل شيء فقابل الحاج ياسين تهديده بتهديد شرس جاد بأنه إن فعل ذلك سيقوم بتطويق عمته وطردها من المنزل، وإرسال منيرة إلى عمته الكبيرة في السودان في عنوان لا يعرفه أحدٌ غيره، بل وسيقوم بتزويجها هناك ومنعها من العودة. اضطر رشدي للترجع بعد أن أيقن أن زوج عمته يقصد تهديده ويعتزم تنفيذه بالفعل، وبعد أن رجته عمته بالألا يتسبب في خراب بيتها وحرمانها من ابنتها. تراجع عن تهديده لكن لم يكف عن محاولاته. من ناحيتها، سعت منيرة في كل الطرق حتى وصل بها الأمر إلى محاولة فاشلة للهروب من بيتها وهو ما تكتم عليه الحاج ياسين بصرامة، وقام بتأجيل حفل الحنة بسببه إلى صباح يوم الزفاف. تغلّل - بالكذب - بتأخر وصول العمّة الكبيرة من السفر حتى يعطي الفرصة لمنيرة لتبرأ من آثار الضرب الذي تعرضت له عندما أمسك بها وهي تحاول الهرب حتى استسلمت له ولقدرها تمامًا.

لم يُصَب رشدي باليأس التام إلا يوم العرس. يأس ذهب بعقله فكاد أن يقتحم حفل الزفاف مفسدًا كل شيء حتى وإن كلفه ذلك حياته لولا أن منعه أبوه في آخر لحظة. اتفق مع أقارب زوجته أم رشدي وقاموا بحبسه في مخزن العطارة الخاص بالمكان، تركهم يحرسونه ويتأكدون من عدم قدرته على الفرار، وذهب هو ليحضر ساعة واحدة من العرس حتى لا يتساءل الناس عن سبب غياب خال العروس عن الحفل، قبل أن يستأذن مبكرًا بحجة أن زوجته مريضة وأن عليه العودة لمراعاتها مع أبنائه الذين لم يحضروا لنفس السبب.

استيقظوا بعدها بيومين ليكتشفوا أن رشدي سافر تاركاً لهم رسالة قصيرة لم يعلن فيها عن وجهته. لم يعد ولو لمرة واحدة طوال التسع سنوات التالية وكان يكتفي بإرسال خطاب لطمأنتهم عليه كل عدة أشهر من بلدٍ مختلفٍ، ثم فجأة عاد رشدي. عاد بعد أن عمل كل السنوات الماضية على سفن شحن بضائع وبواخر نقل ركاب تجوب مرافئ البحر المتوسط كلها تقريباً. عاد بعد أن تجمعت في يديه ثروة لا بأس بها وجمعه الظروف بفتيات كثيرات في كل مدينة ذهب إليها، بينما ظل قلبه على حاله مملوءاً بعشق منيرة رافضاً أن يفسح بداخله ولو موضع قطرة واحدة لحب أي امرأة غيرها. عاد ليتفاجأ بأن سبب التعاسة التي سكنت روحه طوال كل الليالي الماضية توفاه الله من عدة أشهر، وأن منيرة فرّت من سجنها في اللحظة التي تلت رحيل سجانها، لم تستطع أن تبقى أكثر من ذلك في هذا الوضع الذي أرغمها أبوها عليه، أن يكون جسدها وحياتها لرجل بينما قلبها وعقلها ومشاعرها كلها مع رجل آخر.

لم يستلزم الأمر سوى أيام قليلة حتى عاد كل شيء إلى حاله الأول. مرت السنون وتقلبت الأحوال وظل قلباهما ثابتين لم يمسهما أي اختلاف، انهدمت كل عقبات الأعوام الماضية في ثوانٍ معدودات وتحدد موعد زواجهما بمباركة جميع الأطراف، حتى أم رشدي وأختاه اللاتي حاولن في بداية الأمر أن يعترضن على استحياء متحججات بأن هذه أول زيجة له، وليس من المعقول أن يترك كل الفتيات العذراوات اللاتي أصبح في مقدوره أن يخطف أيًا منهن بعد أن امتلك هذه الثروة المعقولة، من أجل أن يتزوج من ثيب(19) سبق لها الزواج ولديها ولدان في المدرسة، لكن رشدي قابل كل ذلك برفض حاسم وإصرار لا يلين. أسكتهن جميعاً في حوار لم يطل أكثر من دقائق قليلة؛ لم يحب في حياته سوى منيرة ولن يتركها تضيع من يديه مرة أخرى بعد أن أصبح هو سيد الموقف وليس ولي أمر لها، وإن حدث ذلك ولم يتزوجها فعليهن أن يدركن أنه لن يتزوج غيرها وسيظل عازباً طوال حياته. كانت هذه الكلمات الأخيرة هي ما أسكتهن وجعلهن يرضخن لرغبته بل ويباركنها ويسعدن بها، لأنهن أدركن أن رشدي لن يسمح لنفسه بأن يخسر منيرة مرة أخرى حتى وإن خسر الدنيا كلها من أجل أن تصبح له بعد أن كان يظن أنه فقدتها للأبد.

- اعذرنا يا محمود. لم يكن في مقدورنا أن نفعل أي شيء. لم يكن أحد منا ليجرؤ على معارضة أبي أو مخالفته أو الإفصاح عما أراده أن يخفي، واعدرنى فأنا لا أستطيع أن أكون مثله، لا أريد أن أكون مثله، أن أجعل أقرب الناس لي يعانون بسبب شيء لا يريده أحد غيري. لا أريد أن أتعس أهبائي من أجل مظاهر لا أعتقد أنها تفوق في أهميتها راحتهم وسعادتهم. رشدي ابن خالي وصديقي الوحيد تقريباً وكنت أتمنى أن يتزوج منيرة من بداية الأمر، لكن أقسم لك إن هذا لم يكن سبب عدم ممانعتي طلبها الطلاق. هو لم يكن قد عاد بعد ولم نكن نعلم أنه سيعود قريباً، لكنني تركتها تفعل ما تريد لأنني ذقت بشكل أو بآخر من نفس الكأس الذي ذاقت هي منه. أكره أن أقولها لكنها للأسف الحقيقة، أنا لم أشعر أنني أحيا حياة أملكها بحق إلا بعد وفاة أبي، ولم يكن في مقدوري بعد أن تنفست بحرية أن أحرم الآخرين من أن يفعلوا مثلي حتى وإن تسبب ذلك فيما يعيبه الناس لأن هؤلاء الناس لم يشعروا بما شعرنا به ولم يحملوا فوق صدورهم ما حملناه نحن.

كانت هذه هي آخر كلمات نقلها محمود عن أحمد قبل أن يحني عينيه في استسلام تام لألمه بينما استمر الشيخ سلامة في التحديق نحوه بوجوم وذهول. كيف استطاع الحاج ياسين أن يفعل ذلك؟! كيف أطاعه ضميره في أن يستغفله هو وابنه هكذا؟! كيف أطاعه قلبه في هذا الذي فعله مع ابنته؟! هو يتذكر جيداً أنه ذكر أمامه يوم فاتحه في الزواج أمر سؤال العروس وموافقتها كما أوجب الشرع. هل أخطأ لأنه لم يتأكد من موافقتها بنفسه؟ وأنى له أن يتأكد؟! لم يكن من اللائق أن يحاول ذلك ولم يخطر بباله بالطبع أن الحاج ياسين يخفي أمراً كهذا! وهل كان الحاج ياسين ليوافق على مصاهرتهم لو لم تكن قصة الحب هذه قد نشأت بين منيرة ورشدي؟ هل هم يليقون بالفعل بالمكانة الاجتماعية التي كان يطمح إليها؟ أم أنه لو لم يكن قلقاً من أن تفتضح قصة ابنته لكان رفض مصاهرتهم مفضلاً عليهم ابن أحد البكوات أو التجار الأثرياء؟! هل كان خطؤه أنه لم يصل الاستخارة في وقتها؟! عجيب! ما الذي جعله يتذكر هذا الأمر الآن؟! منذ أن تم الزفاف على خير لم يعد للتفكير في هذا الأمر ولا حتى عندما وقع الطلاق! ما الذي جعل هذه الذكرى تعود وتقفز أمام عينيه مرة أخرى الآن؟! هل كل ذلك يحدث لابنه بسبب غفائه ونسيانه؟ أم أن صلاته حتى وإن تأخرت كانت سبباً في منع الفضيحة التي كان رشدي هذا ينتويها؟! وهل ما هم فيه الآن أهون مما لو كان نجح رشدي في اقتحام العرس وإفساده؟ أي الفاجعتين أخف وطأة: أن تقتل الفرحة وهي وليدة في مهدها أم أن تنتزع بعد أن تصبح جزءاً أصيلاً من حياة الإنسان؟!!

- الحمد لله على كل حال. سامحك الله يا حاج ياسين.

تمتم الشيخ سلامة بهذه الكلمات قبل أن يمد يده نحو محمود لينهضا سوياً مستندين على بعضهما البعض. أسرع جعفر يطوي الأبسطه ويطفي القناديل بينما خرج الاثنان من المسجد يطويان الطريق نحو المنزل واجميين. ما إن وصلا حتى صعد محمود إلى شقته ليعود إلى ما كان يفعله طوال الستة أشهر الماضية ولم ينقطع عنه إلا خلال الأيام القليلة الفائتة. جلس وحده في غرفة الجلوس المظلمة بجانب النافذة يسترجع كل لحظة من لحظات زواجه، لكن بدلاً من أن يحاول أن يفهم أين كانت المشكلة أصبح الآن يسترجع اللحظات ويشبكها مع ما عرفه لتكتمل الصورة أمام عينيه. لم يكن إذاً إنطاؤها نابغاً من شخصيتها بل كان هروباً منه، ولم يكن صمتها وسكوتها طبعاً بل كان حزناً يطفئها، ولم يكن برودها في فراشه حياءً بل كان اشتياقاً لذراعي رجل آخر، وردُّ فعلها الغريب هذا يوم وفاة أبيها؛ ضحكها المخلوط بالبكاء، لم يكن بسبب هلوسات الحزن بل كان جزءاً من تلك الهستيرية التي تصيب السجين عندما تفتح أمامه أبواب السجن على مصراعيها بعد تسع سنوات من الأسر!

كان يخدع نفسه طوال الوقت. ظلَّ سنوات يقنع نفسه بأنها تبادلته مشاعره لا شك لكنها هادئة ومهذبة زيادة عن اللازم فلا يبدو عليها أي شيء، بينما كانت هي في الواقع لا تراه ولا تشعر بوجوده من الأساس. أل هذه الدرجة لم يكن له أي قيمة في عينيها؟! هذا الذي رحل وغاب وانقطعت أخباره سنوات يظل مسيطراً على قلبها وعقلها وهو الذي لم يفارقها لحظة، الذي حاول أن يسترضيها بكل الطرق الممكنة، الذي زرع بذرتة في أحشاءها وحملت ابنيه داخلها لم يستطع أن يحدث ولو خدشاً واحداً في الجدار الذي تحيط به قلبها وتعلقه على رشدي هذا؟! هل يملك حق الغيرة التي تأكل قلبه

الآن أم أنه يستحقها بعد أن كان السبب في التفريق بين حبيبين؟ وما ذنبه وهو لم يكن يعلم؟! ما ذنبه حتى يحب من أعماق قلبه ويبدل كل هذا الذي بذله ولا يلقي شيئاً في المقابل؟! كانت في بيته وتحت جناحه ولم يَمَلِّ قلبها له، ماذا كان يمكن أن يفعل أكثر من ذلك ليحظى بحب من أحبها؟! وهل كان يمكن أن يفعل أكثر مما فعل؟! أم أنه لا ثمة فائدة لأنه هو نفسه لا يصلح لهذه الأمور؟ هو ليس مثل رشدي. لا يتميز في شيء حتى يُحِب. هو عادي جداً، والعاديون أمثاله عليهم أن يحمدا الله على نعمة الزواج التقليدي ولا ينتظرون أي شيء أكثر من ذلك. أوفرهم حظاً يحظى بحياة مستقرة بعد الزواج وأسوأهم حظاً مثله ينسى حقيقته ويسمح لقلبه بالتعلق فلا يجني سوى الخذلان.

* * *

أسرعت زبيدة تلحق قَلْقَةً بالشيخ سلامة نحو غرفتهما بعدما وجدته عائداً وحده دون محمود. أغلق عليهما الباب ليفضي لها بما حكاها له ابنه في المسجد منذ قليل، بينما جلست إحسان ضامة ركبتيها نحو صدرها على أريكة غرفتها الملاصقة للنافذة تنتظر عودة أمها بالأخبار الجديدة متلهية بمتابعة الحركة الخفيفة في الشارع الجانبي. قفز مشمش واستقر مستكيناً أمام قدميها فمدت يدها تربت على القبط البرتقالي الصغير الذي أحضره لها إبراهيم ليسليها في الأوقات الطويلة التي أصبح يغيب فيها عن المنزل. جذبه الحياة المحترمة في مصر فانطلق فاتحاً لها صدره وانخرط فيها بكل ما يملكه شبابه من فتوة، بينما ظلت هي مكانها تمنعها التقاليد عن مشاركته انشغالاته الجديدة. صحيح أنها صارت ترى دنيا مختلفة بعينيه في الأوقات التي يمنحها لها ليقص عليها ما يعايشه في الخارج. لكنها كانت لحظات قليلة عاجلة لا تروي ظمأ وحدثها ولا تقدر على ملء الفراغ الذي خلفه انشغال أقرب إخوتها إلى روحها بل وأكثر شخص تعلق به قلبها، فراغ لم يملأه حتى مشمش رغم حبها الشديد له.

التفتت عندما سمعت صوت خطوات أمها وهي تدبُّ بقدميها في غيظ محاولة إخفاء حسرتها الدفينة خلف قناع من الحنق. أسرع مشمش يترك مكانه فرعاً لزبيدة التي ألقت بنفسها على الأريكة غاضبة. خرج مسرعاً نحو غرفة الشيخ سلامة ليستقر في جلسته المحببة بجانبه وهو يسبح في صمت رابئاً على ظهره ربتات خفيفة بين الحين والآخر. تدافعت الكلمات من فم زبيدة وهي تحكي لابنتها ما عرفته لاعنة بين كل كلمة وأخرى نرجس وابنتها، متجاهلة تماماً ما فعله الحاج ياسين وصابئة سخطها كله على الزوجة التي كسرت قلب ابنها وتركته وتزوجت غيره بعد ما كل ما فعلوه لها، دون أن تلتفت لأي أسباب أو دوافع أدت بها لفعل ما فعلته. استمعت إحسان لأمها بنصف انتباه، بينما كان النصف الآخر مستغرقاً في ربط الخيوط التي ظلت مبتورة ومطمورة في ذاكرتها سنوات طويلة قبل أن تحيها أمها الآن. تستمع لها وتسترجع تلك الذكرى البعيدة الغائمة لنفسها وهي طفلة تتقافز في أركان البيت الكبير المزدهم بالنساء والفتيات الدائرات حول عروس تجلس منفصلة عن كل ما يحيط بها. أصبحت الآن تفهم ما غمض عليها وقتها وتنتبه لتفاصيل لم تلتفت لها من قبل. فهتمت سر الابتسامة الضيقة المستكنة التي لازمت شفتي منيرة طوال هذا اليوم البعيد والتي سألت أمها عنها فلم تلتفت لما وراء السؤال واعتبرته تخاريف طفولية. فهتمت ما وراء استسلام منيرة التام وعدم اكترائها بما فعله بها مسك الليل. تذكرت وقفها مع تلك الطفلة الأخرى في مخبأ تراقبان منه

حمام العروس. تذكرت شكل منيرة وهي ترفع يديها لتمسح بهما وجهها بعد كل دفقة ماء بينما كانت في الحقيقة تمسح دموعاً تركتها تنساب متخفية وسط المياه المنسكبة على وجهها. تذكرت شرودها وعينيها اللامعتين عندما غنى سي داوود حسني «ضناني البُعد أشكي لمين هواني». تذكرت خوف نرجس الذي لم يكن خوفاً عادياً من الحسد بل كان شيئاً أكبر من ذلك تماماً كما توجست زبيدة. كان رعباً من أن يقتحم ابن أخيها حفل الزفاف فيتسبب في فضيحتها وطلاقها وحرمانها من ابنتها طوال عمرها. خوف ممزوج بحسرة على ابنتها التي حُكِمَ عليها بالقهر والتعاسة. تذكرت أحاديث النساء الجانبية ونميمة الهامسة عن عمة العروس التي وصلت من أسبوع وليس من يوم واحد كما قيل لهم، وعن خال العروس، وعن سيدات لم تحضرن حفل الحنة وحفل الزفاف. الآن فقط صارت تدرك أن هؤلاء السيدات لسن إلا أم رشدي وأختيه.

أنهت زبيدة حكاياتها ثم خرجت من الغرفة وهي تدمدم متحسرة «لماذا يا ربي لا تأتي مصائبي إلا في صديتي؟!» لو سمعها الشيخ سلامة لنهرها على سوء أديها هذا مع الله. هكذا فكرت إحسان وهي تعود لمتابعة الشارع مرة أخرى، لكن أمها معذورة، ما حدث لمحمود لم يكن إلا آخر ما حل بهم خلال الثلاث سنوات الماضية، وكان أوله عندما اشتعلت الشوارع كلها بالمظاهرات احتجاجاً على نفي سعد باشا ورفقائه، وأسرع إبراهيم للاشتراك فيها بكل قلبه وجوارحه. في هذا اليوم ظلت هي وأمها يدرن في المنزل قلقتين مع تواتر الأخبار السيئة وتأخر إبراهيم عن العودة. شهقت زبيدة عندما وقع نظرها من نافذة غرفة الجلوس على بعض الفتية وهم يدفون من باب العمارة حاملين ابنها المغشي عليه برأس ملفوفة في قماش أبيض ملطخ بالدماء. فتحت إحسان باب الشقة وقد نسيت تماماً أمر تغطية شعرها وتبعتهن بقلب واجفٍ وهم يرقدونه في فراشه. حاولوا طمأنتهم بأن إبراهيم بخير أنقذه الله من رصاص الإنجليز بمعجزة وقام طبيب صديقهم بإجراء كل الإسعافات الضرورية ولا يلزمه الآن سوى الراحة التامة.

رحل الفتية تاركين إياهم جالسين ملتفين حول فراش إبراهيم يتأملونه بعيونٍ ملهوفة وقلوبٍ ملتاعة. يرتفع صوت بكاء زبيدة وإحسان الجالستين فوق رأسه تشاركهما «سُكرة» الخادمة بدموعها الصامتة. على طرفي الأريكة جلست كل من منيرة وزينب في جمود تام، وبينهما استقر الثلاثة أحفاد يراقبون عمهم النائم واجمين. تأمله محمود والشيخ سلامة صامتين بوجهين شاحبين محاولين إخفاء رعبهما قدر الإمكان، على عكس حامد الذي فشل تماماً في إخفاء مشاعره وظل يتحرك أمام الفراش جيئةً وذهاباً في غيظ.

وعندما أفاق إبراهيم أخيراً، لم يستطع أن يتمالك حامد نفسه أكثر من ذلك وتفاجأ به الجميع يصرخ حانقاً:

- ما لنا نحن ومال السياسة حتى نسير في المظاهرات مثل المخابيل!

تحامل إبراهيم على نفسه ليبدو صلباً وهو يرد على أخيه الأكبر في عناد لا يليق بشحوب وجهه:

- هؤلاء المخابيل سيرغمون الإمبراطورية البريطانية على التراجع.

زفر حامد وهو يهتف ساخرًا:

- عشم إبليس!

حاولت زبيدة منع إبراهيم من أن ينهض نصف جالسٍ ليجيب في تحدٍّ:

- إبليس هو من يسكت عن الحق.

رماه حامد بنظرات تقدح شررًا. همَّ بأن يصرخ في وجهه لولا أن منعه أبوه أمرًا في حسم:

- كفى!.. استرح الآن يا إبراهيم وأنتِ يا أم حامد ارتدي ملابسك.. ينتظرنا واجب عزاء.

ذهب الشيخ سلامة ومعه محمود وزبيدة لتقديم واجب العزاء مع جيرانهم لتلك السيدة التي وصلهم في الصباح خبر استشهاد ابنتها في المظاهرات. كانت تقطن في شارع بعيدٍ عنهم في الناحية الأخرى من المدرسة التي تتوسط الحي فلم يكونوا يعرفونها أو يعرفون حتى بوجودها هي وابنتها، لكن الخبر كان صادمًا ومزلزلًا حتى إنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من فعل أي شيء كي لا يقتلهم شعورهم بالعجز والمهانة. هؤلاء الإنجليز الملاعين بلغ بهم الفجر أن يقتلوا فتياتهم ونساءهم وهن يسرن في الشوارع وسطهم! جلس الشيخ سلامة ومحمود وسط المعزين شاردين مثلهم مستغرقين في نفس الأفكار التي تلهب ظهورهم بسياطها، ويزيد عليهم قلباهما الملتاعان بخوفهما على هذا الذي تركاه راقداً جريحاً ولولا ستر الله لكانا الآن مكان هذه السيدة المسكينة يتلقيان فيه العزاء.

وبينما كان الثلاثة في العزاء صعدت منيرة وابناها إلى شقتها وأسرعت زينب تجر جر محمد خلفها لتلحق بحامد الذي رفض الذهاب معهما. كاد أن يتمادى في السخرية من سير النساء في المظاهرات وسقوطهن قتيلات بالرصاص وهو شأن الرجال وليس شأنهن. لم يمنعه سوى نهر الشيخ سلامة له مذكراً إياه بأن أول من استشهد من أجل الإسلام كانت امرأة، وأن الجهاد شأن جميع المسلمين والمسلمات. صمت مضطراً لكنه لم يتزحزح عن رفضه للذهاب معهم وصعد إلى شقته حانقاً تتبعه زينب في استسلام.

وأخيراً خلا المنزل لإحسان وأصبحت وحدها مع إبراهيم بعد أن صرفت «سُكَّرة» إلى غرفتها. تأملته صامتة من خلف دموعها فابتسم ومدَّ يده يقرص وجنتها قرصةً خفيفةً مداعباً إياها. ابتسمت. كادت أن تفتح فمها. تجمدت الكلمات على طرف لسانها فاتسعت ابتسامته وهو يستحونها:

- قولي ما تريدين يا إحسان.

مطَّت شفيتها قبل أن تتساءل في تردُّد:

- هل يمكن أن أفعل مثلك؟!!

صمت لحظة محاولاً إدراك مقصدها ثم عادت ابتسامته تتسع وهو يجيبها بصدق:

- يمكن بالطبع بل إنه واجب عليك.. لكن وباللسخرية لم تصبح الآن المشكلة أن الأعراف أو المجتمع يرفض ذلك بل مشكلتنا الكبرى أن أخاك الأكبر سيقطع رقبتك إن فعلت ذلك!

أطلقاً ضحكة خافتة على كلامه. تأملها بعدها بتركيز وهي تتساءل بنفس التردد:

- تلك الفتاة إذا لم تفعل شيئاً خاطئاً؟!!

- تلك الفتاة شهيدة يا إحسان. فقدت حياتها لأنها مصرية. ليتكن كلكن مثلها حتى نستطيع أن نصل إلى شيء، لكن الحمد لله أخيراً تزحزحت الصخرة من مكانها وبدأت تدحرجها ولن يوقفها شيء.

بعدما تماثل إبراهيم للشفاء قرّر فجأة أن يترك دراسته بالأزهر والتحق للدراسة بالجامعة. انخرط في العمل السياسي وانضم لحزب الوفد وصار يعود كل يوم إلى البيت حاملاً كتباً عن كل الأفكار السياسية فاتحاً عقله للمعرفة بكل أشكالها، وقلبه للكتابة التي نجح في التربُّح منها لينفق على مصروفاته الشخصية.

راقب الجميع هذا التحول الكبير الذي حلَّ به بشيء من عدم الرضا. ها هو الشيخ سلامة يفقد جزءاً آخر من حلمه. وبعد أن هَوَّن على نفسه بأن عدم استمرار محمود في الدراسة الأزهرية لا يهم طالما أن حامد وإبراهيم سيواصلان دراستهما، يصعقه تخلي إبراهيم عما تبقى من الحلم بل وانخراطه في العمل السياسي وما يلاحقه من خطر بسببه! أما حامد فقد تصادم معه بعنف حيث اشتعلت بينهما شجارات لم يتخل إبراهيم عن عناده وصلابته خلالهن قط. كان كأنه وجد أخيراً سبباً لحياته التي كان يعيشها بلا معنى يؤطرها ويبرزها ولن يتوانى عن الدفاع عن هذا المعنى والتشبث به حتى آخر نفس. وبينما كانت إحسان تخفي فخرها بأخيها وكانت زبيدة تظهر له ضيقها بين الحين والآخر، كان محمود يتابع ما يحدث بصمت متظاهراً بالحيادية. حيادية كرهها إبراهيم الذي تمنى أن يقف أخوه الكبير في صفه أمام أخيهما الأكبر وتسلطه. لم يكن يعرف أن محمود في قرارة نفسه يمقت حياديته تلك ويتمنى لو يستطيع التخلص منها والاشتباك مع حامد من أجل أن يترك إبراهيم في حاله، بل وأكثر من ذلك، كان يتمنى في قرارة نفسه لو كان مثل إبراهيم! كم تمنى لو كان يمتلك شجاعة أخيه الأصغر. كم تمنى لو كان يمتلك هذا الإقدام الذي يدفعه للمشاركة في مظاهرات الثورة فاتحاً صدره للموت دون اكتراث كما فعل هذا الذي يصغره بخمس سنوات. كم طالعه بإعجاب وفخر وانبهار وشيء من الحسد الطيب.

ثم جاءت مصيبتة مع منيرة فأزادت همه وأنت على ما تبقى من نظرتة لنفسه وثقتة بقيمتها. كما أنها أنت على ما تبقى من احتمال زبيدة فصارت تدور كل يوم في المنزل في توتر تنذب حظها في

أبنائها الذكور يتابعها الشيخ سلامة صامتًا، يخفي حسرته على محمود وضيقه من سلوك حامد وقلقه على إبراهيم وخوفه من هذا الذي يفعله رغم فخره الخفي به.

لكن في هذا اليوم العصيب. وبعد أن نام الجميع. لا يعرف محمود كيف تخلى عن صمته هكذا، لكنه وجد نفسه يتسحب إلى شقة أبيه ويدخل غرفة أخيه الصغير. جلس بجانب رأسه المصابة ومسح عليها في حنان بالغ وقد ترك أخيرًا مشاعره الحقيقية تظهر على وجهه. فتح إبراهيم عينيه مستغربًا ثم تأمل أخاه الصامت دائمًا في دهشة وهو يرجوه:

- لا تخبر أحدًا أنني قلت لك ذلك.

عقد إبراهيم حاجبيه في استقهام سرعان ما تحوّل إلى فرحة عارمة عندما همس محمود بنبرة صادقة متأثرة:

- أنا فخورٌ بك.

(٣)

مدة على الأريكة الملاصقة للنافذة، أغمضت ميري عينها مستغرقة مع الشاعر المندمج في إطراب رواد المقهى. ارتفع صوتها بالدندنة معه مستغلة فرصة قلما تتكرر؛ أبوها مسافر لا يزال وحسن في المدرسة وأمها اصطحبت رقية لشراء بعض اللوازم من السوق فأصبح المنزل خاليًا إلا منها، تستطيع أن تغني فيه بمنتهى الحرية دون أن يسمعها أحدٌ أو يتطفل عليها حتى ولو بمدح صوتها أو الإثناء على إجادتها للحن.

قطع انسجامها صوت طرقات. دقائق ضعيفة سريعة متتابعة في إلحاح على النصف الأسفل من الباب. نهضت متثاقلة وهي تلعن في سرها هذا الذي عكّر صفاء مزاجها. فتحت الباب في تحفز سرعان ما تبخر ما إن وقعت عيناها على دقوق وهو يتقافز والكلمات تتدافع مبعثرة من فمه:

- أسرع يا أبله نعيمة.. حسن تشاجر في المدرسة وجرح في رأسه جرحًا كبيرًا..

ألقى دقوق بهذا الخبر الغريب وركض مسرعًا على السلم نحو الشارع. نادته ملتاعة لتستفسر منه عما حدث لكنه كان قد اختفى تاركًا إياها فريسة لحيرة وفزع سيطرا عليها وأفقداه توازنها. أخذت تدور حول نفسها وقد توقف عقلها تمامًا عن التفكير عاجزة عن معرفة ما يجب عليها أن تفعل. أبوها مسافر ولا فائدة من انتظار عودة أمها التي لا تحسن التصرف في مثل هذه الأمور خاصة وأن لغتها العربية ضعيفة جدًا.

دون أن تشعر بنفسها، اختطف معطف أبيها الكحلي المعلق على مشجب بجانب باب الشقة وارتدته فوق روب المنزل وهي تقفز هابطة السلام بسرعة نحو الشارع. ركضت نحو المدرسة وجسدها

النحيل يكاد يختفي تمامًا وسط طيات المعطف الثقيل كأنها تحمله فوق كتفها ولا ترتديه. يرمقها الناس في استغراب وهي تتعثر في أطرافه وتجرجره دون أن تكف عن الركض وقد انفصلت عما حولها تمامًا وأغشت عينيها صورة حسن والدماء تتصبب على وجهه.

مرقت مسرعة من باب المدرسة بعد أن تقاهمت مع الحارس لدقيقة. صعدت السلالم المفضية إلى الطابق الأول بالبناء الكبير وصوت صراخ غاضب يتضح لها شيئاً فشيئاً. ما إن دلفت إلى الدهليز الطويل حتى التفتت نحو مصدر الصوت فوقعت عيناها على امرأة قمحية البشرة تغطي معظمها بحبرة سوداء لامعة فوق فستان أنيق وقد أنزلت يشمكها الأبيض عن ملامح لم تخف ارتعاشات الغضب مدى تناسقها وجمالها. تصرخ منفعة في ثلاثة رجال قدّرت ميري أنهم ناظر المدرسة ومدرسين يعملان فيها. وبينما وقف هؤلاء الثلاثة صاغرين متخرجين أمام الصراخ الموجّه لهم وقف وسطهم فتى في مثل عمر أخيها حسن أو أصغر قليلاً، مثبتاً يمينه قطعة قماش بيضاء سميقة على رأسه المجروحة، وقد تلوّخ بياضها باللون الأحمر وجفت على جانب وجهه خطوط دماء رفيعة.

جذب انتباهها صوت خطوات بطيئة تصعد السلالم التي صعدتها للتو. التفتت فوق نظرها على رجل متوسط الطول ذي ملامح رقيقة هادئة أشعرتها براحة مفاجئة لم تفسرها أو تدركها في لحظتها. كما لم تدرك ما هذا الذي دفعها لأن تتراجع دون تعمّد متوارية في مدخل غرفة خالية وعيناها لا تزالان معلقتين بهذا الوجه المكسو بالدهشة وعدم التصديق.

وصله صوتٌ منيرة وهو يصعد الدرجات. عرف أنه صوتها دون أن يحتاج لرؤيتها. كيف لا يعرف هذا الصوت الذي سكن قلبه واستقر داخله رغم قلة ما أجادت به عليه خلال سنوات زواجهما الطويلة؟ لكنه رغم ذلك لم يستطع أن يصدق أذنيه! لم يستطع أن يصدق أن الصوت الذي لم يسمعه إلا همساً هو نفس الصوت الذي ينطلق الآن بكل هذا الصراخ الجريء! لكن ما إن خطا داخل المبنى حتى تعاضمت دهشته وهو يشاهدها تصرخ غاضبة في ثلاثة رجال متعدية كل حدود اللياقة دون أن يهتز لها جفنٌ! من هذه؟! إنها ليست نفس المرأة التي تزوجها وعاشرها وأحبّها حبّاً تسبّب له في أعظم ألم شعر به يوماً! ألّهذه الدرجة كان تأثيره سيئاً عليها؟! أحسّ بأسى عظيم يجتاح صدره. ألّهذه الدرجة كان وجوده بجانبها يسلبها رحيق الحياة وما كان هدوؤها وخجلها كل هذه السنوات إلا ذبولاً وانكساراً! من أحب إذا؟! أحب الصورة التي أراد أن يراها فيها. أحب التمثال الذي نحتته حول نفسها واحتمت به من كل الدنيا التي ظلمتها بسببه رغم أنه لم يحب أو حتى رأى في حياته امرأة غيرها!

انتبه من خواطره فجأة عندما اقتحم المشهد أمامه رجل وسيم طويل وعريض المنكبين في تناسق، يرتدي حلة بيضاء أنيقة ورباط عنق يتماثل لونه مع لون الطربوش الأحمر الفاقع. أحس بيدٍ تعصر قلبه وهو يراه يعدو نحو منيرة ويحيط كتفها بذراعه محاولاً تهدئتها. لم يحتج إلى أكثر من ثوانٍ ليدرك أن هذا الرجل ليس إلا رشدي، زوجها. التفتت منيرة نحو رشدي ولم يهدأ غضبها بعد لكن ما إن وقعت عيناها على محمود المحمّل فيهما حتى انقلب حالها إلى النقيض. أصابها خرس وامتنع

وجها وأسرت ترفع اليشمك لتختبئ خلفه وهي تهرب بعينيها نحو الأرض وتلتصق منكشمة برشدي كأنها تحتمي به وتخفي نفسها خلفه.

أخذ رشدي يتبادل الحديث مع الثلاثة رجال الذين اندمجوا في تقديم اعتذارات متوسلة، بينما ركض حسين نحو محمود بعد أن انتبه لوجوده. طوّق ما طاله من وسط أبيه بذراعيه الصغيرتين فأسرع محمود يضمه له بيد وباليد الأخرى يفحص الجرح قبل أن يربّت على رأسه مشجعاً. رفع وجهه فتوقفت أنفاسه من الصدمة وهو يرى رشدي واقفاً أمامه مباشرة يطلب منه في منتهى اللطف والتهديب أن يتنازل عن موعد زيارة اليوم ويسمح لحسين بالمبيت عند أمه الليلة لأنها قلقة عليه، لم يسمع معظم ما قاله رشدي، فقد كان مأخوذاً تماماً بتأمّله في ذهول. أول مرة يقف وجهاً لوجه أمام غريمه الذي هزمه شر هزيمة دون أن يحتاج إلى أن ينازله، دون حتى أن يحتاج إلى أن يخرج سيفه من غمده. أوماً محمود موافقاً وقد أصاب عقله شلل تام فشكره رشدي وأسرع يمسك بيد حسين وباليد الأخرى يحيط كتفي منيرة التي ظلت تتجاهل محمود بنفس الملامح المتوترة كأنه غير موجود بالمرة. هبط ثلاثتهم السلام وهو خلفهم لا يرفع عينيه من عليهم كأنه مسحور بهم. ومثله تماماً خرجت ميري من مخبئها وتبعته مستغرقة في تأمّله كأنها مشدودة بخيط غير مرئي إلى هذا الرجل الغريب، الذي أحيا بداخلها ذكرى مشاعر قديمة متعلقة بخالتها رقية وزوجها، أبا وأم آيسل، وعلاقتهم الزوجية الغريبة. مشاعر كانت قد أدركتها وحدها وهي طفلة دون أن يفهمها أحد إياها، ثم أخفتها بداخلها ونسيتها تماماً قبل أن يوقظها هذا الموقف العجيب مرة أخرى في لحظة إدراك وتووير نادرة الحدوث. بل ويدفعها لمحاولة التأكد مما أحست به دون أي سبب منطقي لهذه المحاولة!

وقف محمود أمام باب المدرسة - وميري خلفه - يراقب رشدي وهو يساعد حسين ثم منيرة على الصعود إلى الحنطور الذي انطلق بهم مبتعداً وطرف الحبرة السوداء يطل منه على استحياء. مرت بشفتيه ابتسامة هزيلة ساخرة وقد تذكر فجأة الحاج ياسين، الذي لو كان حياً حتى الآن لكان ربما حكم على زوجته وابنته أن يكفا عن ارتداء الحبرة واليشمك تشبهاً بنساء الباشوات.

- إنها لا تحبك.. هي فقط تشعر نحوك بالذنب.

توقفت أفكاره ومشاعره الفائرة بداخله فجأة كأنها تجمدت بعد طول انصهار وصوت رقيق يطرق أذنيه بهذا الكلام العجيب. التفت خلفه ببطء في استغراب سرعان ما تحول إلى دهشة عارمة وهو يدرك أن قائلة الجملة التي لخصت حقيقةً ظل يهرب منها طويلاً ليست إلا فتاة لم تبلغ بعد العشرين من عمرها. تقف حاسرة الرأس مختبئة بملابس المنزل تحت معطف رجالي كبير لا يليق بنحافتها ويجعل شكلها مضحكاً وأسراً للعين في آن. أشرق وجهه بابتسامة خافتة مستغرقة وهو يتأمل هيئتها وجديلتيها الصفراوين وزرقة عينيها الرائقتين. إن كانت منيرة تملك في حدقتها بحراً من العسل فالسماء نفسها تسكن هاتين العينين.

فجأة أدركت ميري فداحة ما فعلت. من أين جاءت كل هذه الجراءة لتتطفل على حياة شخص لا تعرفه وتتطوع بإبداء رأيها في علاقته بمن فهمت مما حدث أنها طليقته التي لا يزال قلبه معلقاً بها، ثم ازداد ارتباكها وهي تجد نفسها محاصرة بنظراته المتأملة وابتسامته المأخوذة بها. أسرعت تتحسس شعرها المكشوف ومعطف أبيها الضخم فاندفعت الدماء الحارة نحو أذنيها ووجنتيها وهي تدرك كم تبدو هيئتها مضحكة في عينيه. تحركت كالملدوغة مولية إياه ظهرها لتبتعد عنه، لكنها توقفت عندما سمعته يناديها بنبرة متوسلة:

- انتظري.

ارتابت للحظة قبل أن تلتفت نحوه ببطء مستميتة في محاولاتها حتى لا تلتقي عيناها بعينيه. تملل للحظة لا يعرف ماذا يفعل ثم وافته فكرة فأسرع ينزع من حول رقبتة كوفية صوف رمادية ذات خطوط نحيفة في لون الأحمر القاني، ثم يناولها إياها مشيراً نحو رأسها. ترددت لوهلة لكنها تحت نظراته المشجعة وابتسامته الودية مدت أناملها الرقيقة لتلتقط بهم الكوفية وتضعها على شعرها، قبل أن تلف طرفيها حول رقبتها وهي لا تزال مخفضة عينيها نحو الأرض. استدارت وركضت مسرعة بأنفاس منهدجة وأنف مفعم برائحة عطره وقلب يكاد ينفجر من الجنون الذي حل به.

لا يعرف محمود ما هذا الذي أصابه حين وجد نفسه يتبعها تلقائياً بخطوات سريعة مثبّتا عينيه عليها حتى لا يفقد أثرها. توقف أمام المنزل الذي دخلته وقد عادت إليه ذكرى ذلك اليوم الذي أتى فيه هنا هو وأبوه وأمه لتعزية تلك السيدة التي استشهدت ابنتها في المظاهرات. دخل المقهى بخطوات بطيئة وجلس على إحدى الطاولات المنزوية وقد احتلته حيرة شديدة سائلاً نفسه عن سبب ما يفعله هذا وجدواه وما يريده من جلسته هذه! لم يقذه سوى إقبال الحاج صابر الذي لمح من بعيد فأسرع نحوه مرحباً به وهو يحاول إخفاء دهشته من مجيء ابن الشيخ سلامة إلى شارعهم وجلوسه على مقهاهم، هو الذي لم يره جالساً على مقهى قط! تلقى محمود ترحيبه متردداً لكنه سرعان ما تخلص من تردده هذا وبدأ يتجاذب معه أطراف الحديث في حميمية محاولاً استدراجه لمعرفة كل شيء عن سكان هذا المنزل دون أن يبدي اهتمامه الحقيقي. وبالفعل لم يحتج محمود إلى أكثر من مناورة صغيرة ثم انطلق الرجل يقص عليه كل ما يخص الست أم نعيمة قاطنة الطابق الأول وجيرانها الخواجات المسلمين سكان الطابق الثاني وابنتهم التي أسمت نفسها على اسم الابنة الشهيدة.

عاد محمود إلى البيت وعقله مشغول تماماً بحكاية هذه الفتاة العجيبة ذات الاسمين التي تتحدث العربية بطلاقة وعائلتها الخواجات المسلمين! استبدل ملابسه وجلس في مكانه المفضل بجانب نافذة غرفة الجلوس مستغرقاً في التفكير فيها وفي هيئتها المضحكة الأسرة وتفاصيلها الرقيقة وكلامها الذي يدل على عقل كبير، أكبر من عمرها.

اتسعت ابتسامته وخفق قلبه في دهشة جذلي عندما أدرك فجأة أنه ولأول مرة منذ سبعة أشهر تقريباً يمر عليه كل هذا الوقت دون أن يفكر في منيرة! كأنه لم يفتر سوى سويغات قليلة على رؤيته لها مع رشدي لأول مرة بعد طلاقهما! لو كان أي شخص أخبره من يومين فقط أن موقف كهذا سيحدث له

وأنة سينسأه بعدها بلحظآآ وبنشغل بمتآبعة فتآة آخرى تجذب آنتباهه إلى هذا الحد؁ لما صدقه بل ولنعه بالجنون أو لآتهمه بالآستهزآء بمشآعره!

ضآقت آبتسآمته وإن لم تخنف بل ظلت هنآك معلقة على شفآته ببنما الحيرة تظلل أفكاره وتزیده دهشة فوق دهشته!

كيف آستطآعت أن تفعل ذلك؟!

تلك الخوآجآة المسلمة ذات الآسمين التي آحتلته بكلماتها؁ والتي تسكن السماء عینها!

(٤)

آدار تیمور وجهه نحو اليمين ثم اليسار منهيآً صلاة العشاء. رفع يديه ودعا الله بصدق أن يشفي ابن جودت باشا من مرضه هذا الذي آعآدهم من رحلتهم قبل حتى أن تبدأ؛ فما إن رست باخرتهم عند أول مينآء بعد أيام قليلة من إبحارهم حتى وجدوا برقيةآً تنتظرهم بالخبر وتستحث الباشا على ضرورة العودة؁ فأسرعوا يدبرون أماكن على البآخرة العآدة إلى الإسكندرية وينقلون إليها حقائبهم وحآجياتهم.

مسح تیمور على وجهه ثم نهض واستدار قاصداً الخروج من المسجد لكنه توقف عندما شعر ببیدٍ توضع على كتفه في رفق. التفت ناظرآً خلفه ثم هتف مبتسماً ما إن وقعت عيناه على من يقف وراءه:

- أهلاً حآج صآبر!

آتسعآ آبتسآمة الرجل وهو يجيبه:

- حمدآً لله على سلامتك يا تیمور أفندي.

- سلمك الله. تعآل نعود معآ.

ظللآ آبتسآمة الحآج صآبر لمحآة من الخبث وهو يستوقفه بنبرة تخفي شيئآ:

- لآ؁ آنتظر؁ فالشيخ سلامة وابنه يريدان التحدث معك في أمر هام.

عقد تیمور حآجبيه وهو يتسآعل مستغربآ:

- يريدان التحدث معي أنا؟! خيرآ؟!!

ازداد الخبث في ابتسامه الحاج صابر وهو يجذب تيمور نحو المنبر مطمئناً إياه بنبرة واثقة:

- خيراً إن شاء الله، بل وكل الخير.

سار معه تيمور وقد تملكت منه حيرة عارمة. استعجب أمر معرفة الشيخ سلامة به! بالطبع هو يعرفه لأنه شيخ المسجد الذي يصلي فيه أحياناً وحفيد الولي المشهور ومدير شؤون الوقفية التي أنشئت باسمه. أهل الحي كله بل والأحياء المجاورة يعرفونه جيداً. هذا أمر طبيعي، لكن كيف ومن أين يعرفه الشيخ سلامة! إنه يسكن في شارع بعيد نسبياً عن شارع، في الناحية الأخرى من مدرسة حسن التي تتوسط الحي. لم يتحدث معه قط ولم يختلط به! يأتي فقط ليصلي خلفه ثم يذهب دون حتى أن يحتك بأي من المصلين الآخرين! حتى أقرب جيرانهم إليهم لا يختلطون بهم كثيراً ما عدا أم نعيمة بالطبع! كيف يعرفه إذا؟! بل وأكثر من ذلك! يطلبه بالاسم من الحاج صابر ليتحدث معه في أمر ما!

حاول إخفاء دهشته من الترحيب الكبير الذي استقبله به الشيخ سلامة. صافحه تيمور مبدئياً قدراً كبيراً من الاحترام ثم صافح محمود بألية دون أن ينتبه إلى الترقب الذي تلمع به عيناه. جلسوا ومعهم الحاج صابر بجانب المنبر يتبادلون حديثاً عادياً يخفي كل منهم به توتره وكأنهم تواطأوا - حتى تيمور الذي لا يفهم شيئاً مما يحدث - على تمضية الوقت في كلام لا معنى له حتى يخلو المسجد من المصلين، بينما جلس جعفر في ركن منزو يراقب ما يحدث في اندهاش؛ فهذه هي أول مرة يرى فيها الشيخ سلامة يستقبل ضيفاً داخل المسجد. هو الذي عاش عمره كله حازماً في فصل شؤنه الخاصة عن شؤون المسجد والوقفية!

ما إن خرج آخر مصلٍ حتى سادت لحظات صمت مشحون حاولوا التغطية عليها بابتسامات مرتبكة قطعها أخيراً الشيخ سلامة قائلاً بصوته الرزين:

- حتى لا أطيل عليك يا تيمور أفندي فأنا ما طلبت مقابلتك اليوم إلا من أجل أن أطلب يد ابنتك نعيمة لابني محمود.

اتسعت حدقتا تيمور في دهشة شديدة من آخر شيء توقع أن يسمعه بينما استدرك الشيخ سلامة في نبرة معتذرة:

- اعذرنا لأننا نفاتحك في هذا الأمر هنا وبهذه الطريقة! والله لو كان بيننا سابق معرفة لجنناك بأنفسنا حتى بيتك من بداية الأمر أو لو كانت السيدة أم نعيمة تتحدث العربية جيداً لذهبت إليها أم حامد كما تقتضي التقاليد أو حتى لكننا أرسلنا لها سعدية الدمنهورية الخاطبة.

أسرع تيمور يجيبه نافية الحرج:

- لا تقل ذلك يا شيخ سلامة. يكفيني أن أوليتني شرف مصاهرتك وهو أمرٌ عظيمٌ عندي.

تنفس محمود في سرور بعدما زال شيء من ترقبه وحل محله اطمئنان بهذا القبول المبدئي، بينما اتسعت ابتسامة الشيخ سلامة وقلبه يتراقص فرحاً. منذ أن جاءه ابنه وأبدى رغبته في الزواج مرة أخرى وهو يشعر كأن جبلاً ثقیلاً قد انزاح من فوق صدره، خاصة بعدما شعر أن محمود قد اجتاز محنة تعلقه بمنيرة عندما أخبره أنه اختار فتاة بعينها ولا يريد من أمه أن تأتي له بأي عروس والسلام.

قطع تيمور لحظة السعادة تلك مستدرکاً في تردّد:

- لكن اعذرني يا شيخ سلامة. أنت تقول أنكم لا تعرفوننا بالمرّة فمن أين لكم بمعرفة نعيمة؟! -

تبادل الشيخ سلامة ومحمود نظرات مرتبكة تحت أنظار الحاج صابر الفضولية وترقّب تيمور للفهم. أدركا أن صهرهما المستقبلي ليس رجلاً سهلاً، رغم طبيئته وفرحته البادية بصدق من طلبهما هذا وأيضاً رغم أجنبيته، إلا أنه أراد أولاً أن يعرف الحقيقة كلها كما يفعل آباء الفتيات في هذا البلد الذي وطن نفسه وأسرته فيه، فهو يدرك ضرورة الالتزام بتقاليد وأعرافه خاصة في أمر كهذا حتى تظل ابنته محتفظة باعترازها وسط أهلها الجدد.

لم يطق محمود الصمت أكثر من ذلك. كان يريد أن ينهي هذه الجلسة لصالحه بأية طريقة وأدرك أنه حتى ينال مبتغاه عليه أن يتحلى بالصدق مع هذا الرجل الذي يأمل أن يصبح حماه عن قريب. أسرع دون حتى أن يأذن له أبوه بعينيه يحكي لتيمور كيف رأى ميري لأول مرة وكيف عرفها. بالطبع لم يحك له كل شيء. لم يقل له أنه ظل طوال الأيام الماضية مشغولاً بها غير قادر على إخراجها من تفكيره وخياله، ولم يقل له إنه تعمّد المرور في شارعهم عدة مرات معلقاً عينيه على نافذتها كالمراهقين محاولاً اقتناص نظرة أخرى إلى وجهها كأنه يريد أن يتأكد أن الصورة التي يحتفظ بها داخله حقيقية وليست من نسج خياله. لم يحك له عن أمر منيرة حتى يحافظ على ماء وجهه أمامه وأمام الحاج صابر، ولا يحكي له عن الجملة التي قالتها له ميري أمام المدرسة، لكنه حكى له عن تتبعه لها حتى منزلهم بعد هذا الموقف العجيب الذي جمعه بها هناك، وكيف أنه عرف بعد ذلك حقيقة الأمر الذي لا يعدو كونه مشاحنة أخرى من مشاحنات ددق ودعبس الطفولية. فقد عرف بعد ذلك أن الطفلين كانا يتشابكان بالأيدي بجانب المدرسة في ذلك اليوم عندما نشبت مشاجرة داخلها وارتفع صراخ الصبية وأسرع واحد منهم يهتف لهما من خلف السور بأن حسين محمود جرح في رأسه بسبب العراك. وقع الاسم في أذن ددق «حسن تيمور» فانبرى يؤكد أنه حسن ابن الخواتم المسلمين بينما أصر دعبس على أن الاسم الذي سمعاه كان «حسين محمود» وهو ليس إلا حسين ابن محمود أفندي وحفيد الشيخ سلامة. تلاس الاثنان لدقائق قبل أن يعدو كل منهما محاولاً إثبات ما قاله بأي ثمن. أسرع ددق يستدعي ميري بينما لم يكتف دعبس بإخبار منيرة في منزل أبيها الذي استمرت في المكوث به بعد زواجها من رشدي، بل أسرع بعد ذلك يستدعي محمود وهو عائد من عمله. وهكذا تقدّر أن يكون تشابه اسمي الابنين والتحاقهما بنفس المدرسة ومشاحنات ددق ودعبس العابثة، أسباباً جمعت بها في مصادفة عجيبة خطط لها القدر بإحكام.

ما إن أنهى محمود الحكاية حتى انبرى الحاج صابر يهتف في حماس:

- الحمد لله. محمود أفندي عداه العيب يا تيمور أفندي. نقرأ الفاتحة إذًا.

ابتسم تيمور وهو يجيب في لباقة:

- بالنسبة لي، الأمر محسوم. مصاهرة الشيخ سلامة ومحمود أفندي شرفٌ لم أكن أحلم به، لكن اعذراني، قبل قراءة الفاتحة يجب أن أعود إلى نعيمة وأمها.

تهلل وجه الشيخ سلامة وهو يقول في نبرة متوسلة مستعيدًا في خياله مأساة منيرة:

- نعم، أرجوك يا تيمور أفندي أن تفعل ذلك، وتتأكد من قبول الفتاة ورضاها بالزواج عامة وبمحمود خاصة.

لم ينتبه الشيخ سلامة لنظرة اللوم التي رمقها به محمود، فرغم موافقته التامة على ما قاله أبوه إلا أنه قد حز في نفسه أن يكون احتمال رفض الفتاة له في نظر أبيه هو الأصل حتى يثبت العكس، لكنه صمت وأسرَّ ألمه لأنه شعر أنه لا يملك ما يدافع به عن نفسه وأن موافقة ميري هي الأمل الذي يتعلق به ليرد له اعتباره.

انتهت الجلسة بالاتفاق على عقد مقابلة أخرى في اليوم التالي. بعدها عاد تيمور مع الحاج صابر محاولاً إخفاء الفرح المترقصة بجنون بداخله. تظاهر بالرصانة بينما هو يلعن في سره خطوات الرجل البطيئة التي لولاها لركض حتى البيت ليبيش فاطمة بالأمر ويتناقش معها فيه؛ فرغم كل ما فعله ليحافظ على الصورة الرزينة لنفسه ولابنته أمام الشيخ سلامة وابنه، إلا أنه كاد في داخله أن يجن من السعادة بعد أن جاءه أخيرًا خاطب ذو نسب لابنته التي كان يكتنم هو وأمها قلقلهما عليها وهي تقترب من العشرين دون أن يتقدم لها عريس واحد.

ما إن دخل الشقة حتى أسرع يبحث عن فاطمة بجنون. اقتحم عليها المطبخ وأسرع ييزف لها الخبر دون أن يتوخى ما يكفي من الحذر أو يخفض صوته الذي وصل إلى ميري في غرفتها المجاورة. أسرعت تلتصق بالباب الموارب وأصاحت سمعها عندما جذب انتباهها تردد اسمها واسم محمود ثم كلمتي «مدرسة حسن». اسمه محمود إذًا! فكرت مستعذبة الاسم وابتسامه خافتة تطل على شفيتها. دق قلبها بعنفٍ وهي تسمع أياها يذكر أمر الخطبة. فرحة عارمة عصفت بفؤادها القلق منذ عدة أيام دون أن تفهم ما هذا الذي حل به!

لكنها ابتعدت عن الباب فجأة.

عادت خطوة إلى الوراء كمن لدغها عقرب عندما مرت بخاطرها فكرة قلبت فرحتها قصيرة العمر إلى أسى احتل قلبها. فكرة جرحت كرامتها وأثارت مخاوف كانت تكمن في أعماق نقطة بداخلها

منتظرة لحظة الفرحة هذه لتتقض عليها وتستلبها منها بلا رحمة أو هوادة.

أسرعت تجلس منكمشة في فراشها بجانب رقية التي كانت قد تركت سريرها كعادتها كل ليلة لتنام بجانب ميرى متشجعة بترحيبها الشديد. مدت يدها تحت وسادتها ثم أخرجتها وهي ممسكة بالكوفية الرمادية ذات الخطوط الحمراء القانية. قرَّبَتها في تردُّد من أنفها فامتلاً برائحة عطره المميز. اقتحمها ذكراه وتفاصيله وابتسامته الوديعة ونظراته المأخوذة بها، والحقيقة التي أدركتها وحدها وتقوَّهت بها في اللحظة التي سبقت نفاذه إلى روحها بهذه السرعة وهذا العمق دون أن تشعر أو تستوعب كيف حدث ذلك!

انفجرت ببكاء أحست به يحرق صدرها. قرَّبَت منه الكوفية واحتضنتها محاولة عبثاً تهدئة قلبها الممزق بين ما تشعر به نحو هذا الغريب الذي ما عاد كذلك في نفسها، وبين ما قرَّرته في تلك اللحظة ويؤجج بداخلها ناراً لا انطفاء لها.

(٥)

جلس أمامهما تيمور وهو يفرك يديه ويثني أصابعه في ارتباك. محاطٌ بهيبة الأفندية في حُلته الرمادية الأنيقة وطربوشه الأحمر الذي تطل من تحته خصلات شعره البنية وقد بدأت شعيرات بيضاء صغيرة تتخللها على استحياء. هيبة لا تتناسب مع التوتر البادي عليه والحرص الذي يكاد يقتله. كيف بعد كل الإطراء الذي أفاض به عليهما والتمادي في التعبير عن تشرُّفه وسعادته بمصاهرتهما يجلس الآن أمامهما ويقول بمنتهى البساطة:

- نعيمة لا تقبل.

زفر الشيخ سلامة والجميل الذي كان قد انزاح من قبل يعود ويجثم مرة أخرى على صدره بينما ازدد محمود ريقه محاولاً ترطيب حلقه الجاف متسائلاً بنبرة متلجلجة:

- لا تقبل الزواج أم.. لا تقبل بي؟!

صمت تيمور متحرِّجاً من التقوُّه بالإجابة الثانية. أحنى رأسه هارباً بعينيه من محمود الذي أدرك ذلك دون أن يحتاج إلى مزيد من التوضيح. سادت بينهم لحظة صمت متوتر قطعها تيمور عندما رفع رأسه فجأة هاتفاً في تردُّد:

- لكن.. هناك أمر ما..

ضيقَ الشيخ سلامة عينيه مستفسراً بينما حلق فيه محمود وهو يستحثه في فضول:

- ماذا هناك؟!

- هل يمكن أن تمنحوني فرصة أخرى معها؟!

اتسعت حدقتا الشيخ سلامة وهو يهتف متوجسًا:

- ماذا ستفعل؟! هل ستضغط عليها أو ترغمها؟!

- لا لا لم أقصد ذلك.. لكن...

تململ تيمور للحظات لا يعرف كيف يصيغ ما يفكر فيه. نطق كلماته ببطء محاولاً توضيح فكرته بطريقة مفهومة ومقبولة:

- إنها ابنتي.. أنا أعرفها جيداً.. رفضها هذا ليس حقيقياً.. أشعر أنها تخفي شيئاً لم أعرفه بعد.. شيئاً يجعلها تبدي عكس ما في قلبها.

لم يبدُ على الشيخ سلامة الاقتناع على عكس محمود الذي بدا كأنه غريق يتعلق بقشة يؤمن أنها ستنقذه بينما يشفق عليه الجميع لأنهم يرون حقيقتها الهشة، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يسير خلف أي أمل مهما كان واهناً. كيف يمكن أن يكفر بهذا الأمل وهو الذي أعاد الروح إلى قلبه في اللحظات التي تلت شعوره ببدي تفتلعه من صدره عندما عرف بعدم قبولها به؟

تمتم تيمور متوجسًا في صوت خافت كأنه يخاف أن يسمعه ويقبلا عرضه الزائف بالترجع:

- لا حرج عليكم بالطبع إن لم تقبلا انتظار نتيجة محاولتي.

صمت الشيخ سلامة محاولاً إيجاد الإجابة المناسبة، لكنه التقت مندهشاً نحو محمود عندما وجده يهتف دون تفكير:

- سننتظر يا تيمور أفندي.. سأنتظر محاولتك.

أوماً تيمور مبتسماً في ارتياح قبل أن يسرع بالرحيل دون حتى أن ينتظر ليصلي المغرب معهما في المسجد كأنه يخشى إن بقي أمامهما أن يعيدا التفكير ويغيرا رأيهما، لكن رحيله المبكر هذا قبل مجيء حامد وإبراهيم أراح محمود أيضاً، الذي لم يردهما أن يعرفا شيئاً عن الحديث الذي دار معه منذ قليل.

لم يتأخر أخواه عن ميعاد الصلاة وأسرع حامد يرفع الأذان قبل أن تنتظم الصفوف يؤمها الشيخ سلامة كعادته. صلى المغرب ثم جلس بجانب ضريح جده يستمع إلى حلقة الذكر المنعقدة ببالي مشغول. عاد عقله يلومه على بلاهته وسذاجته. لماذا لم يقبل بالأمر الواقع؟! لماذا اختار أن ينتظر أملاً زائفاً لا طائل منه؟! ما معنى المحاولة مع قلب لا يقبله ولا يبادل الاهتمام أو المشاعر؟! هل وقع في نفس الخطأ مرة أخرى وتطلع إلى ما يتجاوز به بكثير؟! أم هذا هو قدره دائماً؟! أن يدق قلبه

ولا يلاقي إلا الرفض. أن يحب ولا يتلقى إلا الإعراض. أن يختار بإرادته دائماً ألا يُتيمم إلا بمن لا تشعر بوجوده وتطعنه في رجولته دون حتى أن تقصد ذلك لأن ببساطة قلبها لم يمل له.

هل يختطفها؟! هل يفعل مثل أجدادها ويختطفها؟! افتر ثغره عن ابتسامه ساخرة من أفكاره الغريبة. عندما عرف بأمر أجدادها الشراكسة الذين كانوا يسكنون جبال القوقاز في آسيا الصغرى قبل تشتتهم في أنحاء الأرض، أسرع يحاول معرفة الكثير عنهم من صديق له اختلط بأحفادهم الذين استقروا في بلاد الشام. حكى له الكثير عن عاداتهم وتقاليدهم ومنها أمر «خطيفة العروس» حين كان الخاطب يختطف العروس التي يريدتها وتريده فتستقر في منزل أحد أقربائه لا يحق له مقابلتها حتى تحضر إحدى قريباتها من الكبار لتطمئن عليها ثم تتفق الأسرتان على موعد وتفاصيل الزواج. وفي هذه الحالة يحق لأسرتها طلب أي مبلغ كصداق ويجب على أسرة الخاطب أن تقبل به. أما إن لم يحدث الاتفاق بسبب عدم رضا أهلها أو أي سبب آخر تُخيّر العروس بين العودة لأسرتها وبين الاستمرار في أمر الزواج.

عاد يوبخ نفسه ويواجهها بالحقيقة التي تناساها في اللحظات القليلة الماضية؛ فتيemor لا يبدو عليه أنه ينوي العودة إلى تقاليد أجداده، كما يبدو أنه قد اعتنق تماماً عادات وتقاليد البلد الذي أدرك أنه ونسله من بعده سيقون فيه. كما أن أمر «خطيفة العروس» هذا كان يحدث عندما تكون العروس راغبة وأسرته غير موافقة. هتف لنفسه بقلب منكسر:

لكن الأمر مختلف هنا يا محمود. الأمر معكوس. أبوها يقبل بك وهي التي لا تريدك. هي التي لم ترَ فيك شيئاً مختلفاً بينما وجدت أنت فيها ملاذاً. هي التي لم يدق قلبها لك في نفس اللحظة التي تعلق فيها قلبك بها.

أفبق فجأة من خواطره عندما انتهت حلقة الذكر وامتأ المسجد بالمصلين مرة أخرى. صلى العشاء وقلبه الراجف لا يزال يضطرب داخل صدره. استمر كذلك حتى انتهت الصلاة وخلا المسجد إلا منهم. تلكاً محمود حتى سبقهما حامد وإبراهيم ثم مضى بجانب أبيه وكل منهما غارق في خواطره. وقبل أن يصلا عند عتبة المنزل أمسك محمود بذراع الشيخ سلامة فجأة ليستوقفه وهو يستجمع شجاعته ويرجوه بنبرة متوسلة:

- هل يمكن ألا تخبر أمي بأمر عدم قبولها والمحاولة الثانية هذه؟ دعنا نقول لها إن الرجل اضطر للسفر فجأة مع الباشا الذي يعمل عنده وأنه سيجيبنا عندما يعود.

كان يتحدث بعينين تمثلان استعطافاً لأنه يعرف أن أباه لا يقبل بالكذب أبداً، لكنه فوجئ بنفسه ينسى كل اللوم الذي لامه لنفسه ويتناسى كل ما قاله له عقله قبل صلاة العشاء ويعود للسير خلف قلبه المتعلق بالأمل مرة أخرى مهما بدا ذلك - بالتفكير المتعقل - مخاطرة طائشة لا طائل منها.

تأمل أباه متوجساً من ردة فعله، لكن الجبل الجاثم على صدر الشيخ سلامة والتعلق المتعشم الذي يراه في عيني ابنه لم يمهلها ولم يمنحاه ترف التفكير أو الرفض. أو ما مطمئناً إياه بالموافقة على ما

اعتبرها أول كذبة بيضاء في حياته.

* * *

انتفضت في فراشها مستقيظة من نوم قلق لم يغش جفونها إلا مع أذان الفجر. صدرها يعلو ويهبط محاولة النقاط أنفاسها المتقطعة وأثار البكاء لا تزال تورم عينيها وما حولهما. عادت تنزوي متكورة في الفراش وهي تحتضن رقية المستغرقة في النوم، محاولة التخلص من صوت بكاء طفولي يرن في أذنيها ويصاحبها في إلحاح ممض (20) من حلم ثقيل لا تتذكره. هدأت أنفاسها بالتدريج وبدأت الصور تتجمع أمام عينيها ببطءٍ مسترجعة تفاصيل الكابوس الذي أيقظها في فزع. دُهِشت! نعم، لم تكف كوابيس الماضي عن اقتحام نومها لكنها كانت دائماً متركرة على أكثر المشاهد فجعاً أو بالتحديد على مشهدي قتل خالتها وافتراق آيسل عنها، لكن ما الذي أتى بهذه الذكرى الهامشية البعيدة من عمق تلافيف عقلها إلى سطح أحلامها اليوم؟! لماذا ترى في نومها الباخرة التي أفلتها وهي طفلة مع عائلتها منذ عشر سنوات وعبرت بهم البحر المتوسط؟! ما الذي يجعلها تتذكر هذا الطفل الذي كان يجلس بجانبها والذي حاولت أن تتجاذب معه أطراف الحديث فلم يجبها وأجابتها أمه معتذرة عن الخرس الذي أصابه بسبب ما رأى من فواجع قبل الهروب من قريتهم، ومتحسرة لأنه لولا صمته هذا لربما استطاعوا أن ينقذوا أباه من القتل، كما فعلت هي عندما قادت أباهما نحو أمها المغشي عليها بين الأحرار وكانت سبباً في نجاتها.

تقلبت في فراشها وتمددت على ظهرها محمقة في السقف وصور الحلم تتتابع أمام عينيها. رأت نفسها وهي فتاة كبيرة هكذا تركض في دعر بين غرف وجنابات الباخرة النصف مظلمة وقد تحولت إلى متاهة لا تستطيع الخروج منها. وكلما دخلت غرفة أو سارت في دهليز انشقت الأرض أمامها عن هذا الطفل بنفسه ملابس المهلهلة وهيئته البائسة وهو يبكي في إلحاح بكاءٍ مزعجاً مخيفاً يلقي الرعب في قلبها ويشعرها بأنها محاصرة ومقيدة، وأنها لن تستطيع الخروج من هذه المتاهة المستنزفة لأعصابها أبداً.

عادت تختضن رقية وتتكور مرة أخرى بينما رعشة عنيفة تسري في جسدها وتلذع أطرافها رغم ملابسها الشتوية والغطاء الذي تتدثر (21) به. قفزت واقفة وأسرعت نحو صوان الملابس ففتحت وأخذت تبحث فيه بجنونٍ حتى أخرجت أثقل ما لديها. رداء من الصوف الأسود وضعته فوق ما ترتديه وأحكمته جيداً حول جسدها. جلست على طرف الفراش تفرك يديها وتستعذب إحساس الدفء الذي عاد ينتشر في عروقها ببطءٍ ويعيد إليها هدوءها وتفكيرها المتروكي. لا مفر من أن تفعل شيئاً. أي شيء. لا تستطيع أن تتحمل أكثر من ذلك. على الأقل تعرف الحقيقة. حتى وإن استمر عذابها هذا، تكون مطمئنة إلى أنه لم يفنها أي شيء، وأنها اتخذت القرار الصحيح.

نهضت وفتحت باب غرفتها وهي تدفع نفسها دفعاً حتى لا تتراجع. وجدت أباهما يجلس إلى مائدة الإفطار وهو يتصفح الجريدة بتركيز. التقت نحوها فهاله وجهها الشاحب وما يبدو عليها من إرهاق. كلما مرَّ الوقت تأكدت ظنونه وتعاضمت دهشته مما تفعله ابنته ومن صمتهما هذا وإصرارها على

رفض ما يبدو توقعها (22) إليه جلياً في عينيها! حاول التحدث معها البارحة لكنها رفضت وانزوت في غرفتها باكية ولم تخرج منها إلا الآن بهذه الهيئة المثيرة للالتياح.

ارتبكت للحظة من نظراته المشفقة المتساءلة عن جدوى ما تفعله، لكنها تجاهلتهم بسرعة وخطت نحو الكرسي المجاور له في تصميم محاولة التمسك برباطة جأشها والثبات على تنفيذ ما اعتزمته. جلست تحت أنظاره المترقبة وهي تزدد ريقها محاولة السيطرة على وجيب قلبها وعلى التردد الذي كاد أن ينكصها (23). فتحت فمها أخيراً ونطقت بصوت خافت لكنه يمتلئ بالكبرياء:

- أنا موافقة على إعادة التفكير في أمر العريس هذا لكن لدي شرط واحد لن أنتازل عنه...

(٦)

كانت زبيدة تجلس على الحشية الموضوععة بجانب الحائط الممتد بين باب غرفة الجلوس وباب غرفتها في الصالة. على يسارها الشيخ سلامة وعلى يمينها محمود ثم إحسان يراقبانها في توجُّس من ردة فعلها القادمة. مستقرة خلف موقد أسود صغير تشع من ثقبه حرارة تتضج ببطء حبات كستناء تقلبها بملقط معدني بينما جلس مشمش منكمشاً أمام الموقد مستمتعاً بالدفع الذي يشع منه. التقطت زبيدة حبة بنية لامعة بالملقط وتفحصتها بعينين خبيرتين وهي تهتف مستكملة إبداء ضيقها وحنقها:

- عشنا وشوفنا. البنات يجلسن مع الخطاب ويعاينهم قبل الزواج! ألا يكفي أننا قبلناها وهي تنزل الشارع كاشفة وجهها دون برقع!

زفر الشيخ سلامة وهو يكرر ما قاله للمرة العاشرة:

- ليست معاينة يا أم حامد بل رؤية شرعية وهو حقُّها وحقُّ ابنك بالمناسبة.

تجاهلت زبيدة كلماته تماماً وهي تستطرد في غيظ:

- هذه آخره خطبة الخواجات!

مطَّ محمود شفنتيه وهو يقول في توسل:

- يا أمي ليست «خواجاية»! جاءت مصر طفلة وكبرت هنا فأصبحت مصرية مثلنا وأكثر!

أسرع الشيخ سلامة يكمل كلام محمود قائلاً:

- كما أن ما يهمننا هو أنها مسلمة وأهلها مسلمون.

رفعوا رؤوسهم نحو إبراهيم وهو يمضي من غرفته نحو باب الشقة مدلياً بدلوه في الحديث قائلاً في ثقة:

- حتى وإن كانت كتابية.. يهودية أو نصرانية.. يحلُّ له أن يتزوجها.

أثارت كلماته ونبرته المعاندة غضبَ أمه فأسرت تصيح متوعدة:

- اصمت يا إبراهيم وإلا قمت لك!

أسرع إبراهيم يفتح باب الشقة ويدلف نحو الخارج ماراً بجانب حامد دون أن يلتفت نحوه كأنه لم يفاجأ به واقفاً أمامه. راقبه حامد بنظراتٍ مستغربة حتى اختفى على السلم ثم دخل عليهم متسائلاً في استنكار:

- أين يذهب إبراهيم بجلباب المنزل في وقت متأخر هكذا؟!!

أجابته إحسان ولا تزال ابتسامتها من غضبة أمها بسبب إبراهيم عالقة بشفتيها:

- ناداه صديقه عبد المجيد فأسرع يقابله أمام باب المنزل هنا لدقائق. لن يبتعدا.

أوماً حامد دون كثير من المبالاة ثم أغلق الباب وأسرع يجلس بجانب أبيه . تجاهل محمود كل ما يحدث وأسرع يقبض على يد أمه الممسكة بالملقط المعدني يقبلها وهو يربوها في توسل:

- أرجوك يا أمي.. أرجوك لا تتخذي منها موقفاً معادياً قبل أن تريها.

زفرت زبيدة وهي تهتف في ضيق:

- يا بني أضاقت بك الدنيا ولم تجد غيرها؟! ماذا تريد أن تقول علينا نرجس وابنتها؟! لم نجد من بنات المصريين من ترضى بك بعدها فخطبنا ابنة الخواجات؟!!

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

تمتم الشيخ سلامة بصوت خافت غير مصدق منطق زوجته. ابتسم محمود وهو يرفع عينيه نحو السقف قبل أن يعود بهما نحو وجه زبيدة المحمر بالغضب لا يزال مجيئاً إياها في استعطاف:

- يا أمي، نرجس وابنتها لا تفكران فينا بالمرة! منيرة الآن متزوجة ممن تحب وسعيدة معه. أنا لا أمرُّ بخيالها ولا تبالي بي إلا في حدود ما يخص حسين وعلي. هل تريدني أن أجعلها تتحكم في حياتي حتى بعدما خرجت منها بغير رجعة؟! ألا تريدني أن تريني سعيداً هانئاً مرة أخرى؟!!

لانت ملامحها قليلاً وهي تتساءل في مقاومة ضعيفة لا معنى لها:

- وسعادتك لن تتحقق إلا مع ابنة الخواجات هذه؟!!

- نعم يا أمي. لا أريد سواها. لا أقدر على خسارتها.

حينئذ التفت نحوه حامد متمماً بنظرة لؤم ونبرة تلوح فيها سخرية خافتة:

- ألهذه الدرجة أفقدتك الخواجاية صوابك؟! أول مرة أراك تتوسل أمك لتوافقك على أمرٍ ما! كانت دائماً سفيرتك فيما تريده وأول من يتحدث باسمك!

اتسعت أحداق محمود وإحسان وهما يرمقانه في دهشة مما قاله! لكن سرعان ما تحوّلت دهشة محمود إلى غيظٍ وحنقٍ! كان يعرف جيداً أن حامد يعايره بكل المرات التي دفع فيها أمه لتتكلم باسمه أو تعير عما يريده عندما كانت سلميّته وجبته يكبحانه عن المبادرة. وكم كبحه جنبه في هذا البيت! كثيراً. أكثر من اللازم. خاصة في أمر الوقف هذا الذي رغم مرور كل هذه السنوات لا زال أبوه يتهرّب من إشراكه في إدارته، لكنه يكاد يكون متيقناً من أن إحجام أبيه الآن لم يعد مرتبطاً بتعليمه غير الأزهرى، بقدر ارتباطه بنزوع أبيه لتجنب مواجهة حامد فيما يغضبه حتى لا يخلق المزيد من المشاكل بينه وبين أخويه، مستكفياً بعلاقة حامد المتوترة أصلاً بإبراهيم.

فجأة انتبه محمود إلى أنه ربما تكون هذه هي أول مرة لا يُبدي فيها حامد رأيه بوضوح في أمر ما من أمور البيت! لم يرفض زيجته ولم يوافق عليها! بقي صامتاً على الحياد وهو أمرٌ لا يتناسب مع ما اعتادونه منه. ترى ما الذي يدفعه إلى اتخاذ هذا الموقف الحيادي العجيب؟! أغلب الظن أنه ليس متشجعاً لهذه المصاهرة. لكنه في نفس الوقت متشجعاً لزواج محمود حتى ينشغل في حياة جديدة تلهيه وتبعده فلا يعاود المطالبة بأمر المشاركة في إدارة الوقف. ليته يعلم أنه صرف نظر بالفعل، ليس عن رغبته في أن يتحمل هذه المسؤولية حتى يثبت لأبيه جدارته ويتقرب منه أكثر ويرى نظرات الفخر التي طالما تاق إلى أن يراها في عينيه، ولكنه صرف نظر عن إعادة المحاولة في الأمر وإقحام نفسه في مواجهات مع حامد وربما أيضاً مع أبيه.

لا شيء يفوق كراهيته للمواجهات والتحديات إلا كراهيته لإحجامه الدائم عنها. يكرههن ويكره كراهيته لهن وسلميته حيالهن دون أن يستطيع أن يغير نفسه مهما حاول. ربما لذلك، يثير ثباته وإصراره على خوض تحدي هذه الزيجة دهشة الجميع حوله وخاصة حامد.

هو نفسه مندهش من نفسه! لا يعرف من أين جاءه كل هذا الثبات والإصرار؟! منذ أن عرف من تيمور موافقتها على إعادة التفكير في الأمر والأمل يُشعره أن الدنيا قد عادت تفتح له ذراعيها مرة أخرى، بعد أن كانت تضيق به وبما يفور في صدره من أوجاع. لم يهمله اندهاش أبيه في البداية من طلبها بأن يجلسا معاً وحدهما مرة واحدة قبل إعلان موافقتها النهائية، ولا حسب حساباً لغضب أمه التي لم يكن من الممكن إخفاء أمر هذه المقابلة عنها أيضاً. وافق في لحظتها دون تفكير ثم شعر بعد ذلك بصواب هذه الموافقة لأنه هو أيضاً أراد أن يراها عن قرب مرة أخرى قبل الزواج. أراد أن يجلس بجانبها يتطلع إلى ملامحها المنمنمة وعينيها الزرقاوين، أن يسمع صوتها مرة أخرى ويتلمس في كلماتها ما أبصره فيها من تفرّد واختلاف تأكد منه خلال الأيام الماضية وأسر قلبه، كما أسرته قدرتها على فهمه من لمحة واحدة فازداد تمسكها بها واحتياجه لوجودها بجانبه.

انتبهوا عندما ارتفع صوت دق متوتر على الباب فنهضت إحسان متناقلة وهي تتذمر:

- الله يمسيك بالخير يا سكرة. كانت تريحني من أمر باب الشقة هذا.

ما إن أنهت كلمتها حتى أصابها الندم على ما تفوهت به عندما انطلقت زبيدة تهتف لاعنة:

- انقطعت سيرتها من الدنيا تلك الخائنة التي تعلقت بذيل ابنة نرجس ولم تحسب حساباً للعشرة.

أخفت إحسان ابتسامتها وهي تفتح الباب مؤنبة نفسها على الإتيان بهذه السيرة التي تثير أمها. فرحيل سكرة مع منيرة كان دليلاً ساطعاً على أن دخولها بيتهم من البداية لم يكن إلا من أجل منيرة وحدها، تلك التي - كما قالت زبيدة - لم «يتمر فيها» كل ما فعلوه من أجلها وتحاملها - هي زبيدة - على نفسها لتتجاوز عن كثير من زلاتها.

دلف إبراهيم من الباب ملوحاً بجريدة وهو يهتف في نبرة محايدة:

- ألغيت الحماية البريطانية على مصر!

تعلقت إحسان بذراعه مبتهجة وحملق الجالسون نحوه مشدوهين بينما قفز مشمش فزعاً من أمام حامد الذي انتثر واقفاً. خطف الجريدة من يده ومرّ بعينيه سريعاً على سطورها وهو يهتف مندهشاً:

- إنها جريدة الغد!

- نعم. أحضرها لي صديقي عبد المجيد الذي يعمل بالصحافة.

عاد حامد لقراءة تفاصيل الخبر بينما نظرت إحسان نحو إبراهيم وهي تتساءل في استغراب:

- ما لك لا تبدو سعيداً يا إبراهيم؟! أليس هذا ما أردتم؟!!

زفر إبراهيم وهو يجيبها في ضيق:

- أردنا استقلالاً تاماً فحصلنا على استقلالٍ شكليٍّ منقوصٍ.

ثنى حامد الجريدة وهو يقول في ملل:

- يا أخي أنتم لا يعجبكم شيئاً أبداً!

عقد إبراهيم حاجبيه وهو يتساءل في استنكار:

- ألم تقرأ تفاصيل البيان؟!!

اختطف منه الجريدة واستطرد كلامه منفعلاً وهو يقرأ منها:

- استقلال بتحفظات وشروط تضمن للإمبراطورية البريطانية الحق في تأمين مواصلاتها في مصر، والحق في الدفاع عن مصر ضد أي اعتداءات أو تدخلات خارجية والحق في حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات، والحق في التصرف في السودان.

ألقى بالجريدة على الأرض فسقطت بجانب محمود وهو يهتف في سخط:

- أي بلد حر مستقل هذا الذي يترك أمورًا كهذه في يد غيره؟!!

- والله نصف العمى ولا العمى كله!

ازداد تحفز إبراهيم وهو يهتف في غضب:

- نتحدث وكأنهم تفضلوا علينا بما ليس من حقنا! لقد نفوا سعد باشا إلى سيشل ليصدروا هذا البيان لأنهم يعلمون جيدًا أنه لن يقبل به، ونحن أيضًا لن نقبل به وسنواصل كفاحنا حتى نتخلص منهم.

زفر حامد هازنًا قبل أن يقول:

- هكذا إذًا. الأمر لا يعدو كونه عدم رغبة منكم في التوقف عن أمور السياسة والمظاهرات هذه.

تشبثت إحسان بذراع إبراهيم لتكبح جسده الذي اقترب من حامد في تحفز وهو يهتف بعروق نافرة ووجه محمر:

- وما لها أمور السياسة والمظاهرات يا حامد؟! ألسيت هي ما أجبرت الإمبراطورية البريطانية على التراجع؟!!

همَّ حامد بأن يصرخ في وجهه لولا أن نهض الشيخ سلامة وأسرع يقف بينهما متدخلًا في حزم:

- كفاكما عراكا! هيا يا حامد اصعد لزوجتك وابنك.

زفر حامد في غيظ قبل أن يفتح باب الشقة ويخرج ثم يغلقه خلفه في عنفٍ. عاد الشيخ سلامة يجلس مكانه بجانب زبيدة التي رجعت إلى تقليب حبات الكستناء على الموقد ورفع ما نضج منها ووجهها لا يزال يحمل أمارات الضيق.

دخل إبراهيم غرفته في خطوات حائقة بينما أسرعت إحسان تلحق به مثلثة.

تابعهما محمود وهما يختفيان خلف باب غرفة إبراهيم مبتسمًا ابتسامة خافتة. كم يغطهما على ارتباطهما الشديد وتعلقهما ببعضهما البعض. أما كان يمكن أن يصير هذا التعلق ثلاثيًا؟! يعرف أنهما يحبان كثيرًا! إبراهيم بالذات يعرف أنه طالما كره سلميته الزائدة تلك لأنه يحب أخاه الكبير فلا

يحب أن يرى فيه هذا النقص. وكلمته التي ألقاها بشكل عابر قبل خروجه لملاقاة صديقه عبد المجيد محاولاً تعزيز موقف محمود أمام أمه، كلمته تلك مع نظرة التشجيع والفخر التي لمحها في عينيه، أثلجت صدره وجعلته يزيد ثباتاً وإصراراً على أن ينال ما يريد هذه المرة حتى لا يخسر الإعجاب الذي استشعره في عيون إبراهيم وإحسان.

مدَّ محمود يده وأمسك بالجريدة التي ألقاها إبراهيم منذ قليل بجانبه. فتحها وأخذ يقرأ ما فيها بتأنٍ وهو يمسح برفق على ظهر ممش الذي أقبل يتمسح بركبته مستجدياً ربتاته العطوفة. لا يفهم في السياسة لكنه يثق في آراء إبراهيم، يعلم أن لديه بعض الحق في عدم رضاه عن هذا الأمر رغم ما به من حسنات لا يمكن إنكارها إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام وإحساس خفي بالاستيثار يتسلل إلى نفسه. لا يعرف لماذا شعر أن هذا الخبر فآل حسن لما ستؤول إليه مقابلته معها في الغد! ما العلاقة بين الأمرين؟! أم أن قلبه هذا لن يكف أبداً عن اختلاق الآمال والتعلق بها؟!!

(٧)

وقفت ميري تتأمل نفسها في المرأة الكبيرة التي تحتل إحدى درفتي صوان ملابسها.

ترتدي فستاناً يغطي جسدها كله بطبقات رقيقة من حرير في لون اللؤلؤ، خاليًا إلا من نقوشات لورود صغيرة على الصدر. خلفها على الفراش ينام وشاح تتماهى(24) فيه درجات الفستقي والأزرق التي أخذت تتبادل مع بعضها البعض في الظهور والتواري حسب اختلاف الأضواء والظلال ما إن أمسكت به ميري بين يديها. وضعته على رأسها وأحمت ربطه حتى أخفى شعرها الأشقر المعقوص بالكامل. وما إن أنزلت يديها حتى فتحت أم نعيمة الباب ودخلت بخطوات ثقيلة تحت وطأة جسدها الممتلئ وهي تحمل في يدها علبة مربعة من القטיפه السوداء. تأملتها مبتسمة وهي تهتف مادحة:

- اللهم صل على النبي! زينة البنات اسم الله! له حق الجدع يصيبه الهوس!

غمزت لها وهي تنطق بأخر كلمة فأحنت ميري رأسها في خدر وقد أزدتها كلمات أم نعيمة ارتباكًا فوق ارتباكها بسبب ما تعلمه عن أنه يجلس الآن مع أبيها في غرفة الجلوس، على بُعد بضع خطوات ستقطعها خلال دقائق فتصبح معه وحدهما. كادت أن تتدم لأنها هي من أرادت ذلك ووضعت نفسها في هذا الموقف الذي ما إن وجدت نفسها فيه حتى كاد قلبها أن ينفجر من شدة خفقانه بالحر والوتر، لكنها ما تلبث أن تنتشي بشعور لذيذ يسري في عروقها كلما تذكرت كيف أنه لم يتأخر لحظة واحدة عن قبول طلبها، وأنه جاء مسرعًا ليلببها لها كأنه لا يتحمل أن يمر عليه يوم آخر دون الاطمئنان إلى قبولها.

فتحت أم نعيمة العلبة فظهر بداخلها عُقد من حبات عقيق أزرق تلمع في تألق خطف عينيها وجعلها تشهق في انبهار. اتسعت ابتسامتها أم نعيمة من ردة فعلها ثم قالت بنبرة جاهدت لتبدو عادية بينما عيناها مغرورقتان بالدموع:

- اشتريته منذ سنوات من أجل يوم خطبة نعيمة.. وها هو اليوم قد جاء..

تمالكت ميري نفسها حتى لا تدمع عيناها. أرادت أن ترفض. أن تقول لها إنها لا تستحق هذا العُقد الذي يبدو أن أم نعيمة قد ادخرت مبلغًا كبيرًا لتبتاعه لصاحبته الأصلية. ماذا يمكن أن يكون أشد إيلاّمًا، بعد أن حُرمت من أن تطوق به عنق ابنتها وقرّة عينيها، من أن تجد نفسها تزيّن به فتاة أخرى غيرها من أجل خطبتها؟ كادت أن تتمنع لولا أن رأت في عيني أم نعيمة ما جعلها تشعر أنها بارتدائها للعُقد لن توجعها، بل بالعكس، ستعوّضها عن فرحتها الضائعة وتحقق لها ولو ظلًا من ظلال أحلامها التي تبخر الأمل في تحقيقها. استدارت مستسلمة ليدي أم نعيمة التي ألبستها العُقد مغالبة دموعها قبل أن تديرها لتتأملها مرة أخرى بعينين تلمعان بالحبور.

خرجت ميرى من غرفتها واقتربت بخطوات مرتبكة من غرفة الجلوس تحت نظرات أم نعيمة المشجعة. تبدى لها المشهد بالداخل شيئاً فشيئاً حيث يجلس أبوها على المقعد الكبير في مواجهة الباب، ويجلس هو على الأريكة القابعة على يمينه، بينما وقفت أمامهما أمها ترحب به بعربيتهما الضعيفة بعد أن وضعت على الطاولة القصيرة صينية الشاي والكعك.

التقت ثلاثتهم نحو الباب ما إن دلفت منه ببطءٍ، تعقد يديها أمامها لتسيطر على توترها وتبعد عينيها عنهم، وعنه هو بالتحديد، مستميتة لتحافظ على رباطة جأشها وهي ترى نفسها محط أنظارهم جميعاً، كلُّ منهم يرمقها بما في داخله. أمها ترجوها بعينيها أن تتم الأمر على خير وأبوها ينظر لها بفخر واعتزاز. كم تُماثل جدتها! إنها تكاد تكون قطعة من أمه! أخذت منها ملامحها وعينيها وورثت صلابتها وعنادها كما ورثت من الأجداد عاداتهم دون حتى أن تدرك ذلك! كيف عرفت بفطرتها أن أجدادها الشراكية كانوا لا يتمون الزواج إلا بعد أن يجلس الرجل مع عروسه وحدهما لمرة واحدة يتفقان خلالها على حياتهما؟! فبالرغم مما انتابه من حرج بسبب طلبها هذا في البداية إلا أنه لم يستطع أن يمنع شعوراً خفياً بالفخر يتسلل إلى نفسه، وهو يرى ابنته تمد جذورها عميقاً هكذا وتتخذ من تاريخ أجدادها ما يرفع من شأنها بين أهلها الجدد!

أما محمود فلم يستطع أن يمنع نفسه من أن يطوف بعينيها في وجهها وتفصيلها وشعور مريح بالألفة ينتشر بداخله. ربما كان بياضها شاحباً وجمالها عادياً خاصة بعد أن أخفت شعرها الأشقر تحت الحجاب، لكن في تلك اللحظة كان كل شيء فيها أخذاً بشكل مبهر! ظهرت فخطفت قلبه بحضورها وأسرت عينيها بسماء عينيها، وقد ازداد تألق زرقتهما وهي تلتقي بزرقه حبات العقيق الدقيقة النائمة في وداعة على صدرها، وبتموهات درجات الوشاح المختار بعناية فائقة كأنه منسوج من خيوط عُزلت في حدقتها.

- تعالي يا ميرى. تعالي اجلسي مكاني هنا.

أفسح لها تيمور فتقدمت بخطوات جاهدت لتبدو ثابتة حتى جلست على المقعد الكبير، بينما استأذن أبوها وأمها وخرجا تاركين باب الغرفة مفتوحاً دون أن يكون ذلك عائقاً أمام سرية لقاءهما وحميميته.

عاد محمود ليجلس مرة أخرى في منتصف الأريكة وهو يتأمل مبتسماً عنادَ نظراتها الثابتة على الحائط المواجه كأنها لا تراه ولا تهتم بوجوده. لم يؤثر ذلك في معنوياته المرتفعة بعد أن داخله يقين عجيب أنه سيمضي ما تبقى من حياته مع هذه الفتاة دون غيرها. هذه الجلسة ليست لتحديد ما تم حسمه بالفعل لكنها فرصته ليُطمئن قلبه أنه أخيراً استطاع أن يختار لنفسه بنفسه، وأن ما اختاره وأصرَّ عليه أجمل بكثير من كل ما تقرر له ووافق عليه دون تفكير طوال حياته ظاناً أنه لا يحسن الاصطفاء.

مال نحوها بجسده قليلاً وهو يهمس بنبرة من يستسلم متجرداً من أسلحته ومعترفاً بهزيمته قبل حتى بداية المعركة:

- ها قد جئت إليك يا نعيمة، أقصد يا ميري، تمامًا كما أمرت.

ظلت مثبتة عينيها أمامها وهي تجيبه في اقتضاب متجاهلة توذده لها باسمها الأصلي:

- لم يكن أمرًا بل كان مجرد طلب.

اتسعت ابتسامته وهو يراها تفتح له بكلماتها الباردة هذه - دون قصد - بابًا يحتل منه قلبها ويورطها من حيث أرادت التملص:

- الطلب يمكن قبوله ويمكن رفضه بينما أنا لا أملك رفاهية الرفض. تمامًا مثل الأسير الذي لا يستطيع أن يرفض ما يأمره به أسرُه.

شعرت بقلبها يتخبط بجنابت صدرها من شدة الدق وكلماته هذه تتفد إلى مكان ضعفها وتهدم أول حصونها ببساطة شديدة. حركت عينيها ببطءٍ حتى التقتا بعينيه فاتسعت ابتسامته وهو يتساءل بصدق:

- ماذا يخيفك يا نعيمة؟ احكِ لي كل ما يدور بخلدك وثقي في أنني سأجيبك بكل صراحة.

تشجعت قليلًا. زفرت محاولة تهدئة اضطرابها قبل أن تسأله وهي تحاصره بعينيها:

- هل تذكر كيف تقابلنا أول مرة؟!!

- وهل يمكن أن أنسى أبدًا؟!!

تجاهلت نبرته الرقيقة وهي تستطرد في عنادٍ من يجازف بكل شيء في لحظة مصيرية:

- وهل تذكر ما قلته لك يومها؟! كان صحيحًا أليس كذلك؟!!

ضاقت ابتسامته وقد بدأ يفهم ما ترمي إليه. هتف مقتضبًا في حرج:

- بلى.

رفعت رأسها في انتصار وهي تسترسل وقد تضاعفت ثقتها ومعها ثباتها:

- لم يكن عسيرًا عليّ أن أفهم حقيقة الوضع. رأيته من قبل وأنا طفلة. لم يشرحه لي أحدٌ لكنني فهمته وحدي. رأيت العشق في عيني زوج خالتي الذي كان يحبها بكل قلبه بينما كانت هي لا تحمل له ولو منقال قطرةٍ واحدةٍ من بحر الوله الذي كان يضطرب بداخله. كانت تنفر منه ومن حياتها معه. لا يحبها سوى الأمل في الخلاص بينما كان هو لا يحبها سوى عودته إليها بعد كل فراق. الشعور

الطيب الوحيد الذي شعرت به نحوه هو شعورها بالذنب وتأنيب الضمير وهي تقابل كل هذا التقاني من أجلها بقلب من حجر، لا يلين له، دون أن يكون لها يد في ذلك.

كل كلمة تفوهت بها خنجرٌ يضربه في قلبه. تذكّر جرحه وخاف من إدراكها هذا الذي تخطى توقعاته. تتحنح محاولاً التخلص من جرحه واضطرابه قبل أن يتساعل:

- وما الذي يخيفك في ذلك يا نعيمة؟! تخشي أن تكوني مثل خالتك؟!!

- بل أخشى أن أكون مثل زوج خالتي!

اختنق صوتها بدموع غلبتها وهي تستفيض في عنادٍ وعيناها المغرورقتان مثبتتان في عينيه:

- أخشى أن أعلق قلبي بمن يصراً على أن يشغل قلبه بغيري. لا أريد أن أتزوج من رجل يستيقظ كل يوم ليفكر في امرأة أخرى بينما أنا لا يملأ خيالي سواه. لا أوافق على أن أكون خياراً ثانياً لك لأنك لم تستطع أن تحتفظ بخيارك الأول ولا أستطيع أن أكون مجرد دواء لجرحك أو وسيلة لمواصلت حياتك بينما أنا أنوي أن أجعلك كل حياتي. لن أقبل بذلك مهما حدث. حياة حزينة لا حب فيها أفضل لدي من حياة سعادتها وهمّ والحب فيها لا أحصل عليه إلا بالاستجداء.

صمتت تلتقط أنفاسها المتقطعة وقلبها يكاد يجن من فرط الدق وهي تترقب إجابته على صراحتها الجارحة بينما كان هو يتأملها مدهوشاً ومذهولاً. لا يتردد بداخله الآن سوى صوت واحد يتعجب من هذه الفتاة التي كان يظنها صغيرة لمجرد أنها لم تبلغ العشرين بعد! يا لجمالها وذكائها وفطنتها؟! متى كوّنت هذه البصيرة النافذة وكيف، رغم كل ما رآه فيها من قبل، لم يدرك أن رجاحة عقلها تفوق كل ما توقعه بكثير!

كان عليه أن يفيق من ذهوله ويتحدث. أدرك أنه أمام امتحان عسير لا يملك حياله سوى خيار واحد، أن يجتازه بنجاح ويظفر بعقلها كما ظفر بقلبها. قلبها هذا الذي رغم تعلقه البادي به لم يستطع أن يسيطر عليها ولا أن يحيدها عن اعتزازها بكرامتها قيد أنملة (25). عليه أن يشحذ ذهنه وذكاءه وأن يستجمع شجاعته ليقنع عقلها ثم يُطمئن قلبها حتى لا يخسرها إلى الأبد.

تحرك نحو طرف الأريكة الملاصق لها فأصبح قريباً منها بشكل أربكها، لكنها تماسكت بينما عيناها معلقتان بشفتيه كأن حياتها القادمة كلها مرهونة بالكلمات القليلة التي سينطقها الآن.

- اسمعيني يا نعيمة. كل ما قلته صحيح. لقد أحببت منيرة حباً لم أجربه قلبها وأوجعتني وجعاً لن تدركيه مهما وصفته لك. وهذا هو ما يجب أن يطمئنك لا أن يخيفك.

عقدت حاجبها في عدم فهم، فاستطرد محمود وعيناها تحتضنان عينيهما وتفيضان صدقاً يغمر قلبها فيطفيئ أخيراً نيرانه المستعرة:

- ما حدث لي مع منيرة جعلني أدرك كم هو قاسٍ هذا الشعور برفض من تحب لك ونفوره منك. اخترت معها ألمًا عظيمًا لا أستطيع أبدًا أن أتحمّل فكرة أن أكون أنا السبب في أن يصاب به غيري. على الأقل منيرة كانت مرغمة ومغلوبة على أمرها، لم تختار أن تتزوجني وقلبها معلق بغيري، لكن أنا لن يكون لي أي عذر إن فعلت ذلك. صدقيني يا نعيمة عندما أقول لك إنني لم أتحدث إلى أبيك إلا بعد أن تأكدت أنني أريدك أنتِ دون سواكِ بكامل إرادتي، بعد أن وجدتكِ تستحوذين على قلبي وعقلي وتتربعين على عرشهما كأن لم يكن قبلك أي شيء أو أي أحد. بعد هذا اليوم في المدرسة أدركت أنني لم أكن أحب منيرة بل كنت فقط مسحورًا - لأسباب كثيرة سأحكيها لك فيما بعد - بقناع اختارت هي أن تخفي به وجهها الحقيقي. وما إن سقط هذا القناع حتى شفيت من هذا المرض ربما لأنني كنت أستعذب التوهم به بينما لم أكن مريضًا حقًا. أنا أريدك يا نعيمة لأنني نسيبتُ جرحي بالفعل لا لأدويه بكِ، ولأن حياتي لن تكتمل بدونك وليس لأستعين بكِ على مواصلتها.

كانت تستمع إليه مأخوذة وغير قادرة على تصديق ما يحدث هذا! هل يمكن أن تغدق علينا الحياة بأكثر مما نحلم؟! وهذه الدنيا الفسيحة هل يمكن أن تسع كل تلك السعادة كما يسعها قلبها الصغير الذي غافلها وأحبَّ هذا الرجل؟! هذا الرجل الذي أبصر حقيقتها في الوقت الذي لم يرها فيه أحد. الذي أوقف حياته كلها من أجلها عندما تجاوزها الجميع، الذي أهداها نهرًا عندما لم تكن ترجو سوى قطرات قليلة تروي بها ظمأها.

كم لان وارتجف قلبها عندما قال بشكل عارض «لأسباب كثيرة سأحكيها لك فيما بعد»، كأنه واثق من أن جلستهما تلك ستتكرر كثيرًا، ستتكرر كل يوم بعدد أيام عمريهما. كم ترجو ذلك من كل قلبها لأنها تتوق إلى أن تحكي له هي أيضًا. أخيرًا وجدت من تتوق إلى أن تقضي له بكل ما في قلبها من مخاوف، وحتى تهويمات احتلت نفسها ولازمته منذ أيام الفواجع والفقدان القديمة وحتى الآن، دون أي حرج من نظرتة لها. أخيرًا وجدت من تحكي له دون خجل عن آيسل، ندبة قلبها التي لا تتدمل أبدًا، صديقة عمرها التي تجاوزها الجميع إلا هي، والتي تجعلها ذكراها تنتشبت بكل من حولها بشكل يصل بها أحيانًا إلى درجة ما من درجات الجنون.

اطمأن قلبها وغمرته سكينَةٌ أعادت لها توازنها بعد اختلال أفسد أيامها الماضية. توردت وجنتاها ولاحت لأول مرة ابتسامة حيية على شفثيها فأعادت جريان الدماء في عروقه التي كادت أن تجف وهو ينتظر ردة فعلها ومدى تقبلها لما صدق في قوله من كل قلبه. كان يتأمل عينيها المعلقتين به وإحساس جديد لم يعرفه من قبل يستعمر خلاياه ويوطن نفسه بها توطيئًا لا رحيل منه أبدًا. تتمم متسائلًا في نبرة رقيقة بعد أن رأى الموافقة والتسليم في عينيها دون أن يحتاج إلى أن تتنطق بهما:

- هلا سمحت لي بأن أناديك من الآن فصاعدًا باسمك الحقيقي يا ميري!؟!

ازداد تورُّد وجنتيها وهي تقول في استحياء:

- كنت سأطلب منك ذلك.

هل حقًا وجد السكينة التي لم يذق لها طعمًا من قبل؟! هل وجد من تحب نفسه تلك التي لا يعرف هو كيف يحبها أو حتى يحترمها كما ينبغي؟! كم يشاق إلى هذا اليوم الذي يفتح فيه عينيه وهي بجانبه ثم يفتح لها قلبه حاكياً لها دون خجل أو مواراة عن خيباته ولحظات ضعفه وتفقهره، عن مشاعره المتناقضة المتناحرة نحو كل من وما حوله. نحو أبيه وأمه وأخويه وأخته. حتى مشاعره نحو عمله ونحو المسجد والوقف والبيت سيحكىها كلها منحياً خجله منها ومن نفسه جانباً، ثم سيصمت ويستمع لها وهي تحكي له عن مخاوفها تلك التي أصبح يوقن أن ما أفصحت به عنها ليست سوى قشور رقيقة لأعماق لا نهاية لها. كانت تسعده فكرة أنها تفهمه، لكنه تفاجأ واندعش عندما وجد أن سعادته تضاعفت في اللحظة التي أدرك فيها أنه هو أيضاً يفهمها كما تفهمه!

نظر محمود في عيني ميري وشعور عميق بالامتنان يتمدد بداخله لأن اليقين الذي راوده منذ قليل بأنه سيمضي ما تبقى من حياته معها كان حقيقياً تماماً.

(لمحة)

ارتمت ميري جالسة على أريكتها المحببة أمام النافذة في غرفة الجلوس، فأسرعت رقية تترك الأريكة المجاورة وتقف لتجلس بجانبها ملتصقة بها في تودد لم يؤثر فيما تتظاهر به ميري من قسوة وعبوس. طوقت رقية جسد أختها بذراعيها وهي تهتف مندلة في توسل:

- ستأتين معي يا ميري إلى الخياطة أليس كذلك؟!

التفتت ميري نحوها بعينين مندهشتين وهي تجيب في استنكار:

- يا لبجاحتك يا رقية! أقول لك إنني لست راضية عن زيجتك تلك فلا يكون ردك سوى «تعالى معي إلى الخياطة»!

أسندت رقية رأسها على كتف ميري وهي تتمم مزيدة جرعات تدللها الذي تعرف جيداً أن أختها لا تستطيع الصمود أمامه:

- يا ميري انتهينا من هذا الكلام وستتم الزيجة. حتى أبي وافق أخيراً. وأمي كما تعلمين لا تترك البيت كثيراً ولا تحسن التعامل في هذه الظروف. فهل ترضين أن تتركي أختك وحدها كاليثيمة أثناء تجهيزات زواجها وعرسها؟!

تحشرج صوت رقية وهي تتطق بسؤالها ثم رفعت رأسها ورمقتها عن قرب بعينين تنذران بالدموع. تأملت ميري زُرقة عينيها الداكنة كزرقة البحر وقد لاحت فيهما تحت ضوء الشمس ضلالاً بنفسجية رائعة. كأنها تراها لأول مرة! كبرت صغيرتها وأصبحت آيةً في الجمال؛ قوامها بديع متناسق، وشعرها البني الناعم وبشرتها البيضاء النضرة، كم يتناسقان مع زُرقة عينيها الساحرتين!

- أمري إلى الله! سأتي معك.

هتقت ميري في استسلام الهزيمة دون أن يجد الرضا طريقه إلى قلبها. عادت رقية تسند رأسها على كتفها مرة أخرى في امتنان وسعادة وهي تضغط بذراعيها أكثر حول جسد أختها لتزيد حزنهما حميمية.

يا الله كيف تفقد كل عنادها وصلابتها أمام رقية دون غيرها من البشر؟! حتى محمود الذي يسكن في قلبها مكاناً لم يسكنه أحدٌ غيره، لا يمكن أن يجعلها تتراجع عن موقف اتخذته حياله إلا عندما تتال ما تريد! ابتأها نفسهما لو واحدة منهما فكرت في المستقبل أن تفعل ما فعلته رقية الآن لقاطعتها حتى تتراجع عن زيجة كنتك، وإن لم تتراجع، ربما كانت ستستمر في مقاطعتها عقاباً لها طوال العمر، لكن رقية لا! لا تستطيع أن تفعل معها ذلك أبداً! تمر السنون ولا شيء فيما تحمله لها بداخلها يتغير. تخاف عليها حد الهلع وفي نفس الوقت لا تتحمل رؤية دموعها. كانت في الماضي تتحامل على نفسها عن طريق حلول ترضي الصغيرة وتنال بها شيئاً من الاطمئنان عليها حتى وإن أرهاقها ذلك. أما الآن، بعد أن كبرت هكذا وسارت ملازمتها ومراقبتها والتحكم فيها طوال الوقت أمراً مستحيل، فلا يسع ميري سوى أن تتبع الحلول التي ترضي الصغيرة أيضاً لكنها لا تمنحها إلا أقل القليل من الاطمئنان.

- أبيه محمود وصل!

هتقت رقية في سعادة وهي تعتلد في جلستها عندما دخل محمود من باب الشقة. دلف إلى غرفة الجلوس وأسرع يجلس على الأريكة الأخرى مبتسماً في ترحيب. خلع طربوشه ووضع على الطاولة وهو يهتف في سرور واضح:

- أهلاً ست رقية! عاش من شافك! رحم الله زماناً كنتِ تبيتين عندنا بالأسبوع!

أطلقت رقية ضحكة عالية ولم تستطع ميري أن تمنع نفسها من الابتسام رغم عبوسها.

- لا تسترجع هذه الأيام يا أبيه من أجل مصلحتك. كنت أكرهك وقتها لأنك اختطفت مني ميري وجعلتها تعيش بعيداً عني.

- بعيداً عنك يا مفترية! كنتِ شبه مقيمة عندنا!

ارتفع صوت ضحكهما بينما اتسعت ابتسامة ميري أكثر وهي ترمقه في امتنان لا يسعها إلا أن تشعر به نحوه كلما ذكرت تلك الأيام. كم كانت تخجل منه بسبب التصاق رقية بها وإصرارها على ملازمتها حتى بعد زواجهما. وكم كانت تخجل أيضاً لأنها بينها وبين نفسها كانت سعيدة بذلك بل وتودُّ لو تنتقل رقية للإقامة معها وتحت عينيها حتى تظل مطمئنة عليها، ورغم أن ذلك لم يحدث بالطبع إلا أنه كما قال محمود، كانت رقية شبه مقيمة عندهما وكان هو في غاية اللطف والترحيب

بذلك، لم يبدي ولو لمرة واحدة شيئاً من التذمر أو الاعتراض أو حتى قلت سعادته بالصغيرة وتواجدها حولها ذرة واحدة. كان متقهماً وصبوراً بدرجة لم تتوقعها ميري، أوقعها في حبه أكثر وجعلها تشعر أنها مدينة له وممتنة فقط لمجرد وجوده في حياتها.

لكن ما لا تعرفه ميري هو أن محمود لم يكن يعد نفسه يصنع لها شيئاً بما فعله ذلك، بل بالعكس، كان هو ممتناً لها لأنها بدخولها حياته لم تُبرئ فقط ببلسمها أكبر جروحه وتزيل آثاره بالكامل، بل إنها أيضاً أجادت عليه بمن يملأ فراغاته الأخرى. بمن يشعره - مثلما تفعل هي - بأن هناك من هو دائماً في حاجة إليه وبأن وجوده يصنع فرقاً في حياته، بمن يكون بالنسبة له كما كانت إحسان بالنسبة لإبراهيم.

تلقت محمود حوله متسائلاً:

- أين البنتان؟! -

- تحت عند جدتهما.

رفع رأسه في دهشة ثم هتف مداعباً:

- منذ متى وأنتِ تتركينهما بمفردهما تحت بعيداً عن عينيك؟! -

رمقته في شيء من اللوم على نبرة السخرية التي لاحت في سؤاله لكنها أجابت ببساطة:

- عمتهما تحت. تلعبان مع ابنتها وابنتها. وأنا أطمئن عليهما عندما تكونان مع إحسان. كما أنني كنت أريد أن أجلس مع رقية بمفردنا. (ثم بنبرة مبتورة لا تليق بما تقوله) بارك لها!

لاح في قسامات محمود شيء من التوجس وهو يتساءل محاولاً التظاهر بعدم المعرفة:

- خيراً؟! علام؟! -

- ستتزوج.

- ممن؟! -

تساءل وهو يتمنى في قلبه أن يسمع إجابة غير التي كان يعرفها، لكن خابت أمنيته عندما هتفت رقية بصوت عالٍ تعمدت أن تملؤه بالزهو لتخفي عدوانية من يتوقع هجومًا:

- الحاج جلال أبو زيد.

صمت محمود لوهلة أمام الخيبة التي انتابته قبل أن يتساءل في هدوء:

- ألم يرفض عمي تيمور هذا الأمر من شهر تقريباً؟!

فأسرعت رقية تهتف وقد علا صوتها أكثر وتجلت العدوانية في نبرته المدافعة:

- كان خطأ منه. لكننا تحدثنا في الأمر وأصلحنا الخطأ. قلت له إنني موافقة على الزواج من الحاج جلال بل وأريد الأمر بشدة.

تبادل محمود وميري نظرات مضطربة. لمح في عينيها نظرة توّسل كأنها ترجوه أن يحاول التأثير على رقية بمكانته الكبيرة لديها وحبها له لنتراجع. ربما كان ذلك بالفعل هو آخر أمل لها، ولأبيها المسكين الذي وافق مرغماً نزولاً على رغبة ابنته. أختها الصغيرة المدللة التي تعرف جيداً أنها عاشت طوال عمرها معتادة على أخذ ما تريده ولا تقبل بغير ذلك أبداً، لكنها لم تتخيل قط أن يصل الأمر إلى هذا الحد؟! أن يتضافر عنادها مع نزقها (26) وانبهارها القديم بثناء جودت باشا مروّوس أبيها، والحياة المرفهة التي تعيشها الهانم زوجته، ويدفعونها لأن تلقي بنفسها في زيجة كتلك!

تتحنح محمود محاولاً شحذ كل الهمة التي يملكها إزاء موقف مثل هذا، والذي لولا نظرات ميري المتوسلة وحبه الشديد لرقية لكان أثر تجنبه كما يفعل عادة.

- هذا الرجل يكبرك بثلاثين عاماً يا رقية.

انبرت رقية تدافع في عنف:

- الرجل لا يعيبه عمره.

- نعم لا يعيبه عمره، لكن ما الذي يمكن أن يجعل رجل في الخمسين، متزوج وعنده أبناء وبنات كبار، يرغب في الزواج بمن هي في العشرين؟!

رفعت كفيها وهي تقول في استهانة:

- أحبّتي! أصبح مهووساً بي!

- وأنت هل تحبينه؟!

- يكفيني أنه يحضر لي كل ما أريد وأكثر. (ثم في حماس شديد) هل رأيتم البيت الذي اشتراه لي؟! سرايا لا تقل عن سرايا الألفي!

تملمت ميرى من سيرة عائلة الألفى وما تستحضره في المخيلات من حكاية محمود القديمة مع منيرة، فالبرغم من أن علاقته لم تنقطع بابنيه منها قط، بل أصبحت أكثر استقراراً منذ أن تزوج وانصرف قلبه عنها تماماً، إلا أن ذلك لم يمنع ميرى من الشعور بعدم الراحة بل وبشيء من الغيرة كلما جاءت سيرتها أو سيرة ما يخصها.

على عكسها هي، لم يبدُ على محمود أي تأثير بسيرة سرايا الألفى، بل همَّ بأن يجيب رقية عندما ارتفع فجأة صوت زعيق متبادل على السلم ميزوا فيه صوتي حامد وإبراهيم مصحوبين بصوات زبيدة وإحسان.

أشارت ميرى لرقية حتى تظل مكانها قبل أن تلتحق بمحمود الذي أسرع يركض على السلم نحو بسطة الطابق الأول. وقفت مستندة على السور الحديدي تشاهد في قلق حامد وإبراهيم وهما يتبادلان الصراخ وقد وقفت زبيدة بينهما تحاول إبعادهما عن بعضهما البعض، بينما وقفت بجانبهم زينب جامدة وإحسان تبكي في دعر أمام باب الشقة المفتوح محاطة بالأطفال الأربعة المندهشين.

- أنا لا أقبل بهذا الانحلال في العائلة! ليس بعد كل ما فعلته لبناء كل ذلك والحفاظ عليه تأتي أنت لتهدمه وتلطيخ نصاعة منظرنا أمام الجميع من أجل هذه المنحلة!

- احذر يا حامد! من تتحدث عنها تلك ستكون زوجتي!

- على جثتي يا إبراهيم أن تدخل مثل هذه بيتي!

- ليس بيتك يا سي حامد! إنه بيتنا جميعاً.

انضم محمود لأمه في الوقوف بينهما في اللحظة التي دفعت فيها زبيدة حامد في صدره حتى كاد أن يرتطم بباب الشقة خلفه، ثم التفتت نحو إبراهيم تضربه على كتفيه وهي تصرخ غاضبة محاولة السيطرة على دموعها حتى لا تضعف همتها:

- لا بيتك ولا بيته! هذا بيت الشيخ سلامة الذي لو عاد الآن وراكما هكذا لسقط ميتاً بسببكما! بعد كل هذا العمر الذي عشناه محترمين وسط الناس تريدان أن تفضحانا بشجاركما!

أسرع محمود يجذب إبراهيم من كُم حُلته نحو السلم مستحثاً إياه على الصعود:

- تعالْ معي إلى شقتي يا إبراهيم.

حاول إبراهيم التملُّص منه هاتفاً في غضب وضيق:

- اتركني يا محمود لا أريد البقاء هنا.

- لن أتركك حتى تهدأ! هيّا تعال.

قالها في حسم وهو يدفعه أمامه فاضطر إبراهيم لأن يصعد معه صاغراً بينما تبعتهما إحسان ممسكة بالأربعة أطفال.

أسرعت رقية تصطحب الصغار نحو غرفة ميرى ومحمود بعد أن تخرجت من أن تبقى معهم أثناء مناقشة ما حدثت أنه أمرٌ حساسٌ.

جلست ميرى على أريكتها تحت نافذة غرفة الجلوس وبجانبيها إحسان بعد أن هدأت قليلاً وكففت دموعها، بينما جلس إبراهيم على الأريكة المجاورة بجانب محمود الذي هتف في دهشة:

- ألم نتفق على أن يظل كلٌ منكما في حاله وألا تتبادلا آراءكما السياسية والدينية والثقافية وعم السلام بينكما وكففتما عن الشجار! ما الذي حدث لتعودا مرة أخرى؟! (ثم أخفض صوته مبتسماً) من هذه التي ستكون زوجتك؟!!

أجابته ميرى بتلقائية:

- بثينة.

التقت محمود نحوها في دهشة ثم عاد نحو إبراهيم هاتفاً في غيظ:

- ما شاء الله! حكيت لها ولم تحك لي!

يا للسخرية! كان يتمنى أن يكون تعلق إبراهيم بإحسان ثلاثياً ليكون له مكاناً فيه، وها هو قد أصبح ثلاثياً بالفعل لكن مع ميرى وليس معه! لكن هيهات أن يؤثر ذلك في قلبه الطيب حتى وإن انتابته القليل من الغيرة الحميدة. مشاعره نحو ثلاثتهم كما هي لم تتغير بذلك بل بالعكس، ربما يكون قرب ميرى منهما و صداقتها الوطيدة لإحسان بسبب تماثلهما في العمر قد أثلج صدره وطمأنه على استقرارها في عائلته رغم سلوك أمه الجاف معها.

استطرد محمود متجاوزاً الأمر:

- لا يهم. قل لي أين التقيت بها؟!!

فأجابه إبراهيم بشيء من خجل الأخ الصغير نحو أخيه الكبير رغم أنه صار رجلاً في الثالثة والثلاثين من عمره:

- التقيت بها في منزل الأستاذ موافي رحمه الله.

هتف محمود متذكراً:

- أليس هذا هو المحامي الوفدي الذين كنتم تجتمعون في بيته؟!!

- بلى هو. بثينة هي ابنته الوحيدة.

- ألم يتوفاه الله من عدة أشهر؟!!

- بلى وهذا هو ما دفعها للعمل الذي يصفه حامد بالانحلال. (ثم مدافعاً في حماس) لكنني أؤكد لك يا محمود أنه عمل شريف. أنا بنفسني دبرت لها عملها الصباحي عندنا في الجريدة وكنت أرافقها في عملها المسائي كل ليلة لأكون مطمئناً عليها.

تقاجاً محمود من كم المعلومات الجديدة الغريبة التي قذفها إبراهيم في وجهه دفعة واحدة. ابتسم باطنه وإن لم يبدُ ذلك على وجهه. ها هو أخوه الصغير بعد كل هذه السنوات التي قضاها عازباً صامداً أمام توسلات أمه حتى يتزوج. ها هو يجلس أمامه واقفاً في الحب من رأسه إلى قدميه كما بدا عليه وهو يحكي له عن تلك الفتاة الوديدة العنيدة ابنة المحامي الوفدي ذي الشهرة المتوسطة الذي كان ممتلئاً بالحماسة كأنه شاب صغير مثلهم. كانوا يجتمعون في منزله حيث كان يسمح لابنته الوحيدة بالمشاركة في تلك الاجتماعات وفي العمل السياسي بأقل قدر ممكن. كما أنه دفعها للدراسة في الجامعة عندما عمل رئيسها «أحمد لطفي السيد» وعمداء الكليات على السماح للفتيات بالالتحاق بالجامعة سرّاً، حتى يستقر الوضع ويصبح أمراً واقفاً أمام المعارضين والحكومة.

وبعد وفاة أبيها وتصفية مكتبه والكثير من ممتلكاته بسبب الديون، لم تجد «بثينة» بداً من ترك الجامعة والعمل نهاراً في وظيفة إدارية أوجدها لها إبراهيم في الجريدة التي كان يعمل بها، ومساءً في عزف البيانو والغناء الكلاسيكي في أحد المطاعم الراقية؛ وهي الهواية التي حرص أبوها على تزكيته من خلال شراء بيانو وإحضار مدرس موسيقى لها مرة في الأسبوع منذ طفولتها. لا يعرف إبراهيم متى وقع في غرامها؟! هل أثناء الاجتماعات التي كانت تتعقد في بيتها وكانت تشارك هي فيها بأرائها الفصيحة ونبرتها العنيدة؟ أم أثناء محاضراتها التي كان يحرص على حضورها معها بحجة رغبته في عدم نسيان ما تعلمه بينما السبب الحقيقي كان رغبته في التواجد حولها أطول وقت ممكن؟! أم أثناء أزمة وفاة أبيها وتراكم ديونه واضطرارها لمواجهة كل ذلك مع أمها فقط لأنها كانت طفلة وحيدة لا إخوة لها ولا حتى أعمام أو أخوال، لذا وجدت نفسها فجأة تقف بمفردها أمام تعقيدات الحياة بعد وفاة أبيها.

حكى له إبراهيم كم حاول في البداية أن يساعدها بشكل مباشر لكنها رفضت بشدة في إباء أزد حبها بداخله أضعافاً. انتقل لمحاولة المساعدة بشكل غير مباشر فعرض عليها الزواج حتى يصبح بمقدوره أن ينفق عليها هي وأمها دون حرج، لكنها رفضت في عنادٍ وكبرياء أذاب قلبه وأصابه بالندم خاصة عندما أحسّ أنه جرح كرامتها بطلبه هذا، وأنها قد تتبعد عنه بسبب ذلك رغم حبها له؛ فأسرع يحاول تصحيح خطئه بأن أوجد لها وظيفة النهار كما حرص على مرافقتها لوظيفة المساء

وانتظارها حتى تنهي فقرتها ثم العودة معها حتى منزلها. وعندما اطمأن إلى استقرار وضعها تجرأ وعرض عليها الزواج مرة أخرى فقبلت على الفور دون تفكير. قالت له إنها كانت تنتظره وتخشى ألا يقدم على ذلك مرة أخرى بعد رفضها الأول، لكن إبراهيم كان قد أحبها حباً أسقط كل الحواجز بينهما وجعله يفهمها ويفهم طبيعتها الحرة وتفكيرها العنيد فزاد حبه لها وتعلقه بها.

- اسمع يا محمود، سأتزوج بثينة سواء رضي حامد أم لم يرض. منذ سنوات وهو ينظم كل شيء كما يحلو له ويفعل بنا كل ما يشاء. تركنا له شؤون البيت وشؤون الوقف بإرادتنا حتى لا نُغضب أبانا ولأن الأمر لا يستحق الخلاف والشجار.

تركنا له شؤون البيت والوقف بإرادتنا؟! هل حقاً ترك هو كل شيء بإرادته مثلما فعل إبراهيم؟!!

خبطته تلك الخاطرة فجأة لكنه اضطر أن يتجاوزها حتى يتابع إبراهيم وهو يستطرد في عناد:

- لكن الأمر يجب أن يتوقف عند حياتنا الشخصية. وهذا النظام الذي يتحدث عنه والبيت، سأتركهما له فليشبع بهما.

نهض إبراهيم منفعلاً فأسرع محمود يستوقفه متسائلاً:

- انتظر! إلى أين أنت ذاهب؟!!

- سأقيم عند إحسان وعبد المجيد حتى نتزوج أنا وبثينة.

- وما التغيير الذي سيحدثه هروبك هذا؟! ستتزوجها وتعودان لتسكنا في شقتك هنا فوق وتتجدد المشاكل!

صمت إبراهيم للحظة قبل أن يقول في إصرار:

- لن أعود يا محمود. سأتزوج بثينة وأقيم معها هي وأمها في شقتهما.

اتسعت حدقتنا محمود في دهشة لا تخلو من إعجاب بجرأة إبراهيم وإقدامه في الإصرار على نيل ما يريد مهما كلفه ذلك. ترى هل كان يستطيع أن يفعل مثله لو كان تعرّض لنفس موقفه؟ صحيح أنه أصر على الزواج بميري أمام ضيق أمه، لكن شتان بين عدم ارتياح زبيدة للخواجية ورفض حامد لمن يعتبرها منحلة! لو كان حامد قد عارض زواجه من ميري بنفس الطريقة، هل كان يملك ما يكفي من الشجاعة ليفعل ما يفعله إبراهيم الآن حتى يظفر بها؟!!

تجاهل محمود أفكاره محاولاً التركيز في تلك اللحظة على مساعدة ميري في محاولاتها لإثائه عن قراره هذا، لكن إبراهيم كان قد بلغ به العناد مبلغه. تركاه يرحل مع إحسان التي لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتهاج بأن إبراهيم سيقوم عندها لبعض الوقت. هي أصلاً لم توافق على الزواج بأعز

أصدقائه عبد المجيد من بداية الأمر إلا من أجل أن تكون قريبة منه. لامتها ميرى بينها وبين نفسها على موقفها هذا الذي اعتبرته متخاذلاً وأنانياً. ألا يكفيها رحيل إحسان بسبب زواجها بعد أن وجدت أخيراً من تملأ فراغ الصداقة الذي خلفته آيسل؟! أيرحل إبراهيم أيضاً الذي كانت تظن أنها في مأمن من فراقه لأنه رجل سيتزوج ويبقى معهم؟! شعرت بالحنق الشديد. أكان ينقصها حامد هذا بعناده وغبائه ليزيد من شعورها بعدم الأمان؟!!

تعرف أن هناك شعوراً ما بعدم الراحة متبادلاً بينها وبينه هو زينب من أول يوم، لكنهما لا يتعرضان لها ولا هي تتعرض لهما أبداً. لم يؤثر اقط على زواجها وحياتها بشكل مباشر. لكن الآن، كم ألمها حامد بما فعله هذا حتى وإن لم يقصدها هي به، لكن حتى نيته تلك البعيدة عنها لم تمنعها من الشعور نحوه بغیظ شديد. لم تكن تعلم أن ما ألمها به حامد دون أن تكون هي هدفه الأول سينقلب بعد أقل من سنتين إلى أضعافه عندما تضحي هي ومحمود ضحيته بشكلٍ شبه مباشر.

- ربيع ١٩٣٤ -

القاهرة

(١)

كبر البيت وشاقت جدرانه.

هل حقاً كبر أم أصابه الحزن بسبب ما حل بربه وصاحبه؟!!

- يا أم شكرية.. أم شكرية.

توقف عقل ميرى عن التفكير وكفت يداها عن رصّ الأكواب الزجاجية في الصينية النحاس الدائرية. تحركت ببطءٍ تسبقها بطنها المنفوخة نحو نافذة المطبخ. أطلت منها فوقعت عيناها على جارتها التي وقفت تنتظر أمام باب منزلها وعيناها معلقان نحو الأعلى فما إن ظهرت ميرى حتى أسرع تتهتف:

- أنا خبزت كعك من أجل زفاف ابنة أختي. أرسلني شكرية وبرلنتي لتأكل منه.

- تعيشين يا أم رضا، حاضر.

عادت تتحرك بخطوات ثقيلة. حملت الصينية واتجهت بها نحو باب شقتها المفتوح فاجتازته وبدأت تهبط السلالم ببطء مستتدة على السور الحديدي القصير.

لا لم يشخ البيت. لم يكن كذلك قبل يومين عندما تقاجأوا بأهل الشارع يدخلون عليهم حاملين الشيخ سلامة بعد أن سقط مغشياً عليه في المسجد. أسرعوا بإحضار الطبيب الذي فحصه وأصدر حكماً

نهائياً قلب حياتهم كلها رأساً على عقب. يجب أن يكف الشيخ سلامة عن مقاومة مرضه وأن يتوقف عن العمل وترك المنزل بل وحتى عن الصلاة واقفاً، وأن يلزم الراحة طوال الوقت.

لم يكن البيت كئيباً هكذا قبل أن يحدث كل ذلك. هذه الذكّانة التي كست جدرانه فجأة ليست إلا حسرة تتضح من عروقه ومسامه. لم يكبر البيت. هي التي كبرت. احتلت شفيتها ابتسامة ضيقة عندما اقتحمتها هذه الفكرة فجأة. نظرت إلى نفسها متعجبة! متى ركضت السنوات هكذا حتى وصلت إلى هذا المشهد؟! حيث هي امرأة كبيرة ناضجة، تحمل صينية أكواب وتهبط سلالم بيت أضحت جزءاً منه منذ أن أصبحت زوجة وأم لشكرية ثم برلنتي. وها هي تحمل بين أحشائها الابن الثالث. أم تراها ستكون الابنة الثالثة وتستمر هذه اللعنة - التي لا يد لها فيها ولا تستطيع حتى فهمها - في تمرير حياتها وتعكير صفو علاقتها بحماتها، التي لم يكن ينقصها سوى هذا الأمر لتكتمل أسباب جفائها معها وتحفظها عليها.

وجدت باب شقة حميها مفتوحاً كالعادة. الصلاة خالية. تملأها أصوات الضيوف المتحلقين في تكديس حول فراش الشيخ سلامة في غرفته المغلقة عليهم، بينما كانت حماتها تجلس مع زينب في غرفة إحسان. إحسان التي ما إن تزوجت وتركت البيت منذ أكثر من عشر سنوات حتى اكتمل استرجاع زينب لحظوتها عند زبيدة. عادت تتربع على عرش السيدة الثانية للمنزل بعد أن كانت قد فقدته يوم دخلت منيرة شارعهم محمولة في تختروان كالأميرات.

انقضت الغيوم التي كانت تعكر سماء حياتها دفعة واحدة! رحلت منيرة متبوعة بلعنات زبيدة وابتعد معها ابناها لا يزوران بيتهم إلا لماماً فعاد محمد ليتربع على عرش الأحفاد، خاصة بعد أن كبر واشتد عوده وتقدم في دراسته بالأزهر سائراً على نفس خطى أبيه ومبشراً بقدرة فذة على تحمل إرث الوقف. عادت زينب تحتل مكان الصدارة لدى حماتها في اطمئنان بعد أن تراكمت أسباب أخرى لصالحها مثل زواج إحسان ورحيلها وزواج محمود من تلك «الخواجاية» التي لم تتقبلها زبيدة، وأخيراً «خلفتها» التي اقتصررت على البنات فقط فظل محمد محافظاً على حظوته دون أدنى منافسة.

تتأذى إلى سمع ميري صوت ابنتيها وهما تعبتان مع ابن وبنات إحسان بأدوات المطبخ حيث كانت تقف أمهما تنتظر غليان الماء في البراد الكبير. كانت شاردة عنهما تماماً وعن كل ما حولها حتى إنها لم تنتبه لدخول ميري إلا عندما هتفت في استغراب وهي تضع أمامها صينية الأكواب:

- ماذا يشغلك يا إحسان!-

رفعت إحسان نحوها عينيّن مغممتين بالقلق وهي تجيب بصوت منخفض:

- إبراهيم سيأتي الآن ليزور أبي.

تهللت أسارير ميري وهي تهتف غير مصدقة:

- حقاً؟!.. سيفرح عمي كثيراً بذلك!

- نعم أعرف. لكنني أخشى أن يأتي حامد فجأة ويجده هنا فينشاجران.

- لا تقلقي حيال ذلك. لقد سافر حامد في الصباح للاتفاق على بيع محصول أرض الوقف، ولن يعود قبل المساء بل وربما يبيت هناك.

- وزينب؟! بالتأكيد ستقول له عندما يعود!

مطت ميري شفيتها في لامبالاة:

- لا يهم. حتى إن عرف، فهو لن يجرؤ على مصادمة عمي سلامة أو عمتي زبيدة، خاصة في مثل هذه الظروف. المهم أنه لن يعود وإبراهيم هنا بإذن الله.

تفتت إحسان الصعداء وهي تصب الشاي في الأكواب عندما سمعا فجأة إبراهيم يناديها بصوت هامس مضطرب من الصلاة. ألقت إحسان البراد الكبير في لهوجة حتى كاد أن ينقلب وينسكب لولا أن تلقته ميري. أسرع تركض نحو الخارج لتطمئنه بأن حامد غير موجود بينما حملت ميري صينية الشاي وتحركت بنفس خطواتها الثقيلة حتى لحقت بها. ابتسمت متأثرة من تلهف إحسان وهي تلقي بنفسها بين ذراعي إبراهيم كأنها لا تقطن معه في نفس الشارع ولا تراه كل يوم تقريباً! لكنها تعرف جيداً في قرارة نفسها أن حضنها هذا هنا في بيت طفولتهما وصباهما يعني لهما الكثير، خاصة بعد أن حُرما منه خلال العامين الماضيين.

رمق إبراهيم ميري مبتسماً وهو يداعبها قائلاً:

- كيف حالك يا أم شكرية؟ وكيف حال «المفعوص» الصغير؟

اتسعت ابتسامتها وأجابت كاتمة دموعها:

- بخير الحمد لله. لا ينقصنا سواك والله.

ضاقت ابتسامة إبراهيم قليلاً. أراد أن يقول لها إن الأمر ليس بيديه لكنه صمت لأنه يدرك أنه لا ضرورة لقول ذلك. هي تعلم كل شيء لأنها عاشته معهم لحظة بلحظة.

انتبه إبراهيم عندما انفتح باب غرفة إحسان فجأة وخرجت منه زبيدة تركض نحوه متلهفة حتى أخذته بين ذراعيها. انكب هو أيضاً على يديها يقبلهما تحت أنظار زينب التي دلفت نحو الصلاة خلفها ووقفت تراقبهما بنظرات حيادية، بينما أطلقت إحسان العنان لدموعها على عكس ميري التي حافظت على ثباتها رغم تأثرها الشديد.

- ادخل لأبيك. دخلت عليك عليه سترد فيه الروح.

قالت زبيدة وهي تمسح دموعها قبل أن تناوله ميرى صينية الشاي ليدخل بها.

تحرك إبراهيم بخطوات مضطربة نحو باب غرفة أبيه المغلق. تردّد للحظة قبل أن يمد يده ويفتحه ببطء. ساد الصمت في الداخل للحظة قبل أن ترتفع تهليلات الرجال ما إن وقعت أعينهم عليه، بينما أسرع الشيخ سلامة يعتدل بقدرة وعنفوان من لا يجلس في فراش المرض كأن «روحه قد ردت فيه» بالفعل بروية إبراهيم كما قالت زبيدة.

(٢)

لو عرفت ميرى أن هذه البقعة بالذات على أريكة غرفة الجلوس كانت المفضلة لدى منيرة ثم أصبحت كذلك أيضاً لدى محمود في الأشهر التي قضاها متوحداً بعد الطلاق، لما اتخذتها مكاناً محبباً تؤثره دائماً في جلساتها الممتدة، لكن محمود لم يخبرها بذلك كما لم يخبرها قط أن الجرامافون الموضوع قريباً من جلستها تلك كان أول هدية يحضرها لمنيرة. تركها تنتعم بجهلها عندما لاحظ تعلقها بالجلوس هناك بجانب نافذة غرفة الجلوس فلم يشأ أن يعكر صفاء مزاجها ويحرمها من شيءٍ أزد ارتباطها ببيتها الجديد.

كم تغمرها السكينة وهي مستقرة في تلك البقعة!

تابعت عيناها شكرية وبرلنتي حتى اطمأنت إلى دخولهما بيت جارتهما وإلى أنهما لم تذهبا لتلعبا مع الأطفال في الشارع، بينما أذناها مأخوذتان بالغناء المسترسل من الأسطوانة الدائرة خلفها. لم يحزنها شيءٌ يوم زواجها غير حرمانها من الدندنة مع شاعر مقهى شارعهم، وكادت أن تحن من الفرحه عندما تفاجأت بهذا الجرامافون في منزلها الجديد، كأن الله عوّضها به وبمحمود الذي لم يتوقف يوماً عن أن يحضر لها الأسطوانات الجديدة لكل المطربين المعروفين متجاهلاً ضيق أمه وحامد بهذا الأمر.

وها هي تعود لتجلس هنا مرة أخرى بعد رحيل إبراهيم وإحسان. صوت أم كلثوم يشدو خلفها وعيناها تتابعانها وهما يسيران مبتعدين عن المنزل. إبراهيم يحمل ابنة إحسان الصغيرة، وهي تجرر الصبي الأكبر خلفها بيد وتحكم الملاءة السوداء حول وسطها باليد الأخرى.

لماذا وصلت الأمور إلى هذا الحد؟! ولماذا عاشت الأسرة طويلاً في هدوء نسبي ولم ينقلب حالها إلا بعد دخولها بيتهم؟! هل حقاً «قدمها شؤم» كما تقول حماتها؟! حماتها هذه التي رغم كل شيء لم تستطع ميرى أن تمنع نفسها من أن تتعاطف مع دموعها اليوم، بينما كاد قلبها أن يتمزق من تأثرها بفرحة الشيخ سلامة الذي يحتل في نفسها مكانة تكاد تتساوى مع مكانة أبيها.

السؤال ليس لماذا حدث ذلك لأسرة الشيخ سلامة بل لماذا يحدث ذلك لها هي؟!!

تدخل هذا البيت يغمرها حب محمود لها وعنايته بها. يقابلها جفاء وتحفظ في معاملة حماتها لها وأيضاً معاملة حامد وزينب وابنها محمد. لكن مقابل ذلك تجد حفاوة شديدة من حميتها الشيخ سلامة ومن إبراهيم وإحسان اللذين احتلا بداخلها مكاناً ظل خالياً منذ وقت طويل، ربما منذ انفصالها عن ابنة خالتها وصديقة طفولتها الوحيدة آيسل. حتى رقية - رغم تعلقها الشديد بها - لم تستطع أن تملأ هذا المكان الذي لا يمكن أن يملأه إلا صديق قريب في العمر والأهواء. فجأة وجدت صديقين هكذا بالضبط، خاصة إحسان التي كانت تصاحبها معظم اليوم ولا تتركها إلا مع عودة محمود من عمله. فسحة من السكنية والسعادة خلقتها إحسان بطيبيتها ووداعتها وتقربها منها بلا تكلف، وخلقها إبراهيم بلطفه وكاريزمته.

ثم فجأة تُختطف منها صديقتها مرة أخرى بعد عام واحدٍ من فوزها بها؛ فأحسان التي ظلت طويلاً ترفض المتقدمين لخطبتها وافقت أخيراً على الزواج بعد ولادة شكرية بقليل عندما تقدم لها عبد المجيد، صديق إبراهيم المقرب. تزوجته وانتقلت للعيش في منزل جديد أصبح بمثابة منزل ثانٍ لإبراهيم وأصدقائه. وجدوا في بيت صديقهم صومعةً دافئةً لعقد الاجتماعات والمناقشات السياسية والثقافية بعيداً عن عيون آبائهم وأسرتهم، وفي ظل ترحيب شديد من إحسان التي لم تدخر وقتاً أو مجهوداً في تحضير موائد الطعام والمشروبات. اعتبرت ذلك ثمناً زهيداً مقابل وجود إبراهيم بالقرب منها معظم الوقت ومقابل تحقق أجمل أحلامها. أخيراً أصبح يمكنها أن تندمج في هذه الحياة الجديدة التي حُرمت كثيراً من مشاركة إبراهيم في اكتشافها والانخراط فيها حتى وإن كانت مشاركتها هذه على الهامش.

اضطرت ميرى لقبول الأمر في النهاية وتعايشت مع ابتعاد إحسان ومعها إبراهيم عن المنزل على أنه سنة الحياة التي لن تتوقف عن السير في مجراها من أجلها هي وحدها. وتسلت عن ذلك بأملها في أن يتزوج إبراهيم قريباً ويعود ليستقر في الشقة التي تنتظره في الطابق الأخير، داعية الله أن يُحسن الاختيار ويأتي لها بجارة وصديقة تعوضها عن إحسان وترجح كفتها قليلاً في هذا المنزل الذي لا يشعرها بالدفء فيه سوى محمود والشيخ سلامة.

لكنها للأسف أغفلت في غمار أملها هذا أن تستيق الأحداث وأن تبصر إلى أين تسير التصاعدات التي أخذت تتزايد يوماً بعد آخر بين حامد وإبراهيم. لم يعد الأمر مجرد اختلاف في الرأي والموقف أو حتى اعتراض حامد الدائم على ما يفعله أخوه، بل تتابعت المشاجرات واحتدت وتيرتها خاصة عندما شارك إبراهيم في الدفاع عن «طه حسين» أمام الحملة التي شنت ضده بسبب أزمة كتابه «في الشعر الجاهلي» وهو الأمر الذي لم يقبله حامد بالمرة واعتبره وقوفاً في صف الكفر والزندقة. اتسعت الهوة بينهما وإن لم تصل إلى مداها إلا عندما وقع هذا الخلاف الأكبر الذي لم يعد بعده أي شيء كما كان من قبل.

هل كان الأمر مقدرًا له أن يسير هكذا مهما كانت الظروف؟ أم أن الحظ العثر هو الذي جعل الأزمة تنشأ في نفس الوقت الذي كان فيه إبراهيم ساخطاً ومضغوطاً بسبب انخراطه في معارضة قرار فصل «طه حسين» من عمادة كلية الآداب ونقله بشكل تعسفي إلى وظيفة بديوان وزارة المعارف؟

لماذا لم ينتظر إبراهيم أن تنتهي الأزمة قبل أن يفاتحهم في أمر رغبته في الزواج من «بنينة»؟ ثم لماذا كان هذا الأمر سبباً في أن تقوم الدنيا ولا تقعد هكذا! لم تستطع أن تستوعب قط بشكل حقيقي لماذا عارض حامد بشراسة لم يعهدوها به من قبل؟! لم تكن بالطبع تعرف أن حامد اعتبر الأمر تحدياً سافراً له هو شخصياً، معركة ضده وضد أسلوب الحياة الذي يحارب طوال الوقت ليفرضها على هذا البيت. وإذا كان قد اعتبر زواج محمود بـ «خواجاية» أمراً لا يضر كثيراً أسلوب الحياة هذا لأنها في النهاية مسلمة وحياتها تشبه حياتهم، إلا أن زواج إبراهيم بفتاة التحقت بالجامعة سراً وتشارك في العمل السياسي وتعمل نهاراً في وظيفة مثل الأفندية ومساءً في الغناء مثل المنحليين فهو أمر لا يمكن السكوت عليه أبداً، ولا يعد الرضوخ له إلا خسارة فادحة لا يمكن أن يقبل بها حتى ولو وصل الأمر لخروج أحدهما من المنزل، وهو ما حدث بالفعل ولم يكن الخارج سوى إبراهيم. عاند وأصرّ بضراوة على ما يريد مهما كانت النتائج. فشلت كل محاولات الوساطة التي سعى فيها محمود وحتى الشيخ سلامة بينهما. انتهى الأمر بعقد قران إبراهيم على بنينة بعيداً عن البيت في حضور الشيخ سلامة ومحمود وميري وإحسان وعبد المجيد فقط، وانتقاله للعيش مع بنينة وأمها في بيتهما القريب من بيت إحسان كما قال بالضبط في هذا اليوم منذ عامين.

ظلت شقة الطابق الأخير مغلقة ورحل إبراهيم نهائياً كما رحلت إحسان، بل وأكثر منها فهي على الأقل تأتي لزيارتهم مرة كل يومين بينما لم يخط إبراهيم خطوة واحدة داخل شارعهم منذ زواجه. وبطبيعة الحال لم تزورهم بنينة قط ولا تعرف ميري متى يمكن أن تقابلها مرة ثانية بعد أن قابلتها مرة واحدة فقط يوم زفافها؛ لذا كانت زيارة إبراهيم اليوم «ترد الروح» كما قالت حماتها، فهي أول مرة يعود فيها للبيت منذ يوم زواجه ولم يفعل ذلك إلا عندما أخبرته إحسان بمرض أبيهما.

تهددت ميري وهي تتابعهما ينعطفان بجانب بناء الوقفية ويختفيان عن مرمى نظرها.

ترى هل سيتوقف هذا المشهد عن التكرار يوماً؟!!

حتى مشمش القط البرتقالي اللطيف الذي أحبته وأخذته ليعيش معها ويؤنسها أثناء غياب محمود في عمله، بعد أن تزوجت صاحبته إحسان وفاتها أن تأخذه معها إلى بيتها الجديد، حتى القط لم يبق معها سوى أشهر قليلة قبل أن يرحل في هدوء. والحزن الذي ضربها بعنف لم يلتفت إليه أحدٌ بالقدر الكافي بعد أن استولى على شفقتهم بكاء إحسان الحار. حتى هي نفسها نسيت حزنها قليلاً بسبب بكاء إحسان. أنساها تعاطفها نحو صديقتها الرقيقة التي أخذت تبكي بحرقة بكاء من يشعر بالذنب بعد فوات الأوان.

يعتصر صدر ميري إحساساً ثقیلاً بأنه لم يعد في قلبها مكان للاحتمال أكثر من ذلك! لكن هل يتعاطف القدر معها أم أن له رأياً آخر؟!!

أنتها الإجابة سريعاً. أسرع مما تخيلت!

انتبهت من شرودها على حنطور تعرفه جيداً توقف أمام باب المنزل مباشرة قبل أن تنزل منه أختها رقية في هيئتها الجديدة التي - رغم مرور حوالي سنتين - لم تستطع ميرى بعد أن تعتاد عليها!

(٣)

لم تكن ميرى تعلم أن الأمر كله يحاك بالفعل بأدق تفاصيله على بُعد خطواتٍ من مجلسها مع أختها.

هناك في المسجد حيث وقف محمود بجانب ضريح جده متظاهراً بقراءة الفاتحة والتأمل، بينما كان في الحقيقة يحاول معالجة غضبه والتقاط أنفاسه قليلاً بالابتعاد عن تلك الجلسة الثقيلة التي ورطه فيها حامد دون رغبة أو حتى علم منه. وجد نفسه فجأة جالساً مع أخيه وابن أخيه وهذا الرجل الخمسيني الضخم ذي الجسد المتكور الملفوف في جيبته وقفطانه الفاخرين، مرغماً على قبول ما لم يكن ليقبله قط لولا سيف الحياء الذي رُفِع في وجهه على حين غرة (27)، ولا يعرف كيف يمكن أن تتقبله نفسه فما بالك أن يجعل ميرى تتقبله!

ترك حامد الجلسة واقترب منه متسائلاً في استنكار:

- ما كل هذا يا محمود؟! أتريد الحاج جلال أن يظن أنك تتعمد الابتعاد عن الجلسة؟!

هتف محمود في حنقٍ محاولاً خفض صوته قدر الإمكان:

- ليته يا أخي يدرك ذلك ويترجع عن طلبه الغريب هذا!

اتسعت حدقتا حامد وهو يتساءل في دهشة:

- ماذا تقول يا محمود!

- لن أسامحك أبداً على ما فعلته يا حامد! كيف تقبل التوسط في أمر كهذا؟! كيف تفعل بي أنا وميرى ذلك؟!

ضرب حامد كفاً بكف وهو يتساءل بنفس الدهشة:

- ماذا كنت تريدني أن أفعل؟! الرجل أخرجني بتوسُّله إليّ. كيف كنت تريدني أن أورد توسلات رجل مثل الحاج جلال!

هتف محمود في نبرة ساخرة:

- لا تستطيع أن ترد توسلات الحاج جلال أكبر المتبرعين للوقف لكنك تتخذ ببساطة قراراً مصيرياً مثل هذا القرار بالنيابة عن أخيك وزوجته!

عقد حامد حاجبيه في ضيق:

- احذر يا محمود وفكر في كلامك جيداً قبل أن تقوله!

رمقه محمود بنظرة يختلط فيها الغيظ بالاستهزاء:

- أنا لم أفتر عليك يا حامد! منذ أن ترك لك أبي أمور الإدارة وتفرغ للمسجد فقط من أربع سنوات وأنت تصر على إدارة الوقف وحدك حتى خرب كل شيء. هل يعقل أن تخطئ أنت وندفع نحن الثمن!

امتتع وجه حامد مصدوماً من الحقيقة التي ألقيت في وجهه من آخر شخص توقع أن تواتيه الجراءة ليتقوه بها هكذا بكل هذا الوضوح! لكنه لم يكن يعرف أن محمود كان بالفعل قد منع نفسه في آخر لحظة حتى لا يلقي في وجهه بالمزيد مما يسطخب به صدره. هل حدث كل ذلك من أربع سنوات فقط؟! لا والله ومن قبل ذلك بكثير، حتى في وجود أبيهما، استغل حامد طبيئته وحبه العظيم له وفخره بأزهريته ورغبته في أن يصير ابنه الأكبر خليفته وفوق كل ذلك تجنبه لإثارته حتى لا يخلق مزيداً من الخلافات بينه وبين باقي أبنائه. استأثر حامد بالوقف ورفض كل محاولات المساعدة والنصح حتى أفسده وانحدر ريعه وصار جزءاً كبيراً منه معتمداً على التبرعات وخاصة تبرع الحاج جلال. وبالتالي أصبح لا يستطيع أن يرفض له أي طلب حتى وإن كان على حساب سعادتهم كلهم.

احتقن وجه حامد في غيظ دون أن يجد ما يقوله ليدافع به عن نفسه. أسرع يحاول تغيير دفة الحديث هاتفاً في استهانة:

- والله أنا لا أرى داعي لثورتك هذه!

ازداد انفعال محمود وهو يهتف غير مصدقاً:

- تأخذ مني ابنتي لتعيش في كنف (28) غيري وتحرمني منها ولا ترى ذلك داعياً للثورة؟!!

- وهل سنرمي ابنتك في النار أو حتى نجعلها تعيش في بيت غريب عنها! إنه بيت خالتها وأمها الثانية! كما أنه بيت الحاج جلال أبو زيد أكبر تاجر فاكهة في مصر حيث ستتنعم بحياة رغدة وأنت تعرف ذلك جيداً.

- كلامك معناه أنك تريدني أن أبيع ابنتي!

- وهل قلت لك أرسلها تخدم هناك! بل ستكون ابنة البيت المدللة وفي نفس الوقت ستكسب أنت ثواباً كبيراً بالتخفيف عن المسكينة رقية التي لن ترزق بالذرية أبداً كما تعلم.

ثم أردف مستعيداً نبرته المستهينة:

- كما أن انفعالك هذا كان يمكن أن يكون معقولاً لو كنت آخذ منك صبيًا. لن تخسر شيئًا بانتقالها للعيش في بيت خالتها ولديك ابنة أخرى غيرها، بل وربما أيضًا ابنتان.

نطق حامد كلمته الأخيرة بنبرة ذات معنى، كأنه يذكره بأن ميري التي لا تتجرب سوى فتيات لا يحق لها الاعتراض على ما قرره الرجال خاصة وأن ما قرره هذا - من وجهة نظره - لا يضرها في شيء بل يفيدها ويفيد ابنتها.

كظم محمود غيظه بصعوبة وهو يلحق بحامد الذي ألقى كلمته وأسرع يعاود الانضمام لابنه الذي بقي جالسًا مع الحاج جلال.

جلس محمود محاولاً إخفاء رعشات جسده الحانق على هذا الرجل. كم يشفق على حميه تيمور لأنه اضطر على الموافقة على زواج صغيرته من هذا الرجل الذي لم يستطع محمود أن يتقبله قط. لم يكن سبب عدم ارتياحه له مقتصرًا على كراهيته لفكرة إقدام كهل مثله على الزواج من فتاة في عمر ابنته، ولا على تعمده إظهار تدينه في الأمور الشكلية بطريقة لم يستطع محمود أن يتصالح معها. لكن كان هناك أمر آخر، أمر لم يستطع أن يكتشف كنهه أو يدرك حقيقته! شعور غريب يحرك بداخله ذكرى قديمة تنفره من أي رجل يستشعر - ولو من بعيد - أنه يستخدم ثراه لفرض إرادته وكسب احترام الناس دون استحقاق.

- بقي أمر واحد يا شيخ حامد.

قالها الحاج جلال بصوت أصاب محمود برعدة من لزوجته.

- خير يا حاج جلال!؟

- اسم البنت.

ثم زفر واستغفر سريعًا كأنه يشعر بالحرج مما سيقوله:

- برلنتي هذا اسم مايع لا تُسمّى به إلا ولعياذ بالله الراقصات.

التفت محمود نحوه في حدة واتسعت حدقتاه في دهشة من تبجحه:

- ماذا تقول يا حاج جلال!؟ أنا ابنتي اسمها مثل أسماء الراقصات!

أسرع حامد يهتف محاولاً تلطيف الأجواء:

- الحاج جلال لا يقصد إهانة يا محمود! كما أن كلامه لا يخلو من وجهة! ماذا تقترح يا حاج جلال!؟

رمى محمود أخاه بنظرة نارية بينما أسرع الحاج جلال يحاول تصحيح خطئه:

- أنا لم أقصد أي شيء يا محمود أفندي حاشا لله. أنا فقط قصدت أن نناديها باسم جديد يزيد تقبلها للحياة الجديدة التي هي مقبلة عليها ويسهل اندماجها بالمدرسة الراقية التي أنوي إلحاقها بها. ما رأيكم مثلاً في «نبيلة»؟ على اسم ابنتي الكبيرة. يجعل الله حظ ابنتك مثل حظها فهي متزوجة الآن من ابن عمدة كبير وعين من أعيان المنيا.

هتف محمد بصوته الرقيق محاولاً الإدلاء بدلوه مثل كبار الجلسة:

- نبيلة اسم جميل جعل الله لها حظاً من معناه.

- أحسنت يا محمد يا بني بارك الله فيك.

قالها حامد بوجه مشرق مفعم بالفخر بوحيدة العشريني الذي يتقدم في دراسته بالأزهر مثل أبيه تماماً.

تتحنح محمود فجأة معلناً عن إقدامه أخيراً على المبادرة بقول شيء بعد أن صمت طويلاً وسط أحاديث تقرر له ولأسرته مصيرها:

- لكن يا حاج جلال يجب أن تنتظر حتى أمهد الأمر لأمرها.

اتسعت ابتسامة الحاج جلال وهو يهتف محاولاً طمأنته:

- لا تقلق يا محمود أفندي فرقية الآن عند الست أم شكرية تفتحها في الأمر وتتفق معها على كل شيء.

انتفض محمود كأن عقرباً لسعه! يا للمصيبة! سيعود الآن إلى البيت ليجد نفسه في مواجهة ميري بعد أن عرفت بالأمر كله من شخص غيره! أشفق على نفسه من الثورة التي سنثورها عليه والتي لا يستطيع أن يتخيل مداها، وأشفق عليها من حسرتها كأم تنتزع منها ابنتها فجأة دون ذنب أو سابق إنذار.

وبينما رفع ثلاثتهم أيديهم لقراءة الفاتحة احتقلاً بإتمام الاتفاق رفع محمود يده يتضرع إلى الله أن يمر هذا الأمر بسلام، دون أن يتسبب في صدع آخر يصيب جدار العائلة الذي يمكن أن ينقض مع أهون ضربة جديدة بعد ما أصابه من قبل.

حملت ميري نحو رقية في عدم تصديق! كيف يمكن أن تصدق هذا الجنون الذي تقوهت به للتو؟!!

تأمّلت أختها الصغيرة كأنها تراها لأول مرة. غيرتها هذه الزيجة العجيبة التي ورطت نفسها فيها.

بالطبع رفض أبوها تيمور في البداية. كانت ميري تعرف جيدًا أنه مهما حاول أبوها أن يندمج في مجتمعهم الجديد وأن يسير وفق تقاليدهم وأن يقبل ما يقبله أهله ويقرب بين طبعه وطباعهم، فهذا الأمر بالتحديد لن يقبله أبدًا، لن يستطيع أن يتقبل أو يستسيغ فكرة أن يزوّج ابنته لرجل في نفس عمر أبيها تقريبًا أو أقل قليلًا، وأن يتجاوز كل الفروق واللامعقوليات بحجة أن الرجل لا يعيبه سوى جيبه، وأن ثروته ومكانته سيمالآن هذه الهوة الشاسعة التي تفصله عن زوجته. حتى إن قبل عقله ذلك فلن يرتاح له قلبه أبدًا. قلبه هذا الذي تمزق حسرة على ابنة خاله وأخت زوجته، خالتها رقية التي عاشت حياتها سجيبة تجربة مشابهة، وعندما لاح لها الأمل أخيرًا في الحرية فقدت حياتها قبل هروبهم من الوطن القديم بسويغات قليلة.

تمت الزيجة في النهاية رغم كل شيء. تمت لأن الأقدار لا تعيد نفسها إلا عندما نختر نحن ذلك بملء إرادتنا. فإن كانت رقية الخالة شبه أرغمت على زيجتها، فإن رقية الصغيرة أصرت على الزواج من الحاج جلال بكل العند الذي ورثته عن أجدادها. أغرت ثروته وتجارته وأرادت أن تنتعم بهما دون التفكير في الثمن الذي ستدفعه مقابل ذلك. لم يستطع تيمور حيال عنادها هذا إلا أن يقبل ويرضخ لرغبتها مضطرًا.

لكن رقية لم تكن في مثل حظ خالتها التي أنجبت لزوجها ابنةً بعد سنين طويلة قضاها في عقم قلبها، فصارت آيسل سلوتها التي تعينها على تحمّل وطأة حياتها تلك. وها هي - أختها - تأتي الآن إليها تحاول تعويض ذلك وتعويض نفسها التي لم تقصح قط بأي ندم على قرار زيجتها، رغم أن ميري تراه دائمًا في نظرات عينيها البليدة وملامحها المنطفنة.

تصنعت رقية التحدي محاولة التظاهر بالثبات وهي تهتف في نبرة مرتعشة:

- على العموم الرجال مجتمعون الآن في المسجد واتفقوا على كل شيء.

انتصب جذع ميري في تحفز وهي تصيح منفعة:

- أي رجال وأي اتفاق؟! يتفقون على ما يملكونه فقط وليس على ما يخصني أنا!

تلاشى ثبات رقية بعد أن أدركت أنها لا قبل لها بتحدي أختها التي تعرفها جيدًا وتعرف عنادها وقوة شخصيتها. أسرعت تغيير طريقتها وتتبع ما تعرف أن ميري لن تصمد حياله. تركت موضع جلوسها على الأريكة الملاصقة لأريكة أختها المفضلة لتجنّب على ركبتيها أمامها وتتشبث بيديها كالغريق المتعلق بقشة أملًا في النجاة وهي تهتف بعينين دامعتين تقيضان بالتوسل:

- أرجوك يا ميري أن تقبلي. منذ أن أخبرني الأطباء بأنه لا أمل لي في الإنجاب وأنا أعيش في نكد وتعاسة. الحاج جلال لا يهمه الأمر فليدبه ابنان وثلاث بنات من زوجته الأولى لكن أنا من يكاد الأمر

أن يقتلني. صدقيني برلنتي ابنتي أنتِ تعرفين جيداً كم أحبها، والحاج جلال لن يجرمها من شيء. أفضل تعليم وكل ما تريده سيتوفر لها وأكثر. وكلما أردتِ رؤيتها سأرسل لكِ الحنطور المخصوص يأتي بكِ إليّ ويعيدك حتى باب بيتك. أرجوكِ يا ميري وافقي وانقذيني مما أنا فيه.

تهدج صوت رقية وهي تهتف بأخر كلماتها راجية وانهارت في بكاءٍ حارٍّ اعتصر قلب ميري رغم أن هيئتها ظلت كما هي على نفس صلابتها وقسوتها. ما أصعب هذا الاختيار؟! رقية أم برلنتي؟! نور عينيها أم فلذة كبدها؟! كيف يمكنها الاستغناء عن واحدة من ابنتيها الصغيرتين؟! هي التي لا تستطيع أن تتحمل تركهما تلعبان في الشارع أكثر من ساعة واحدة ودون رقابتها المباشرة من النافذة؟! تلك الرقابة التي كانت أول معرفتها بها سببها تلك الجائفة أمامها تبكي بحرقة. لم تحتمل يوماً دموعها! قلبها يتمزق كل يوم وهي تراها تذبل وتذوي هكذا في كنف هذا الرجل الذي ورطت نفسها معه. لم يقهرها شيء قدر ما قهرها ما قاله الطبيب عن أن إنجاب رقية أمر ميؤوس منه. مستعدة هي لأن تعطى أي شيء عن طيب خاطر لتتفدّها من تعاستها. روحها نفسها لا تغلو عليها، لكن برلنتي! مزيد من الفراق! وفراق ليس كأبي فراق بل فراق لواحدة من اثنتين لم تعرف أنها قادرة على هذا القدر من الحب إلا عندما جاءتا للعالم. هذا فوق ما تطيق! كما أن حسرة رقية وحزنها أيضاً فوق ما تطيق!

أمسكت بيدي رقية وساعدتها على النهوض في تتأقل بسبب حملها وهي تطلب منها في اقتضاب أن تذهب الآن وتتركها تفكر في الأمر. مسحت رقية دموعها قبل أن تضع برقعها وغطاء رأسها على عقصة شعرها الحديثة، وسوست حليها الذهبية الكثيرة التي ترتديها مع ملاءتها السوداء على ثوب أوروبي فبدت هيئتها غريبة وغير متناسقة. توليفة ماسخة بين رغبتها في ارتداء الفساتين الراقية وتصفيف شعرها مثل نبات الباشوات حتى لو لم يكن ذلك ملائماً لذوق الحلي الذهبية التي يغدق بها عليها الحاج جلال، وبين عدم تنازله عن أن ترتدي زوجته الملاءة وغطاء الرأس والوجه رغم أنها لم تكن ترتديهم قبل زواجها، تماماً مثل أمها فاطمة وميري.

عندما فتحت ميري الباب تفاجأت بشكزية وبرلنتي وهما تمرقان داخل الشقة راكضتين. وما إن وقعت أعينهما على خالتهما حتى أسرعتا لتلقيان بأنفسهما بين ذراعيها متقافزتين. راقبت ميري رقية وهي تحتضنهما وتخص برلنتي بقبلات كثيرة فعاد الغضب يجتاحها ويزلزلها. لم تستطع أن تقاوم أكثر من ذلك فمدت يديها وسحبت البنيتين نحوها في رفق هاتفة بصوت استماتت ليبدو طبيعياً:

- هيا اتركا خالتهما فقد تأخرت.

نهضت رقية وهي ترمقها في توجس. خافت أن يكون لما حدث الآن أثراً سلباً يجعل ميري تتراجع عن التعاطف الذي رآته رقية في عينيها رغم محاولاتها إخفائه. أخفضت رأسها وخرجت مسرعة حتى لا تلتقي عيناها بعيني أختها.

أغلقت ميري باب الشقة وعادت لتلقي بنفسها في مكانها بجانب نافذة غرفة الجلوس في استسلام تام لحيرة بغیضة اشتعلت في صدرها وسلمتها لتمزق يفوق قدرتها على الاحتمال.

أصاب علاقة محمود بميري شرخٌ كبيرٌ امتد بينهما في الأيام التالية.

استقبلته عند عودته من المسجد في تحفٌ وتشاجرت معه بعدما حكى لها ما حدث أثناء الجلسة بالتفصيل. كانت تشعر بغیظ شديد نحوه ونحو رقية ونحو نفسها. اتهمته بأنه السبب في كل ما يحدث. هو السبب لأنه لم يرفض ويصر على رفضه. سخطت عليه لأنه لم يقل «لا» واضحة باترة لا رجعة فيها وسخطت على رقية التي أحكمت مع زوجها تخطيط أمر وساطة حامد وجلسة المسجد تلك. فهي تعرف أختها جيداً، لن تهدأ حتى تتال ما تريد. وما حدث اليوم لم يكن سوى خطة لتحقيق ذلك. هي وتوسلاتها لها من ناحية وضغط حامد وزوجها على محمود من ناحية أخرى، فإن سدّ طريق انفتاح الآخر ولا يكون هناك ثمة مفر من الموافقة. وأخيراً سخطت على نفسها لأنها كانت تعرف أنها - كعادتها - لن تستطيع الصمود أمام حبها العنيف لرقية وحسرتها عليها. كما أنها كانت تخشى ما يمكن أن يجره عليها رفضها من شعور قاتل بالذنب نحو رقية أو قطيعة تحدث أو جفاء يدب بينهما وهو ما لا يمكن أن تحتمله أبداً. وأمام كل هذا الغیظ والسخط اللذين اشتغلا بداخلها لم تجد بداً من أن تعاقب محمود وتعاقب نفسها بالعراك والخصام حتى وصل الأمر بها إلى أن تترك له غرفتهما وتنتقل للمبيت مع البنيتين.

تلقى محمود اتهاماتها صامتاً. لم يكن في حاجة لأن يسمع منها ما سمعه ليشعر بأنه مذنب. تباً لحامد الذي يعرفه جيداً ويعرف كم يكره الصدام ولا يجيده وكيف أنه سريع الاستسلام لشعوره بالحرَج خاصة مع الغرباء. عرف كيف يورطه وكيف يدبر لجلسة المسجد تلك التي أدرك أنها بكل تفاصيلها أنسب فح يُنصب له. شرك محكم يضطره للقبول تحت وطأة توسلات الحاج جلال ومحاولات اجترار استعطافه نحو رقية وتحت ضغط كراهيته لأن يواجه وحده جبهة قوية متماسكة كتلك التي شكّلت ضده.

فجأة، خطرت له فكرة عجيبة قفزت بداخله لا يعلم من أين! ماذا لو كانت برلنتي ابنة إبراهيم؟! ماذا لو كان إبراهيم مكانه؟! تمثلت صورة أخيه الصغير أمام عينيه في تلك اللحظة واقفاً في صلابة بجسده الأسمر النحيف وعينيه الحادتين، يلقي خطبة طويلة يوبخ بها حامد والحاج جلال دون أن يجرؤ أيهما على أن ينبس بكلمة قبل أن يعلن رفضه في حسم لا رجعة فيه. تخيله يستدير خارجاً من المسجد في انتصار لا يستحقه سوى من يتحلى بشجاعة كالشجاعة التي دفعته لأن يطلق لحماسته العنان ويشارك في مظاهرات الثورة غير عابئ بالنتائج. شعر محمود أنه يغبط أخاه الأصغر في تلك اللحظة كما لم يغبطه من قبل على عناده وتصميمه وإقباله على المواجهة والصدام بصدر مفتوح. طالما طالعه بينه وبين نفسه بعين الإعجاب بل والانبهار. تمنى لو كان يمتلك نفس الإصرار الذي يجعله يواجه الدنيا كلها ويتخذ قرارات مصيرية في حسم من أجل ما يريده كما فعل إبراهيم حتى يفوز بـ «بثينة» ويتزوجها. صحيح أنه واجه رفض أمه وتغلب عليه من أجل أن يتزوج ميري، لكن مواجهة أمه مهما كانت ذات شخصية قوية لا يساوي شيئاً إذا ما قورن بمواجهة حامد وتسلمته على كل أمور البيت والعائلة، خاصة الآن بعد أن أقعد المرض أباه وأصبحت كل الخيوط في يديه. كما

أن تمسكه بميري وما فعله من أجلها كان طفرة واحدة لن تتكرر في حياته جعلته يتخلى عن طبيعته المفرطة في سلميتها حتى يثبت لنفسه وللجميع أنه يستطيع أن يُحسن الاختيار وأن يفوز بما اختاره. أعانه على ذلك تعلقه بها، هذا التعلق الذي ازداد بعد زواجهما، وهو نفسه الذي يكاد يدفعه الآن للجنون بسبب فراقها له وخصامها هذا الذي يخشى أن يتحول إلى قطيعة حقيقية لو سار أمر برلنتي كما حُطَّ له.

كم يكره أن تُفتح عليه كل هذه الجبهات مرة واحدة! حامد وطبعه الحاد من ناحية مع استماتته للحفاظ على تبرعات الوقف، والحاج جلال وشعوره بالحرَج نحوه من ناحية أخرى. يزيد عليهما جفاء ميري وتعاطفه مع رقية. آه ورقية هذه أيضًا! كم يشفق عليها بعد أن ورطت نفسها في هذه الزيجة التي أورثتها الندم دون حتى أن تجد لنفسها مصدرًا للسلوى في أطفال تتجبههم وتستعيبهم بهم. كم يتمزق قلبه من أجلها. تلك التي دخلت بيته صغيرة تتعثّر في خطواتها فوقعت في نفسه موقع إحسان بل وأكثر. تربّت على يديه واتخذته أخًا كبيرًا ربما حتى أكثر من حسن أخيها الحقيقي. تعلقت به وأشعرته باحتياجها الدائم له فعوضته عن الحميمية التي طالما تاق إلى أن يشعر بها في علاقته بإحسان.

أحسّ أنه يضيق ذرعًا بكل هذا الضغط الواقع عليه وحده من كل ناحية. رغبة ميري تتطابق مع رغبته في عدم الاستغناء عن برلنتي. وإن كان هو يعيبه كراهية المصادمات ومحاولة تجنبها فهي أيضًا تحمل علي كاهلها ضعفها الذي يعرفه جيدًا حيال رقية، لكنه يعلم أيضًا أن إرادتها أصلب من إرادته. عليها إذا أن تساعده. إنه مستعد أن يخالف طبيعته هذه المرة أيضًا وأن يتراجع عن كلمته ويقول لا بعد أن قال نعم ويتحمل تبعات ذلك، لكن عليها أن تعينه. عليها أن تتحدث إلى رقية. تطيب خاطرهما وتعتذر منها في رفق وتراضيهما حتى تجفف قنوات الضغط من منبعها فلا تستمر مقاومتهم له طويلًا.

شعر بارتياح عميق يغمره وهو يتجه بهذا القرار نحو غرفة الجلوس حيث كانت تجلس ميري في مكانها المفضل مستمرة في إعراضها عنه بتصميم لا يلين. جلس أمامها يرمقها بعينين متوسلتين حتى اضطرت إلى أن تتخلى قليلًا عن تعنتها وتدير عينيها نحوه فأسرع يهتف مستغلًا الفرصة:

- ميري.. لا أطيق خصامنا هذا.. أعرف أنني أخطأت لكنني مستعد تمامًا للتكفير، سأذهب للحاج جلال وأعتذر منه وأتراجع عن الأمر برمته.

لمعت عيناها ببريق خاطف وهي تهتف في فرحة:

- حقًا يا محمود؟!!

- نعم.. لكن أريدك أن تساعدينني في ذلك.

عقدت حاجبها وهي تتساءل في حيرة:

- كيف؟! -

- رقية يا ميري. رقية لا تستحق مناً أن تقسو عليها. أعلم أن طلبها غريب وغير معقول لكنك أكثر من يعرف حالها. صحيح أنها لم تقصح من قبل لأيّ منا، لكنك تعرفين مثلي أنها تستحق عطفنا حتى وإن لم نستجب لما تريده.

زفرت ميري محاولة التنفيس عما يعتل به صدرها من مشاعر متطاحنة تكاد تفقدها صوابها. نكأ محمود بكلامه دماً من الشفقة نتاً بداخلها نحو رقية في اليوم الذي أنتها متوسلة. عبثاً تحاول تجاهل ألمه الملح. عبثاً تحاول انتزاع صورة رقية المؤلمة من خيالها وهي تبكي مقهورة وتتجاهل لوعة قلبها عليها وتأنيب ضميرها نحوها، لكن محمود بكلامه هذا ضغط على جرحها ولم يترك لها منفذاً تتصل من خلاله من أقل ما يمكن أن تفعله نحو أختها إن أرادت الاحتفاظ ببرلنتي. ربما أيضاً استطاع محمود بما قاله هذا أن يجعلها تكف عن الشعور بالسخط نحوه بعد تلك المبادرة التي تعلم جيداً كم سيخالف طبيعته ليقوم بتنفيذها إرضاءً لها. أصبح الأمر كله بين يديها الآن. هي التي يجب أن تتشجع وتتحمّل على نفسها كما تحامل هو. تشكم نفسها وتطأ على قلبها وما به من ضعف وتعلق وخوف مريض نحو رقية حتى تحتفظ ببرلنتي. فهل تستطيع؟! تساءلت بنبرة مستسلمة:

- ماذا تريدني أن أفعل؟! -

خرج محمود في صباح اليوم التالي مبكراً حتى يستطيع أن يمر قبل الذهاب إلى عمله على الحاج جلال في بيت رقية. سيعلمه بتراجعته عن الأمر ويعتذر منه في رفق وسيحاول قدر الإمكان أن ينهي الجلسة بسرعة داعياً الله أن تنجح خطتهما ولا يتعرض للضغط من ناحيته أو من ناحية حامد مرة أخرى. اتفق مع ميري على أن تنتظر حتى الظهر ثم تذهب إلى رقية لاسترضائها وإنهاء الأمر معها بعد أن يكون هو والحاج جلال قد فرغا من جلستهما وتكون هي وحدها في البيت.

ما إن أنهى محمد ابن حامد رفع أذان الظهر حتى أسرع تصطحب شكرية وبرلنتي لتركهما مع إحسان في شقة حميها قبل أن تستقل حنطوراً نحو بيت رقية. طوت الممر الحجري الذي يقطع الحديقة نحو باب السرايا الكبير. دقت الباب ووقفت تنتظر بقلب مضطرب أن تفتح لها واحدة من الخدم، لكن لم تدر إلا وهي تجد نفسها وجهاً لوجه أمام أبيها تيمور! رمقته وقد عقدت الدهشة لسانها بينما أسرع هو يهتف في لهفة:

- ميري! حمداً لله أنك جئت الآن.

أسرع يفسح لها الطريق فهتت بالدخول لكنها توقفت عندما تقاجأت برجل خمسيني يحمل حقيبة متوسطة يظهر من خلف جسد أبيها الضخم. رمقها الرجل وهو يهتف مبتسماً:

- ميرى كيف حالك؟! ألا تذكرينى؟!!

لاحت على شفيتها ابتسامة مضطربة وعقلها يعمل بسرعة محاولة تذكر من يكون هذا الرجل! لم يمهلها تيمور بل أسرع ينقذها من تخرجها موضحاً:

- الدكتور مراد يا ميرى.

اتسعت عيناها في دهشة وقد تجلت أمام إدراكها فجأة هيئة الطبيب الشاب الذي كان أول من مدّ لهم يد العون ما إن وصلوا إلى الإسكندرية من اثنين وعشرين عاماً. اتسعت ابتسامتها وهي تعلق في تلعثم:

- آه طبعاً أتذكرك! متى جئت إلى القاهرة؟!!

- انتقلت للعمل هنا من عام تقريباً. (ثم وهو يربت على كتف تيمور مماًزحاً) لم أقدر على فراق أبيك رغم أنه كان يزورنى في كل مرة يمر على الإسكندرية في طريقه للسفر مع الباشا.

غالب تيمور ما به من خوف واضح على قسماته ليبتسم ثم مد يده ليصافح صديقه وهو يهتف شاكراً في حرارة:

- ألف شكر يا مراد.. أرجوك لا تنس ما اتفقنا عليه!

- لا تقلق يا تيمور. رقية مثل ابنتى ولا أرضى لها الفضيحة!

حيّاه مراد برأسه مبتسماً قبل أن يذلف خارجاً تاركاً لها المجال لتدخل مارة بحانب أبيها وقد استولى عليها الذهول وتملّك منها القلق من هذا الموقف العجيب وما قاله الدكتور مراد قبل أن يرحل. أغلق تيمور الباب والتفت نحوها زافراً في راحة بعد هلع كاد أن يفتك به! أسرعت هي تتساءل بصوت مبجوح:

- ماذا حدث يا أبى؟! أين رقية؟!!

- لا تقلقى رقية بخير. أمك معها في غرفتها بالطابق الثانى.

أمها هنا أيضاً؟! أمها ومراد الطبيب وأبوها الذي تبدو عليه أمارات الفزع بشكلٍ لم يتكرر ربما منذ وقت تهجيرهم وما صاحب ذلك من فواجع!

- تعالى. أريد أن أتحدث معك.

تبعته نحو أقرب مجلس من مجالس الصالة الواسعة المغرقة في الفخامة حتى جلس على طرف أريكة بينما استقرت هي في مقعد ضخم كاد أن يبتلعها من شدة انكماشها. صمت تيمور لحظات بدت لها دهرًا قبل أن يتكلم أخيرًا:

- ميري.. ما سأقوله الآن يجب أن يظل سرًّا بيننا لا يعرفه أحد خاصة الحاج جلال.

أومات ميري ببطء. حاولت بلع ريقها لتبلى حلقها الجاف متابعة اضطراب أبيها وهو يهتف في أسي:

- أختك كادت أن تقتل نفسها اليوم.

سقط قلبها في أحشائها واتسعت حدقتها في ذهول بينما استطرد تيمور محاولاً الحفاظ على هدوئه:

- شربت سمًا. ولولا أن دخلت عليها خادمتها في الوقت المناسب ربما كنا قد فقدناها اليوم. ولولا أن خادمتها هذه أيضًا استدعتنا نحن بدلًا من زوجها أو أي شخص آخر لصار الأمر فضيحة لا أول لها ولا آخر.

كانت تحرق فيه وعقلها يعمل بسرعة. هل فعلت رقية ذلك بسبب زيارة محمود الصباحية؟! هل كان يمكن أن تكون السبب في موت أختها الصغيرة ومهجة فؤادها؟! انتفضت واقفة كالملدوغة وهمت بالإسراع نحو السلم الداخلي لولا أن نهض تيمور وأمسك بذراعها ليستوقفها متوسلاً:

- لا أظن أنه من الحكمة أبدًا أن تراكِ رقية الآن.

- لماذا؟! أليست أمي معها؟!!

زفر تيمور قبل أن يجيبها:

- لا مشكلة في أن ترى رقية فاطمة. المشكلة في أن تراكِ أنتِ بالتحديد يا ميري. إنها تهلوس متوسلة باسمك وربما لو رأتك لأنت برد فعل لم يستطع مراد تقديره. رد فعل قد يؤذيك أو يؤدي إلى تدهور حالتها أكثر.

لم تشعر ميري بنفسها بعد هذا الكلام إلا وهي ترتمي جالسة مرة أخرى منهارة في البكاء. لا تستطيع تصديق ما سمعته للتو! من هذه التي يجب أن تخشى على نفسها منها أو التي يمكن أن تتدهور حالتها من مجرد رؤيتها؟! رقية؟! ابنتها من قبل حتى أن تصير أمًا حقيقية! لم تظن أبدًا أن هناك ما يمكن أن يعادل فاجعتها في آيسل حتى نطق أبوها بما نطقه الآن!

عاد تيمور يجلس مكانه في حزن. انتظر حتى هدأ بكأؤها قليلاً ليستكمل كلامه موضحًا:

- يبدو أن ما حدث اليوم كان مجرد حلقة في سلسلة طويلة من المعاناة أجادت أختك إخفاءها عنا. ما حكته لي خادمتها الخاصة وقاله مراد يؤكدان ذلك. رقية في أزمة منذ أكثر من سنة. كلنا كنا نرى انطفاءها لكنَّ أحدًا منا لم يمر بخياله قط أن تكون حالتها بهذا السوء! بكاء مستمر. أرق دائم يحطم أعصابها ويمنعها من النوم لليلٍ طويلة. انسداد شهية عن كل شيء ما عدا المزيد والمزيد من... (تردد لحظة قبل أن يفصح مستسلمًا) من الخمر.

عادت حدقتها تتسعان خلف دموعها وهي تردد في عدم تصديق:

- خمر!

- نعم. تشتريه دون أن يعلم الحاج جلال وتشربه في السر. الخادم قالت لي إنها أصبحت مؤخرًا تشربه بكميات كبيرة مستغلة غياب الحاج جلال لفترات طويلة، حتى إنها لاحظت أن أطرافها صارت ترتعش كثيرًا وأن كآبتها ازدادت إلى حدٍّ غير معقول، حد دفعها اليوم إلى محاولة التخلص من حياتها بعد زيارة محمود.

رمقته ميري وشعور بالخزي يتسلل إليها كأنها هي السبب في اختيار رقية السيئ وفيما تعانیه منذ عام وتخفيه عنهم كلهم. عجبًا! رقية الصغيرة الوديفة كانت تخفي كل هذا الهم وتحمله وحدها دون أن يشاركها في ذلك أحد؟! لماذا؟! هل لأنها كانت تتجنب شفقتهم عليها؟ أم لأنها كانت لا تريد أن تعترف بخطئها أمامهم؟! أحست بقلبها يتلوى بداخلها متألماً وهي تتخيل رقية جالسة وحدها محاطة بظلمة الليل تنجرع هذا السائل المر وتبكي بحرقة والندم يكاد يعصرها ويستنفد منها رحيق الحياة ببطء.

عاد تيمور يجذب انتباهها من خيالاتها السوداء مرة أخرى وهو يهتف وقد امتلأ صوته بالرجاء:

- لقد عرفتُ أمر برلنتي يا ميري. بالطبع لك كل الحق في رفضك، لكنني أرجو أن تعيدي التفكير مرة أخرى، أختك لو ظلت هكذا شهرًا واحدًا يمكن أن نفقدها إلى الأبد، أملها الوحيد كان في الونس الذي ستملأ به برلنتي حياتها. فكري فيها وفي أمك. برلنتي لن تكون تعيسة هنا، بل بالعكس، ستعيش حياة كريمة، ورقية أقسمت أنها ستتوقف عن شرب الخمر وتوجه كل وقتها وطاقتها لرعايتها ومحاوئتها بالاهتمام والحنان. وأنتِ يمكن أن تريها في أي وقت تشاءين. فكري مرة أخرى من أجلنا جميعًا.

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تتساءل بصوت مبوح:

- ألا يمكن أن تتطلق!؟

تأملها تيمور للحظة كادت خلالها أن تموت خجلًا بعدما أدركت أن سؤالها يمكن أن يوحي له بأنها تحاول التهرب. زفر قبل أن يجيبها في اقتضاب باتر:

- حاولت ورفض الرجل رفضًا قاطعًا. فهو لا يقبل أن تصير زوجته لرجل غيره من بعده. لن يطلقها حتى وإن قتلت نفسها. ربما حتى إن عرف ما حدث اليوم أن يزداد عناده ويرفض أمر برلنتي أيضًا ولقدنا آخر أمل لدينا في الإبقاء عليها على قيد الحياة.

قضت ميري طريق العودة للمنزل ذاهلة عما حولها وكلام أبيها يتردد في عقلها كمطرقة تدق بداخلها بغير رحمة. لقد كادت رقية أن تموت اليوم! رقية الصغيرة كانت ستموت مثل رقية الكبيرة، لكنها كما اختلفت عنها بأنها اختارت زيجتها الشؤم بنفسها كانت ستختلف عنها باختيارها الموت بنفسها أيضًا! وحتى لا تعيد المحاولة مرة أخرى أو تقتلها الكآبة، وحتى لا تُحرم ميري من أختها عليها أن تُحرم من ابنتها! يالها الدنيا التي تتقن في السخرية منها! كانت ترجو أن يجنبها القدر الفقد ويرحمها منه فإذا به يتمعن في التكيل بها بأن يضعها بين «فقدين» أحلاهما مُرًّا.

في المساء حكّت ميري لمحمود من خلف دموعها كل ما حدث خلال اليوم بعد أن ترجته أن يبقيه سرًا عن الجميع. استمع إليها مذهولًا في البداية ثم ما لبث إشفاقه على رقية وندمه على محاولتهما الرفض، غير منتبهين لما يمكن أن يسببه ذلك من ألم وأذى لها، يجتاحانه ويلزلان قلبه. لم ينبس بكلمة عندما أخبرته ميري بنبرة منهزمة بموافقتها. خوفها على رقية اليوم ومجرد الاقتراب من فاجعة خسارتها كانا أكثر مما تطيق بكثير. فمهما كان فقدان برلنتي مؤلمًا إلا أنه سيظل مجرد ابتعاد يمكن علاجه بالزيارات والاطمئنان المستمر عليها. وهو بالتأكيد أرحم بقلبها من فقدان آخر لا علاج له.

(٥)

أغلقت ميري النافذة جيدًا ثم أحكمت الشال الصوفي حول كتفيها وهي تتأمل السماء الملبدة بالغيوم وتصغي لزمجرة الرياح في الخارج. كأن الطبيعة تشاركها حزنها في هذا اليوم الكئيب. اليوم الذي ستفصل فيه ابنتها عنها. برلنتي الصغيرة التي جاءت كهدية من الله منذ ست سنواتٍ قبل رحيل أم نعيمة بأسابيع قليلة فخفت عنها حزنها وألمها على أمها الثانية. سينتزعونها ويذهبون بها لتعيش بقية حياتها بعيدًا عنها في بيت آخر ومع أم أخرى. ومن يعلم؟ ربما بمرور الوقت تصبح غريبة عنها كأنها لم تحملها يومًا في أحشائها وبين ذراعيها، بينما تقف هي عاجزة أمام كل ذلك. عاجزة أمام خوفها الذي دائمًا ما يصيبها بالشلل. يسيطر عليها ويتخذ لها قراراتها. يتقن في التلاعب بها حتى صار ينقسم بداخلها إلى فرق متناحرة وهي تتفرج عليهم كجمهور لا يد له ولا حيلة، رغم أنها هي وحدها الخاسر الأكبر مهما كانت نتيجة الصراع.

كيف تتقلب الأجواء هكذا والشتاء قد غادرهم من مدة؟!!

لو سألت محمود لكان أوضح لها الأمر بأنها رياح الخماسين التي تزورهم في الربيع وإن كانت أشد وطأة هذا العام من المعتاد. لكنها لم تسأله. عاودت إعراضها عنه وانقطاعها عن التحدث إليه. ليس عن غضب منه. فلا داعي لغضبها بعد أن كفر عن موافقة المبدئية بمبادرته وذهابه للحاج جلال وبعد أن كان القرار النهائي شبه مشتركٍ بينهما بسبب ما حدث لرقية، لكنها كانت غاضبة جدًا..

غاضبة من شيء لا تعرف كنهه. من الدنيا والحياة ربما أو من نفسها أو من رقية لأنها ورطت نفسها فيما أوصلهم لما هم فيه الآن أو من شيء رابع لا تستطيع تحديده. شيء مستقر بداخلها لا يغادرها مهما مرت السنوات وتشعر أنه السبب فيما يصيبها من تعاسة. غاضبة هي وتعيسة ولم تجد أحدًا تصب عليه غضبها وتعاستها أو وسيلة تنفس بها عنهما سوى معاقبة نفسها ومحمود بالصمت وإشاعة شعور عام بالانكسار.

أحزن محمود ذلك لكنه تفهّمه جيدًا. التمس لها العذر لأنه كان يعرف أنها - رغم موافقتها الأخيرة - وجدت نفسها فجأة مرغمة على ذلك. أرغمها هلعها على رقية كما أرغمه هو أيضًا. الخوف وتأنيب الضمير كانا أكبر منهما. وإن كانت هي تشعر بالذنب لأن حرمانها من برلنتي سيكون بسبب قرار اتخذته أختها من عامين ولم يدفعها نحوه سوى تطلعاتها النهممة للثراء؛ فهو أيضًا لا يستطيع أن يمنع شعورًا مماثلًا بالذنب يراوده بسبب تورط أخيه في الوساطة نتيجة لأنانيته وسوء تصرفه في إدارة الوقف، وما ترتب على ذلك من تهالك على الحفاظ على مصادر تمويل تنفذه مهما كان الثمن؛ لذا تركها تعاقبه وتعاقب نفسها مقدرًا أنها لن تلبث أن تصفو بعد أن تتخلص من غضبها وتعود لتشفى بين ذراعيه كما اعتادت دائمًا.

انتبهت عندما لمع البرق فجأة وزمجر الرعد قبل أن تبدأ الأمطار في الهطول بغزارة.

في فراشها، استيقظت الصغيرة برلنتي وتأمّلت ما حولها في توجس. وصلها صوت الرعد وزخات الأمطار المتساقطة في رتابة على زجاج نافذة غرفتها هي وأختها. لم يكن هذا الصوت هو ما أيقظها فشركية تغط بجانبها في نوم عميق دون أن تشعر بشيء، ما أيقظها كان أمرًا آخر، شعور غريب تولد بداخلها وأخذ يكبر خلال الأيام الماضية بسبب شيء مريب يدور حولها دون أن تعرف حقيقته. تدرك أن هناك أمرًا ما متعلقًا بها هي وحدها دون أختها وأنه كان سبب الأزمات التي حدثت في البيت مؤخرًا لكنها لا تفهم ما هو ولا تستطيع أن تتصور أبعاده، حتى بعد أن جمع لها أبوها معظم حاجياتها في حقائب تستقر بجانب باب الشقة وأخبرها يرفق أنها ستذهب للعيش مع خالتها رقية في بيتها الكبير الجميل المليء باللعب والحلوى وأنهم سيأتون لزيارتها كثيرًا هناك. حتى بعد كل ذلك وبعد أن أخذت شكرية الأمر ببساطة ظانة أنه أمر طارئ، لم تستطع الصغيرة أن تطمئن مثل أختها. لم تكن خائفة حتى بعد أن عرفت أنها ستبتعد عن أمها وعنهم كلهم لكنها أيضًا لم تكن مرتاحة، ولم تستطع فرحتها بالأشياء الجميلة الكثيرة التي توقعت أن تبتاعها لها خالتها أن تطغى على توجسها من هذا المجهول الذي هي مقبلة عليه الليلة. حاولت العودة إلى الاستغراق في النوم حتى وإن كان مضطربًا لكنها لم تستطع. نهضت بهدوء حتى لا توقظ شكرية واتجهت نحو صوان ملابسها ففتحت درجته بصعوبة بأناملها الصغيرة وأخرجت معطفها الكحلي. ارتدته ثم انحنت وأمسكت بدميتها الملقاة على الأرض وعادت تستلقي في فراشها مرة أخرى وهي تحتضن الدمية وتعتصرها بشدة متظاهرة بالنوم وربما أيضًا بالاطمئنان.

انتبهت ميري عندما سمعت صوتًا في الشارع أمام باب المنزل. أسرع تطل من النافذة وقلبيها يكاد ينفجر من الدق. ما إن وقعت عينها على الحنطور الخاص بأختها وحركة المربية الفرنسية التي

أحضرتها رقية لبرلنتي وهي تهبط منه محاولة الاحتماء بقبعتها من المطر، حتى أسرع تغلق عليها باب غرفة الجلوس بالمفتاح. عادت تجلس مكانها لكن وهي مولية ظهرها للنافذة باذلة جهداً جهيداً لتلتقط أنفاسها المتلاحقة. ارتجفت عندما سمعت صوت طرقات على باب الشقة تلاه صوت دقات محمود على بابها فهتفت محاولة التظاهر بالتماسك والقسوة:

- احمل أنت ابنتك وأعطها للمربية.

تجاهلت رغبتها في النداء عليه لتذكيره بضرورة ارتداء برلنتي لمعطفها قبل الخروج. تحاملت على نفسها لتبقى صامتة وهي تنصت لصوت خطواته تتباعد عن الباب نحو غرفة البنيتين.

أزاح محمود الغطاء ورفع برلنتي برفق بين ذراعيه حتى لا يوقظها دون أن يعلم أنها مستيقظة بالفعل، وأن شيئاً ما بداخلها جعلها تفضّل التظاهر بالنوم حتى لا تفتح عينيها وترى هذا الذي يحدث حولها كأنها ليست جزءاً أصيلاً منه. لو انتبه محمود قليلاً لرأت عيناه أن برلنتي ترتدي معطفها فوق ملابس النوم دون أن يكون هو من ألبسها إياه، ولأدرك أنها تتشبث بدميتها بعنفوان شخص مستيقظ وليس غارقاً في النوم هكذا. وربما لاستطاع أيضاً أن يشعر بوجود قلبها الصغير المرتجف بداخل صدرها الملتصق بصدره، لكنه كان مشغولاً بفكرة واحدة تلح عليه وكادت أن تجعله يطلب من المربية أن تذهب وتأتي لأخذ الطفلة في الغد حتى لا تخرج إلى الشارع في مثل هذا الجو السيئ، لكنه أمسك لسانه وتراجع عن الأمر حتى لا تظن رقية والحاج جلال أنه يمهّد الطريق للتراجع مرة ثانية.

ركبت المربية الحنطور وبرلنتي بين ذراعيها بينما وضع المكاري الحقائب بجانب موضع قدميه قبل أن يعود للجلوس مكانه مرة أخرى محاولاً الاحتماء بمعطفه وطربوشه من الأمطار. وكز الحصان الذي انطلق مبتعداً عن المنزل نحو المسجد ثم انعطف يميناً قبل أن يصل إليه مختفياً عن مرمى بصر النافذة التي كانت ميري تجلس بجانبها. لا تزال مولية إياها ظهرها حتى لا ترى هذا المشهد مرة أخرى. مشهد الابتعاد هذا كفاها منه ما عاشته. ألن يكتفي القدر أيضاً!؟

إن كان قدر رقية يشبه قدر خالتها فقد سخرت منها الدنيا هي أيضاً وجعلت قدر ابنتها مشابهاً لقرارها. وإن كانت رقية الصغيرة قد اختارت أن تعيد ما حدث في الماضي بإرادتها، فلا هي ولا ابنتها قد اختارتا لنفسيهما الخسارة والبُعد والرحيل عن بيت الطفولة بل وحتى الاستغناء عن الاسم الأصلي من أجل اسم آخر وجدّه الآخرون مناسباً لهما. وإن كانت هي أكثر حظاً لأنها اختارت بنفسها اسم نعيمة بعد أن أصبحت فتاة كبيرة في السادسة عشرة من عمرها فقد فرض على ابنتها اسم نبيلة هذا وهي لم تبلغ السابعة بعد، وصار لزاماً عليها أن تتقبله دون أن تفهم سبباً ذلك أو حتى يكون لها يد فيه.

أسندت رأسها نحو الحائط تاركة زمام دموعها التي انزلت في صمتٍ على جانبي وجهها بينما يداها تمسكان ببطنها المنتخخة محاولة عبثاً تهدئة الوجع الذي أصابها من ركلات الجنين. في كل مرة شعرت به يتحرك بداخلها كانت تتخيل أنه يذكرها بأن تدعو الله بأن ينصفها هذه المرة بالصبي، لكن

هذه المرة لم تدع الله بذلك. في تلك اللحظة لم يكن يهمها أي شيء سوى أن يخرج ما بداخلها إلى الدنيا حيًا معافى مهما كان جنسه.

في صباح اليوم التالي استيقظت شكرية وأخذت تدور في أرجاء البيت كله وهي تفرك عينيها الناعستين. وعندما لم تجد أثرًا لبرلنتي ولا لدميتها وحقائبها أيقنت أن ما قيل لهما خلال الأيام الماضية أصبح حقيقة واقعة. سقطت جالسة في منتصف الصالة على الأرض بجانب مائدة الطعام وهي تصرخ باكياً. لم تتحرك ميري من مكانها، فقد كانت تعرف أن محمود موجود في الخارج ولم يذهب إلى عمله ليكون معهما خلال هذا اليوم الصعب. سمعته وهو يحمل شكرية. يحايلها ويهددها حتى كفت عن البكاء أخيراً عندما قال لها إنه سيصحبها إلى مكان اسمه «جروبي» حيث سيشتري لها كأساً كبيرة تمثلي بملحوظة بطعم الفاكهة وتغطيها كريمة بيضاء مخفوقة. بالطبع لم تكن الصغيرة تعرف أي شيء عما يقوله أبوها، لكن حدقتيها الصغيرتين المبللتين لا تزالان ببقايا دموعها اتسعتا والتمعتا وهي تسمع وصف أبيها الذي جعل ريقها يجري كما جرت الحماسة في عروقها وهي تركض نحو غرفتها لتستبدل ملابسها.

دق محمود على بابها دقات خفيفة وأنبأها بلطف أنه سيصحب شكرية للخارج لإلهائها. غادر دون أن ينتظر منها ردًا ظاناً أنها لن تجيبه حتى تتخلص من تزمته نحوه وربما نحو العالم كله، لكنه لم يكن يعلم أنه لو ألق قليلاً ربما كانت ستجيبه وتفتح له الباب أيضاً؛ فالآلام التي أخذت تشتد أسفل ظهرها طوال الليل كانت في تلك اللحظة قد وصلت حدًا لا يطاق. في البداية لم ترد بدافع من بقايا كبرياء لكنها عادت وندمت بشدة عندما وجدت نفسها فجأة وحدها في مواجهة هذا الألم المروع. اجتاحتها موجة رعب عاتية عندما قفز في ذهنها احتمالية أن ينزل المولود فجأة من بين رجليها وهي جالسة هنا وحدها في غرفة مغلقة عليها بالمفتاح من الداخل! كم من الوقت يمكن أن يمر قبل أن يدري أحدٌ بما يحدث لها ويستطيع أن يكسر باب الشقة ثم باب الغرفة؟! ربما ما يكفي ليلقى الرضيع مصرعه أو تموت هي! حاولت أن تصرخ لكن خانها صوتها فتحاملت على نفسها ونهضت بصعوبة بالغة. تحركت ببطء نحو باب الغرفة ثم باب الشقة وخناجر الألم تطعنها في جسدها كله بلا رحمة! ما إن اجتازت العتبة حتى ارتمت بنقلها على سور السلم وهي تهتف بصوت ضعيف نحو شقة الطابق الثاني. كانت تعرف جيداً أن حامد وأسرته لم يخرجوا اليوم لأنهم يستعدون للذهاب في المساء لقراءة فاتحة محمد على عروسه التي اختارتها له أمه ووافق عليها أبوه.

ازداد تشبثها بالسور وساقاها تتلويان تحت ركبتيها المرتجتين منذرتين بسقوطها القريب:

- يا أم محمد.. يا زينب.

كادت أن تفقد الأمل وتستسلم للسقوط عندما انفتح الباب أخيراً وأطل منه وجه زينب الأسمر بلامح متسائلة سرعان ما تحولت إلى القلق. صعدت نحوها راكضة وهي تنادي على محمد حتى يسرع بإحضار القابلة. (29)

تفاجأ محمود عند عودته برجال الشارع يهنئونه مقدماً. حمل شكرية وأسرع نحو شقته التي ما إن دخلها حتى هب نحوه رجال العائلة كلهم، حامد ومحمد وتيمور وحسن أخو ميرى وحتى الحاج جلال، يطمئنونه بعبارات كثيرة تداخلت مع بعضها البعض، ومع مشهد النساء الغاديات الرائحات بين المطبخ والحمام وغرفة نومه التي تعالت من داخلها تأوهات مكتومة تدل على مدى الوهن الذي أصاب ميرى وجعلها حتى غير قادرة على الصراخ.

أسرعت رقية تترك انشغالها مع النساء لتصطحب شكرية المذعورة وتدخلها غرفتها لتلعب مع أختها تحت إشراف المربية الفرنسية، التي قبلت على مضض القدوم حتى تستطيع برلنتي «أو نبيلة» أن تشهد ولادة أخيها أو أختها الأصغر.

جلس محمود مضطرباً خلف مائدة الطعام بجانب زبيدة التي أخذت تبتهل إلى الله بنفس الدعاء الذي دعته يوم ولادة شكرية وأعادته يوم ولادة برلنتي وها هي تكرر اليوم. مرّ الوقت بطيئاً على أعصابه المحترقة حتى انتبه الجميع فجأة عندما ارتفع صوت صراخ ضعيف حاد ينبئ بخروج المولود إلى الدنيا. أرهفت زبيدة سمعها تنتظر البشرى بزغاريد تطلقها النساء بالداخل احتفالاً بجنس الرضيع، لكن بدلاً من ذلك خرجت زينب وهي تجفف يديها في منشفة بيضاء. هتفت نحو محمود بابتسامة ضيقة:

- مبروك يا أبو شكرية.. بنت مثل القمر.

حلّ الصمت على الجميع لثوانٍ قبل أن يتجاوزهم الرجال مسرعين ويتبارون لتقديم التهاني لمحمود الذي تلقاها بسعادة حقيقية قبل أن يلتفت نحو زينب متسائلاً في قلق:

- وميرى يا زينب؟ كيف حالها؟

- بخير يا خوي والحمد لله.

ارتفع صوت زبيدة فجأة من خلفهم هاتفة في حنق:

- بخير بخير.. ماذا كان يمكن أن يحدث لها! كلنا وضعنا بدال المولود اثنين وثلاث وأربع ولم يحدث لنا شيء!

التفت نحوها محمود وهو يزفر في ضيق فوجدها تنهض من مكانها وهي تستطرد في خذلان:

- أمرنا الله. يبدو أن ابنة نرجس قد غلبتنا ولن يكون لك صبيان من غيرها!

ضيق محمود عينيه وهو يتأملها محاولاً إدراك ما تقوله! كأنها تتحدث عن امرأة غريبة لا يعرفها! استلزم منه الأمر عدة ثوانٍ حتى يستوعب أنها تتحدث عن منيرة، وأنها لم تكن تدعو منذ قليل

بالسلامة لميري، وإنما كانت تدعو بنفس دعائها القديم بأن يُرزق محمود بالبنين من غير منيرة حتى ولو من الخواجية حتى ينتصروا عليها انتصارًا لا يفهمه أحدٌ سواها. خاصة بعدما كاد أن يجن جنونها عندما عرفت أن منيرة قد أنجبت ولدًا من رشدي.

- ألن تنتظري يا أمي لتلقي نظرة على المولودة؟! -

- أبوك وحده تحت.

ألقت كلماتها في لا مبالاة وهي تدلف خارجة من باب الشقة دون حتى أن تلتفت نحوه. اتسعت ابتسامته، فقد كانت سعادته بسلامة المولودة وميري تفوق كل شيء حتى إنها طغت على ضيقه مما قالته وفعلته أمه.

في فراشها كانت ميري مستسلمة تمامًا ليدي أمها فاطمة وهي تجفف وجهها ورقبتها من آثار العرق بينما عيناها معلقتان بمولودتها. شعرت أن قلبها يتمدد بداخلها ليوسع مكانًا بجانب ابنتها لتلك الصغيرة النائمة بجانبها وربما أيضًا لتجتاز مكانها هذا فتملاً بعضًا من ندوب خَلْفَتها جراح قديمة مندملة وفراغات خلقتها جراح حديثة لم تتدمل بعد. فجأة اختفى من داخلها كل ما لازمها من قلق حيال رد فعل حماتها وما ستلقاه منها خلال الأيام القادمة، ولم يساورها ولا حتى شيء يسير من خيبة الأمل التي حملت همها ليالي طويلة. كأن الأمر لم يلح عليها ولم يرهقها وينكد حياتها. كأنه ليس له أي قيمة على الإطلاق. لا قيمة في عينيها الآن إلا لهذه الصغيرة ذات البشرة الرقيقة والزغب الخفيف على رأسها وجانبي وجهها.

بعد صلاة العشاء، ذهب حامد وأسرته لإتمام خطبة محمد، وحضرت إحسان مع أسرتها وجاء معها إبراهيم ليبارك لمحمود مستغلًا فرصة غياب حامد ومصطحبًا معه بثينة التي كانت تخطو داخل منزلهم لأول مرة في حياتها! دهش الجميع من تلك الجرأة التي أصابت إبراهيم لكنهم أسرعوا يتجاوزون دهشتهم ويرحبون به وبزوجته السمراء النحيفة الرقيقة التي كانت تبتسم في وجل من تلك الخطوة التي حاولت كثيرًا أن تثني إبراهيم عنها حتى لا تتسبب له في أي مشاكل، لكنه أصرَّ بعناد غريب. أحببت ميري بسرعة منذ رأتها يوم عقد قرانها على إبراهيم. وأسرتها في يوم الزيارة هذا بهيئتها الراقية رغم بساطة تنويرتها السوداء وقميصها الأبيض وقرطها اللؤلؤي، وأسرها أكثر أن تكون هذه الجميلة الرقيقة المهذبة هي نفس الفتاة التي حكى لها إبراهيم من قبل كثيرًا عن قوة شخصيتها وصلابتها وخروجها للعمل الإداري والعمل في الفن دون أن تلقي بالألأ أي كلام يقال عنها.

دخلت شكرية عليهم واتجهت نحو إبراهيم وهي تقول ببساطة دون أن تعي فداحة القبلة التي تفجرها:

- عمي إبراهيم. ستي نادنتي وقالت إنها تريد أن تقابل أبله بثينة.

ساد صمت مضطرب في الغرفة. شحب وجه إبراهيم وكاد أن يندم على أنه لم يسمع كلام بثينة ويأت بمفرده. كان يتوقع أن تظل أمه في شقتها مع أبيه وكان ينوي أن يترك بثينة في شقة محمود ويهبط ليجلس معهما قليلاً وحده، لكن أن تطلب أمه أن تقابل بثينة خصيصاً فهو ما لم يحسب له حساباً قط. ترى ماذا يمكن أن تفعل أمه معها أو تقوله لها؟! ماذا سيكون رد فعلها عندما تجد زوجة ابنها تدخل عليها في ملابس أوروبية ورأس حسير! هي التي طالما عابت على أن ميري لا تغطي وجهها رغم أنها تغطي شعرها عندما تخرج! بدت بثينة أيضاً متفاجئة ومضطربة لوهلة لكنها سرعان ما تماكنت نفسها. وضعت كوب المغات على الطاولة القصيرة ونهضت وهي تشد جسدها في اعتداد وتطلب من شكرية في تودد:

- تعال يا شوشو أريني كيف أذهب لسنك.

نهض إبراهيم وحاول أن يتبعها لكنها التفتت نحوه مطمئنة إياه في رفق:

- هي طلبت أن تراني وحدي ويجدر بي أن أنفذ ما تريده دون زيادة أو نقصان. لا تقلق. زوجتك «سداة».

اتسعت ابتسامتها تحاول بها طمأنته وطمأنته نفسها قبل أن تتبع شكرية نحو الخارج تحت أنظار إبراهيم الوجلة وأنظارهم المضطربة، ما عدا ميري التي كانت تراقبها في دهشة وفخر شديدين. دعت لها من كل قلبها أن يرزقها الله الغلبة في حضرة حماتها التي لم يختبر أحد شدتها مثلما اختبرتها هي.

في الليل سيحكي لها محمود كيف استطاعت بثينة أن تتحدث مع أمه بلطف ولباقة جعلها ترضى عنها، أو على الأقل تُظهر هذا الرضا لأنها حتى ولو أظهرت غيره ما تغير شيء، لكن ما أدهشهم جميعاً هو كيف استطاعت بثينة أن توظف موهبتها وفنها فيما جعلها تدخل قلب الشيخ سلامة بسرعة وخفة وتستقر فيه بطريقة أبهرت حتى زبيدة وأزادت من رصيد الفتاة لديها. فالشيخ سلامة الذي لم يكن قد قابلها سوى لساعة واحدة يوم عقد قرانها على إبراهيم، تفاجأ أن بثينة، التي حرص أبوها على تعليمها العزف على البيانو والغناء، لم ينس أن يحضر لها من يحفظها أجزاء من القرآن وبعض التواشيح الدينية. صقلت كل موهبة منهما الأخرى وتجلت روعتهما معاً في صوتها وهي ترتل أمام حميها وحماتها أجزاء من سورة «مريم» قبل أن تنشد إنشاداً أسر لبيهما في ثوانٍ.

بالطبع لم يتغير أي شيء بعد ذلك. فقد أسرعا يرحلان قبل عودة حامد وأسرته وحرص الجميع على إخفاء الأمر عنهم، لكن كلمة الرضا التي قالتها زبيدة عن بثينة حتى وإن كان جزء منها يخرج من وراء قلبها، والسرور الذي كانت تقيض به عينا الشيخ سلامة، كانا بالنسبة لإبراهيم مثل شربة ماء بارد بعد طول ظمأ. إحساس بالسكينة عاد يملأ الفراغ الموحش بداخله بعد أن عاش سنتين يتأذى من شعوره بأنه منبوذ في بيته وبيت أهله.

في هذا اليوم، نام الجميع راضياً. حامد وأسرته فرحين بخطبة محمد، والشيخ سلامة وزبيدة مسروران بعودة إبراهيم للتقرب منهما حتى ولو بحدود، ومحمود وشكرية مطمئنان بعودة البيت إلى حالة من الاستقرار، لم يبق سوى ميري التي لم تعد أسباباً تصيبها بالسعادة والرضا، لكنها كانت أيضاً سعادة منقوصة؛ فهي تشعر بالعرفان لمجيء تلك الصغيرة النائمة بجانبها لكنها أيضاً لا تستطيع الكف عن الاشتياق لبرلنتي والشعور بالحنق نحو كل من كان له يد في ابتعاد ابنتها عنها، رغم أن الكلمة الفاصلة لم تكن لأيٍّ منهم. تقرح بنجاح بثينة في مهمتها وبعودة إبراهيم للتردد عليهم وزيارتهم بعد طول انقطاع، لكنها أيضاً تغبطها على استثنائيتها وقدرتها على كسب رضا حمايتها بهذا الذكاء وتلك الدبلوماسية. تعرف جيداً أن تمنيتها بأن تكون مثلها ليس إلا محض خيال فالفرق بينهما شاسع والاختلاف لا مفر منه، لكنها أيضاً لن تقف مكتوفة اليدين ولن يهدأ لها بال حتى تبرد نارها قليلاً طالما أن الانطفاء التام صار مستحيلاً.

(٧)

ازداد تخييم حالة الاستقرار على البيت في الأسابيع التالية. استقرار باهت مشحون بقليل من التوتر لكنه على أي حال أفضل من أيام الاضطراب التي سبقتة.

ما إن يفتح محمود باب الشقة راجعاً من عمله حتى يطرق أذنيه صوت أم كلثوم يرتفع من الجرافافون في غرفة الجلوس ويصدح (30) في أرجاء الشقة حيث تدور ميري تتجز أعمالها اليومية وهي منهمة في دندنتها المعتادة. بين الحين والآخر تطل على وداد النائمة في أقمطتها (31) على فراش برلنتي بينما شكرية مستقرة بجانبها مع ألعابها لا تبتعد عنها أبداً. تتعجب ميري! كيف استطاعت هذه الصغيرة التي لا حول لها ولا قوة أن تملأ كل هذا الفراغ الذي خلفته برلنتي لدى شكرية؟! تبتسم متعجبة من تعجبها! كيف تتدهش مما عاشته هي نفسها بحذافيره عندما كانت في عُمر شكرية أو أصغر قليلاً؟! ألم تكن رقية بالنسبة لها بعد رحيل آيسل بالضبط مثل وداد بالنسبة لشكرية بعد رحيل برلنتي؟! تزفر مبتسمة في مرارة. كانت من يومين تظن أن قدر برلنتي مشابهاً لقدرها، فإذا بها تكتشف الآن أن الدنيا تمعن في سخريتها منها بأن جعلت حدثاً واحداً سبباً في أن يتشابه قدرا ابنتيها مع قدرها لكن من زاويتين مختلفتين! ينتابها إحساس غريب بأنها تعيد التفرج على مسرحية قديمة كانت هي بطلتها في الماضي ثم ها هي تتكرر أمامها لكن بعد أن تركت المسرح وانضمت لصفوف المشاهدين! تراقب بتعجب كيف ترص شكرية حول وداد دُماها وتحدث إليهن وإليها معهن. كيف تتخيل أنها ترد عليها وتتبادل معها أحاديث مطوّلة. كيف تجلس في أحايين أخرى ساكنة بجانبها تتأمل بافتتان ملامحها المنمنة وأطرافها الصغيرة وهي تضرب في الهواء بعشوائية محببة. كيف تحرق بحب في بؤبؤي الصغيرة الواسعين وهي تتألفت حولها في دهشة من الأصوات المحيطة بها دون أن تتمكن بعد من رؤية أصحابها بوضوح. وكيف تصر على مشاركة أمها في تحميمها وتغيير ملابسها والغناء لها وتجلس بجانبها تراقب فقرات الرضاعة بانبهار لا يفتريه ملل. يا ربي كأنها تنظر إلى ميري الصغيرة ورقية الرضاعة!

ارتاح محمود لهذا الهدوء الذي أخذ يزحف على البيت مبشراً بعودة الحياة لسابق عهدها قبل ذهاب برلنتي. خاصة بعدما زارتها ميرري في منزل رقية ورأت بعينها كيف تعيش ابنتها حياة رغيدة وتتعلم أشياء جديدة لم تكن لتعرفها لو كانت ظلت معهم. تضاعف اطمئنانه ومعها سروره وهو يلمس في معاملة ميرري إزالتها لبعض الحواجز التي كانت قد أقامتها بينهما. صحيح أنها لم تعد إلى طبيعتها معه بشكل كامل واقتصر الأمر على توجيه أسئلة قصيرة أو الرد على أحاديثه بكلمات مقتضبة. لكنها كانت بالنسبة له أكثر مما يحلم لأن ميرري التي يعرفها أيضاً ويعرف عنادها جيداً كان يمكن أن تظل على موقفها هذا أطول من ذلك بكثير. فهو يعلم أنها تمتلك قدرة وثبات كانا يمكن أن يجعلها تتمادى في تفوقها شهوراً طويلة حتى وإن كانت تكابد نحوه شوقاً يفوق شوقه لها. لذا استبدت به السعادة وهو يراها توارب الباب بينهما بلفات بسيطة أثلجت صدره وإن تعمد إخفاء فرحته بها حتى لا تتراجع عنها. استعان بصبره الذي يجيده جيداً والذي كان مفتاحه إلى قلبها وإلى السكنية التي شملت حياتهما الزوجية معاً أكثر من عشر سنوات. وكما كان موفقاً دائماً معها بأسلوبه هذا، كان التوفيق حليفه هذه المرة أيضاً، حتى هذا اليوم الذي حدث فيه ما لم يتخيل أن يزلزلها بهذا العنف وأن تستقبله بهذه العاصفة، حتى كاد أن يخسر كل ما أحرزاه من تقدم في تصالعهما خلال الأسابيع السابقة.

استدعاه الشيخ سلامة في هذا اليوم فذهب إليه خالي الببال مما يمكن أن يكون سبباً لهذا الاستدعاء. ما إن دخل الغرفة حتى لمح حامد جالساً متجهماً على الأريكة الجانبية. تجاهله ومضى نحو أبيه المضطجع في فراشه فقبل يده ورأسه بينما ربت الشيخ سلامة على كتفه بعطف حقيقي ظن محمود أن مبعثه شفقتة عليه بسبب رحيل برلنتي. ذهب ليجلس بجانب حامد متمعناً في تجاهله ومنتظراً أن يفتح أبوه أمر التصالح بينهما بعد أن ظن أن هذا هو سبب الاستدعاء. لكنه تقاجاً به يهتف بأخر شيء كان يمكن أن يخطر بباله:

- لقد استخرت الله يا محمود وقرّرنا أنا وأخوك أننا نحتاجك معنا بخبرتك في إدارة الأمور المالية لتشارك أخاك في إدارة الوقف.

رفع رأسه واتسعت عيناه في دهشة شديدة. «نحتاجك معنا بخبرتك» يا لها من كلمة ظن أنه لن يسمعها أبداً! لقد نسي أصلاً كم كان يتوق إليها في الماضي وكم كان تهرّب أبيه من النطق بها سبباً في ألمه وشعوره بخيبة أمله في نفسه. هل حقاً نسي أم أن الأمر قد توارى في خلفية ذاكرته بينما ظلت انعكاساته حاضرة على كل شيء في حياته؟! نظر في عيني أبيه فهاله أن يدرك أن ما ظنه أول ما دخل عليه شفقة بسبب رحيل برلنتي، ليس إلا شعوراً بالندم على تأخر طلبه هذا! كأنه يعتذر له بعينيه عن خطأ ظل يرتكبه في حقه طوال السنوات الماضية. في البداية بسبب ظنه أن محمود أخيب من أن يتحمل هذه المسؤولية. ثم بعد ذلك بسبب تفضيل مارسه أتماً لصالح حامد على حساب الجميع تجنباً لإثارة طبعة الحاد مع أخويه وحفاظاً له على هيئته ومركزه كخليفة له في كل شيء. حامد هذا الذي يجلس بجانبه الآن دون أن ينبس بكلمة وبوجه جامد تلوح به شبه تقطبية. كأنه يحضر مرغماً هذه الجلسة التي لا معنى حقيقي لها سوى أنه فشل فيما حارب ليستأثر بتولى زمامه بحجة أنه الوحيد الأقدر على ذلك.

عاد إلى شقته بقلب مترع بالرضا. كان يظن أن قلبه سيتراقص فرحًا بعد أن أعاد طلب أبيه هذا اعتباره أمام نفسه، لكنه فوجئ بشعور هادئ بالارتياح ينتشر متمهلاً بداخله بدلًا من فرحة عارمة تغمره! كأن الجرح القديم كان قد اندمل بالفعل دون دواء من زمن طويل، بينما ما قاله له أبوه اليوم لم يكن إلا لمسة تجميلية محت ندبة لم تكن تسبب أي ألم بالفعل.

جلس إلى المائدة مع ميري يتناولان طعام الغداء وهو مسترسل في أحاديث متفرقة ومكتفي بإيماءاتها وردودها المقتضية. حاول إخفاء لمحة الرضا التي شعر بها وهو يذكر لها أنه اتفق مع أبيه على مشاركة حامد في إدارة الأمور المالية للوقف، وأنه سيبدأ منذ الأسبوع القادم تخصيص بعض من مساعته للبقاء في مبنى الوقفية الملحق بالمسجد من أجل هذا الشأن. توقفت ميري عن تناول طعامها ورفعت نحوه عينيْن مندهشتين وهي تهتف في انزعاج:

- ماذا تقول؟! تريد أن تتركنا وحدنا كل مساء؟!

أسرع يجيبها بنبرة مدافعة:

- بل ثلاثة أيام في الأسبوع فقط!

استطردت بنفس النبرة المنزعجة متجاهلة تمامًا ما قاله للتو:

- ألا يكفي أنك تتركنا في النهار من أجل عملك!

لماذا تشعر أنها قالت مثل هذه الجملة لأحد من قبل؟!!

اتسعت حدقتاه وهو يهتف في غير تصديق:

- لا حول ولا قوة إلا بالله! أتريديني أن أترك عملي أيضًا؟!

- لم أقل ذلك، لكنني لا أستطيع أن أتحمل ابتعادك عن المنزل كل هذا الوقت! الله وحده يعلم كيف تمر عليَّ ساعات النهار الثقيلة بدونك!

انتفض قلبه بغتة عندما استشعر ارتعاشة صوتها وهي تنطق بجملتها الأخيرة والتماع الدموع المكبوتة في عينيها، على الرغم من محاولاتها المستميتة لإخفاء ضعفها خلف وجهها المحمر بالغضب. أسرع يقول في مهادنة بنبرة رقيقة انبعثت صادقة من قلبه المزهو بمدى تعلقها به:

- يا ميري لن أبعد عن البيت كثيرًا. ساعتان على الأكثر هنا على بُعد خطوتين كما كان الحال دائمًا مع أبي وحامد في إدارتهما للوقف ولم يؤثر ذلك قط على حياتيهما وأسرتهما.

عادت تهتف في عناد طفولي باذلة كل جهدها حتى لا تنزلق دموعها:

- لا شأن لي بأحد! لم يختبر أحدٌ منهم ما أعيشه أنا! كفاني ما حُرمت منه! لا أستطيع تحمل المزيد من الحرمان!

ألجمته شففته عليها. يعرف جيداً أن جرحها بسبب اختطاف برلنتي من حضنها لم يندمل بعد وربما لن يندمل أبداً. لكنه لم يتصور مطلقاً أن يكون هناك أي رابطة بين هذا الأمر وبين اشتراكه في إدارة الوقف بما يستلزم ذلك من اقتطاع جزء من الوقت الذي يمضيه معهن! انتزعت من أفكاره وهي تسترسل بنفس النبيرة المعاندة:

- كما أنني لا أستطيع تحمل زيارات أصحاب الحاجات وامتلاء بيتي بهم كما يحدث مع حامد وعمي الشيخ سلامة.

لاحت ابتسامة خفيفة على جانب شفثيه وهو يقول في غير تصديق:

- ترفضين الخير والثواب يا ميري!؟

- أوجه الخير كثيرة، والثواب لم يقتصر على وقفكم فقط.

هز رأسه والابتسامة المتعجبة لم تزال شفثيه وهو يقول:

- وقفنا شئونه كثيرة يا ميري وبعد مرض أبي لن يستطيع حامد أن يديره وحده.

رفعت رأسها نحوه وهي تقول في إصرار:

- ابنه محمد يساعده. ما شاء الله صار رجلاً متعلماً وقادراً على معاونة أبيه.

- محمد سيتزوج وبيتعد يا ميري!

ابتسمت ابتسامة ساخرة وهي تقول في نبرة ذات معنى:

- لن بيتعد يا محمود. زينب لن تتركه بيتعد أبداً وسترى. كما أن حامد يديره بالفعل وحده من فترة!

- نعم وكانت النتيجة هذا الانحدار الذي حدث في ريع الأرض والتقصير في التزامات الوقف!

فأسرعت تهتف في غيظ:

- آه الانحدار والتقصير الذي حدث بسبب أنانيته ودفعت أنا ثمنه أليس كذلك!؟

تفاجأت ميري به ينفعل على غير طبيعته هاتفاً:

- دفعت أنا أيضًا ثمنه معك يا ميري. أليست برلنتي ابنتي أنا أيضًا؟! لكنني كنت أظن أنك ستفهمين كم أن إنقاذ الوقف مما هو فيه أمرٌ يهمننا جميعًا وبهم أبي الذي تعرفين جيدًا أن حياته تدور في فلك هذا الوقف! كنت أظن أنك ستفهمين - أنتِ بالذات يا ميري بعد أن أفضت لكِ بما لم أفض به لأحدٍ غيرك - كم أن هذا الأمر بالتحديد يهمني!

تملمت ميري من تأنيبه هذا الذي تعرف كم هو صادق فيه ومتأثر به. في ظروف أخرى، كان خبر كهذا سيجعل قلبها يحلق في سعادة لأن محمود أخيرًا وجد ما يرد له اعتباره ويشفي جرحه القديم الذي لم يحك لأحدٍ غيرها عنه، لكن الآن! الآن أصبح للأمر أبعاد أخرى لا تستطيع تحملها.

هربت بعينيها من نظراته اللائمة وهي تهتف مستميتة لتحافظ على عنادها:

- نعم أعرف، لكن هذا الأمر صار قديمًا جدًّا. لا يمكن أن تنتصر لماضٍ فات عليه أكثر من عشرين عامًا على حساب حاضرك! على حسابنا نحن أنا وابنتيك! حرام عليك!

صرخت بها قبل أن تنهض وتختفي في غرفة البنيتين صافعة الباب خلفها.

بالرغم من عمق حبه لها وعدم شعوره بنفس الاهتمام القديم بأمر الوقف، إلا أنه لم يستطع أن يمنع إحساسًا ما باللوم نحوها لأنها لم تترث حتى ولو للحظة واحدة للتفكير في مردود عنادها هذا عليه، رغم كل ما تعرفه عن هذا الجرح القديم، وبالرغم من معرفته الكبيرة بسرائرها إلا أنه لم يكن ليخطر على باله قط حجم النار المستعرة بداخلها، والتي دفعته لاتخاذ هذا الموقف الصلب المعاند لتبريدها.

كان يعرف جيدًا عنادها وصلابة رأسها لكنه لم يتوقع أن يصل بها الأمر حدَّ معاودة مقاطعته مرة أخرى ومعاودة الانتقال للمبيت مع الفتاتين في غرفتيهما في الليلتين التاليتين! كانت تحارب بشراسة طواحين هواء لا يراها أحد. تقاوم لتحسين استغلال هذه الفرصة التي وانتهت أخيرًا لتكون متنفسًا لبعض من فورة الحنق التي تغلي بداخلها نحو حامد الذي شارك - ولو حتى بالوساطة فقط - في حرمانها من ابنتها. تطارد هذه اللعنة التي تآبى أن ترحل عن حياتها والتي لا تنفك تباغتها بالانتزاع والحرمان كلما أمنت أو اطمأنت قليلًا لما بين يديها. تتمسك بالاستئثار بكل أوقات محمود الفارغة من عمله لأنها تراها حقًا خالصًا لها في ظل محنتها هذه. وفوق هذا وذاك، كانت مدفوعة بخوف هيبستيري يسحق أعصابها كلما ترددت في أذنيها كلمات زبيدة وتحريضاتها، وكلما تراءى لها مشهد محمود وهو جالس في مبنى الوقفية بينما تمر عليه صاحبات الحاجات من الأرامل والمطلقات، وكل واحدة منهن تحمل على ذراعها صبيًّا، كأنهن يحاولن اصطيداه عن طريق التباهي بقدرة بطونهن على حمل الذكور التي عجزت بطنها عن حمل واحدٍ مثلهم.

عاش محمود اليومين التاليين في نكد موزعًا بين شفقتة عليها وتقهمه لمعاناتها، وبين لومه لها وسخطه على ما تفعله معه ومقاطعته لها بهذه الطريقة الفجة في أمر لا يراه يستحق كل ذلك. ومع اقتراب الأسبوع من نهايته دون أن يستطيع الوصول لقرار وجد نفسه يذهب إلى أبيه مرة أخرى

تتنازع حيرته وخجله مما سيقوله له. تعتمد الزيارة في وقت غياب حامد وانشغال أمه وزينب. أغلق عليهما الباب وأفضى له بما في قلبه كله. استمع الشيخ سلامة لحيرة ابنه بوجه هادئ مبتسم، ثم أجابه بكلمة فاصلة لم يحتج إلى كثير من التفكير قبل أن يتفوه بها:

- نعيمة معذورة ومغلوبة على أمرها. لا يخدعك عنادها وصلابتها الظاهرة. أنت أعلم بهشاشتها الداخلية وتعلقها الشديد بك واحتياجها لك في مثل هذه الظروف بالتحديد. حُرمت من ابنتها وتشعر بشيء من الذنب حيال ذلك. عدم الأمان يكاد يقتلها. ابق بجانبها.

تساءل محمود مندهشاً من بساطة رد فعل أبيه:

- والوقف يا أبي؟! هل سنتركه يضيع!؟

ابتسم الشيخ سلامة ابتسامة تمتلئ بالاطمئنان:

- الوقف لن يضيعه الله أبداً. كما أن الأمر ليس بهذا السوء. يمكن أن تتم معالجته باستشارات تعطيه لحامد ويقوم هو باتباعها.

ثم صمت للحظة قبل أن يستطرد بنبرة من يكفر عن ذنب قديم:

- الوقف يهمني لا أنكر ذلك، لكن حياتكم وسعادتكم كلكم يجب أن تهمني بمثل القدر.

ابتسم محمود في امتنان، فهذا الشيخ الحليم، الذي لم يكن راضياً عن انتقال برلنتي للعيش بعيداً عن بيت أبيها، ولا عن وساطة حامد في الأمر، ولا عن حيادية زبيدة التي غلب عليها إشفاقها من أن يُحرج ابنها الأكبر أمام الجميع عامة وأمام الحاج جلال خاصة، هذا الشيخ كان تفهمه لمحنة ميري وتعاطفه معها وشفقته على ابنه الأوسط من التعاسة التي يمكن أن تصيب زواجه، أكبر بكثير من حبه العميق للوقف الذي كان ولا يزال حجر أساس حياته كلها. نعم تفاجأ محمود قليلاً مما قاله أبوه لكنه صادف ما يميل إليه قلبه؛ فبالرغم مما يشعر به من عتاب نحو ميري، إلا أن هذا الموقف جعله يدرك أنها والبنات صرن أهم ما في حياته، أهم من أي رغبات قديمة أو انتصارات داخلية أو خارجية لن يعوّضه إحرازها عن أن تصاب إحداهن ولو بخدش طفيف. لن يعوضه عن ألا يظل شعور السكينة مخيماً على حياتهم بعد كل ما حدث. خاصة وأن مجرد طلب أبيه وما رآه في عينيه كان كافياً لأن يرد له اعتباره أمام نفسه ويجعله يتجاوز كل ما مضى بأريحية واطمئنان.

في المساء، فتح محمود باب غرفة الفتاتين فوجدها تجلس منكمشة بجانب النافذة بينما شكرية ووداد تعطآن في نوم عميق. انتبهت لقدميه لكنها تجاهلته تماماً. لم تحاول حتى الالتفات نحوه وتظاهرت بالبرود وهي تثبت عينيهما نحو متابعة حركة الشارع دون أن تراها جيداً حقاً. تتحنح قبل أن يقول بنبرة جافة مبتورة كأنه يبلغها بخبر حزين ولا يبشرها بحدوث ما كانت ترغبه:

- اعتذرت لحامد عن المشاركة المنتظمة في إدارة الوقف إلا إن أراد مني استشارة بالطبع.

ألقى كلماته وأغلق خلفه الباب قبل أن يسرع نحو غرفته كأنه يتعجل تبادل الأدوار معها.

نهضت ميري وأخذت تدور في الغرفة وقد اجتاحتها نشوة انتصارٍ أنقذها بعد أن كانت قد بدأت تفكر في إعلان الهزيمة.

من سخرية القدر أن يكون أخشى ما تخشاه - أو الفراق والبُعد - هو سلاحها الوحيد الذي استطاعت أن تشهره لتحافظ على محمود بجانبها ولا تفقده أبدًا! ولما كان الدواء هو عين الداء فقد كانت تحاول التداوي به في حذر خوفًا من أن تفرط في استخدامه فينقلب تدبيرها ضدها، حتى إنها فكرت أن تترك له البيت وتأخذ الفتاتين وتذهب لبيت أبيها حتى يزداد ضغطها عليه ويتراجع عن أمر المشاركة في إدارة الوقف. لم يمنعها عن ذلك سوى خشيتها من أن يأتي الأمر بنتيجة عكسية إن استغلت حمايتها الفرصة وحرصته على شيء ما ضدها، أو أن يعتاد هو غيابها أو يدفعه الفراغ إلى التطلع لغيرها. مئات الاحتمالات المفجعة أصابتها بالشلل فبقيت مكانها متمادية في محاولتها اليائسة حتى لا يكون ما تحاول الحفاظ به على محمود سببًا في بعده عنها وهو أمر يفوق ما تطيقه ويفزعها مجرد التفكير فيه.

مجيئه هذا وقبوله بما أرادت بعد أن كاد اليأس أن يمتلك منها أعاد الحياة إلى قلبها. شعرت فجأة بشوق عارم يغرقها ويدفعها نحوه بلا هوادة. أدركت في تلك اللحظة كم تفنقه وتفنقد السكينة التي تشعر بها معه. أدركت أيضًا كم تشفق عليه لأنها تمادت في معاقبته على أمر برلنتي في غمار معاقبتها لنفسها، حتى بعد أن أسقط عن نفسه قدرًا من الخطأ بمبادرته بالذهاب إلى الحاج جلال، وبعد أن سقط عنه قدر آخر حين كانت الكلمة الفاصلة في انتقال البنت نتيجة لما حدث لرقية وهلعهما عليها. لم تستطع التحمّل. أسرعت تلحق به مدفوعة بمشاعرهما التي تلاطمت متداخلة نحوه وعلى رأسهم شعور بالذنب يطل على استحياء من خلف اشتياقها له.

كان هو قد اندسّ في الفراش مستقرًا على جنبه الأيمن وأغمض عينيه متجاهلاً دخولها خلفه بخطوات متسحبة، مثل قطة جاءت تتمسح في صاحبها ليربت عليها. شعر بها تلتصق بظهره وتسند ذقنها على كتفه قبل أن تهتف في رقة:

- محمود.. ألم أوجشك؟!!

غمغم بكلمات غير مفهومة متظاهرًا باللامبالاة، لكنها أسرعت تقاطعه قبل أن تتحول غمغمته إلى رفض صريح:

- أنت أوحشتني.

التقت بجسده نحوها ورمقها بعباب متسائلًا:

- أوحشتك فتقار قينني كل هذا الوقت؟! -

أسندت رأسها على صدره وهي تقول في نبرة مستعطفة:

- لم أقصد القسوة، لكنك لا تستطيع أن تتخيل مدى احتياجي لك. ساعات النهار تمر كالسنوات حتى تعود. كاد أن يجن جنوني عندما قلت لي إنك ستتركني مساءً أيضًا. سامحني.

طوقت جسده بذراعيها وهي تهتف بأخر كلمة بنبرة متوسلة. كان مصممًا على أن يرد لها جفاءها وخصامها لكنه في تلك اللحظة لا يعرف كيف تبحر تصميمه كأنه لم يكن ساخطًا عليها حتى دقيقة واحدة مضت. رفع ذراعه وطوقها بها ليلصقها أكثر بجسده المشتاق إليها وهو يقول مستسلمًا:

- حسنًا.. لكن لا تفعلي ذلك مرة أخرى مهما كان ما تريدينه مني.

عندئذ رفعت رأسها وثبتت عينيها الزرقاوين الصافيتين في عينيهِ وهما تبرقان بلمعة ماكرة لطيفة كنبرة صوتها:

- في الحقيقة، لدي طلب آخر.

حملق في وجهها وهو يهتف متوجسًا:

- خيرًا؟! -

تغلبت على ترددها وأفصحت أخيرًا عما كانت ترجوه ولم تواتها الشجاعة قبل الآن لتقضي به:

- أريد جهاز «راديو».

(٨)

امتلاً سلم المنزل بحركة دائبة لرجال كثيرين يلتقي الصاعدون منهم محمّلين بقطع الأثاث بالهابطين وقد خلت أكتافهم منها في تواصل لا ينقطع. اندس بينهم رجل يشبههم يحمل على كتفه صندوقاً خشبياً متوسط الحجم وصعد معهم مهتدياً بهم حتى كاد أن يتجاوز شقة الطابق الثالث ويتبعهم نحو الطابق الرابع، لولا أن رفع محمود رأسه وأسرع يستوقفه منبهاً:

- عندك يا أسطى في الطابق الثالث.

همّ باستكمال صعوده لولا أن انفتح باب شقة أبيه فجأة واندفعت نحوه زبيدة موبخة بوجه مكفهر:

- لا فائدة تُرجى منك! أحضرت لها الراديو كما أحضرت لابنة نرجس الجرامافون! على آخر الزمن راديو في بيت الشيخ سلامة!

غالب محمود ابتسامته حتى لا يثير غضبها أكثر من ذلك. ودّ أن يسألها عما يضايقها في وجود الراديو على آخر الزمن بينما أن الجرامافون موجود في البيت منذ أول الزمن ولم تقل شيئاً عنه إلا عندما رحلت منيرة. أه لو عرفت أيضاً أن ميري هي السبب في اعتذاره عن الاشتراك في إدارة الوقف بشكل منتظم! لكنه أثر الصمت بالطبع عن التفوه بأي من الأمرين خاصة عندما تفاجأ بأبيه يقترب منهما متوكئاً على عصاه التي أصبحت لا تفارقه وهو يهتف محتجاً:

- لا تتعلي بالشيخ سلامة! أنت التي لا تريدين الراديو أما أنا فأساعد مع محمود لأستمع إليه.

رمقته زبيدة بدهشة سرعان ما تحولت إلى غيظٍ وهو يجتازها نحو محمود الذي أسرع يسنده في صعوده بخطوات بطيئة أرغمت الصاعدين والهابطين على تجنبها وهما يمرقان بمحاذاتهما. هتفت بإصرار كأنها تريد أن تكون الكلمة الأخيرة لها:

- لا تتأخر.

اتسعت ابتسامة محمود من مناقشات أمه وأبيه التي ازدادت في الفترة الأخيرة لكنه سرعان ما انشغل عنها بالحركة المستمرة حوله. التفت نحو أبيه فاصطدمت أعينهما المحمّلة بنفس النظرة، وأدرك أن ما في نفسه يتردد صداه في نفس الشيخ المسن. نفس المرارة التي داخلته كلما فكر في حقيقة أن حامد، الذي كان السبب الرئيسي في رحيل إبراهيم عن المنزل وزواجه بعيداً عن شقته، هو أيضاً الذي استولى على هذه الشقة ليزوّج فيها ابنه محمد دون حتى أن يستأذن أيهما في هذا الشأن، كأنه حق مكتسب، لكنه صمت كما صمت الجميع في تواطؤ خفي على تجاوز الأمر، وقد ازداد على ذلك تجنّب محمود لإثارة أخيه الذي يعلم جيداً أنه لن يتوانى عن استغلال هذه الفرصة من أجل تقيعه بسبب اعتذاره عن المشاركة في إدارة الوقف، رغم أنه في داخله شعر بارتياح

عارم لبقاء وضع الوقف كما هو وبقاء مقاليدته كما هي في يده هو وابنه، وربما أيضًا استغل الفرصة لتقريبه لأسباب أخرى كثيرة أبسطها شراؤه لجهاز الراديو، لكنه سرعان ما نسي محمود كل ذلك ما إن اجتازا باب الشقة حيث انهمك في تثبيت وضبط الجهاز الجديد على طاولة صغيرة في غرفة الجلوس، بعد أن أخرجه من صندوقه تحت أنظار الشيخ السلامة وثرثرة شكرية التي أخذت تتقافز حولهما في سعادة.

كانت ميري تتحرك بين غرفة الجلوس والمطبخ وغرفتها، حيث تنام وداد، في خفة وسرور كفراشة. تنضح السعادة من عينيها وتفيض على وجهها المشرق وجسدها الممتلئ حيوية وتحفز كأنها تستعد للقاء صديقة بعد سنين من الفراق. وضعت صينية الشاي والحلوى على الطاولة وأسرعت تجلس بجانب الشيخ سلامة لتواصل ما اضطرت للانقطاع عنه بسبب الولادة وما تبعتها من أسابيع قاسية بعد رحيل برلنتي. بدا حموها مشتاقًا لها وهي تتمثل في شكل صديق يزوره كل يوم ليقرأ له الصحف ويناقشه في شئونها. فمنذ أن أقعده المرض كان يجد سلوته في الساعة التي تأتيه فيها ميري لتقرأ له بينما كانت هي تتلهف على هذه المهمة أكثر منه، ليس فقط لحبها الشديد له ولأنه أكثر من يعطف عليها في هذا البيت بعد محمود، ولكن أيضًا لأنها كانت تجد متعة كبيرة في شعورها بالثقة لأنها الأنثى الوحيدة في البيت التي تستطيع القراءة والكتابة، كأنها وجدت أخيرًا ما تتفوق فيه على زينب وما لا تستطيع حماتها أن تجد فيه ما يعيها.

جلس محمود بجانبها بوجه راضي القسما موزع الانتباه بين متابعة المارة في الشارع والاستماع إلى ما تقرأه ميري والتفرج على لعب شكرية التي أخذت تدور في أرجاء الغرفة في حماس شديد. فجأة، توقف كل شيء والتوت الأعناق نحو الصندوق البني الذي أخذ يصدر منه صوت خفيف مبهم مبشرًا بحلول موعد أول بث للإذاعة للمصرية. (32)

اتسعت حدقتا ميري وهي تحملق هائمة في الجهاز بأنفاس مبهورة، ثم خفق قلبها بعنف عندما انطلق فجأة صوت رجالي رخم (33) بكلمتين تردّد صداهما في أذنيها وبين جنبات صدرها:

«هنا القاهرة»

شعرت بالألفة تجتاحها وتسري في شرايينها نحو هذا الصندوق الذي سيصبح ونيس الأيام القادمة. الصديق الذي حدست أنه سيفتح لها نافذة على الدنيا الواسعة ويزودها بالجديد من الأغنيات التي لا تعرف كيف كان يمكن أن تعيش وتواصل حياتها بدونها، والأهم من هذا وذلك، الرفيق الذي سيساعدها على تحمّل كلمات زبيدة ونظرات زينب وسيعينها على التعايش مع فقدان والخيبات بعد أن سلّمت إلى أن هذا هو قدرها الذي لا مفر لها منه دون أن تعلم ما تدخره لها السنوات القادمة.

(لمحة)

خطا إبراهيم ببطء داخل الغرفة نصف المظلمة، مقترباً من الفراش الكبير. على الجانب الأيمن، بالقرب من النافذة، كانت تجلس أمه كالمتكومة. جسدها على حاله من التماسك والصلابة رغم ما غزا شعرها من مشيب لاج من تحت المنديل، ورغم ما احتل وجهها من شحوب الكبر وما اعترأها من أسى في تلك اللحظة. تظاهر بالثبات وهو يدور حول الفراش حتى أصبح بجانبها تماماً داخل البقعة المضيئة جوار النافذة، فاتضحت الشعيرات البيضاء المنتشرة في سوائفه وهو ينحني ليقبل يدها ثم جبهتها الباردتين. عاد يدور حول الفراش حتى توقف على الناحية الأخرى بجانب أبيه المضطجع في هدوءٍ مخيفٍ. بدا رأسه صغيراً متضععاً بعد أن تساقطت معظم خصلات شعره الأشيب وشحب وجهه كقطنة بيضاء بينما انزوى جسده النحيف وذبل تماماً. وحين انحنى إبراهيم ليقبل يده ورأسه لم تستطع زبيدة أن تتحمل أكثر من ذلك فانفجرت تهتف متظاهرة بالغضب بينما دموعها تسبق كلماتها:

- لا تذهب يا إبراهيم. أبوك جاوزَ الثمانين وأصبح في حاجة إليكم كلكم بجانبه. ألا يكفي أنك تعيش بعيداً عنا؟! وأنت نفسك؟! لقد بلغت الخمسين! الشباب الذين تطوعوا للسفر كثيرون، لن ينقصهم شيء إن لم تذهب أنت.

تململ إبراهيم في حرج دون أن يجد ما يجيبها به. أسرع الشيخ سلامة ينقذه من تحرُّجه عندما هتف بصوت ضعيف متحشرج وابتسامة واهنة تلوح على شفثيه البيضاءتين:

- اسكتي يا أم حامد. إنقاذ المسجد الأقصى واجب علينا وإبراهيم وحده يحمله عنا جميعاً.

هتفت زبيدة منفعلة وصوتها يخنتق بالبكاء:

- أصبح عنده ولدان يا شيخ سلامة!

- سيعود إليهما بطلاً بأمر الله.

قالها وهو يتأمل وجه إبراهيم بعينين يلوح بهما الفخر والتشجيع رغم ما اعترأهما من انطفاء. بادله إبراهيم نظراته بتأثر وحب بالغين. تقلص قلبه فجأة داخل صدره حين صفعته فكرة أن هذه ربما تكون آخر مرة يرى فيها أباه؛ فهذا الوجه مشرق بنور الاطمئنان، لكنه أيضاً شاحب شحوب الموت. ومن يعلم؟! ربما تكون هذه هي آخر مرة بالفعل ولكن لأنه هو الذي سيسبق أباه إلى الرحيل الأبدي.

أمام باب الغرفة، كان محمود واقفاً ينتظره. وما إن خرج حتى تحامل ليرسم على شفثيه ابتسامة اطمئنان وتشجيع لا تعبر سوى عن جزءٍ يسير مما يعتمل بداخله من مشاعر متداخلة. حب وعطف وخوف وفخر وغبطة، المزيج المتشابك الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيال إبراهيم سوى أن يحس

به هكذا. كلما قفز شعور واحد إلى قلبه حتى أسرع بجذب الباقيين كأن إبراهيم بالنسبة له أكبر من أن يحتويه شعور واحد.

بادل إبراهيم ابتسامته بابتسامة مضطربة قبل أن يتجه نحو إحسان المنهارة في بكاء حاد بين ذراعي ميري. أبعدت نفسها عنها لترتمي بين ذراعيه حيث ارتفع صوت بكائها وأصبح شيئاً كالتأوهات المكتومة. ضمها إبراهيم إلى صدره بقوة ثم قبّل جبينها في حنان. أبعدا يرفق حتى يصافح ميري التي شددت على يده محاولة كبت دموعها والتظاهر بالتماسك. لو تركت لنفسها العنان لبكت مثل إحسان وربما أكثر. لو لولت وصكت وجهها وانتحبت حتى انقطعت أنفاسها أمام هذا الافتراق الذي نكأ جراحاً قديمة كانت تظن أنها قد نأت بنفسها عما يمكن أن يسببها مرة أخرى، لكنها تحاملت على نفسها حتى تظل ثابتة ومحتوية لإحسان التي لم يكن هناك مفر من انهيارها أمام ما يحدث.

- تماسكي يا نعيمة. أريدك خير سند لمحمود في جملة، فقد تركت بثينة والولدين أمانة في عنقه.

قالها إبراهيم مبتسماً بنبرة تتظاهر بالشجاعة، فتحاملت ميري على نفسها وأومات مبتسمة لتطمئنه على تماسكها هذا الذي أوصاها به بينما كانت تشعر في تلك اللحظة بالتحديد أن كل قواها تتلاشى بداخلها.

- أين وداد؟! -

- في المدرسة.

بدت الخيبة على وجه إبراهيم قبل أن يقول في استسلام:

- خسارة. بلغيتها تحيّي وبلغني أيضاً برلنتي وشكرية وابنها «المفعوص» هذا.

عادت ميري تومئ بعينين مغرورقتين، بينما اتسعت ابتسامة محمود الواقف خلفه يتابع الحديث بأعصاب مضطربة لم يهدئها قليلاً سوى إسراع إبراهيم بتحية الباقيين متعجلاً انتهاء الموقف وما يسببه من ثقل في صدره. صافح محمد وزوجته وطلب منهما أن يبلغا الأولاد تحيته كما فعل مع بنات محمود. وأخيراً صافح زينب التي بدت في تلك اللحظة متحرجة من غياب حامد لكنها لم تتقوه بكلمة واكتفت بابتسامة باهتة.

هبط إبراهيم السلم وخلفه محمود يحمل له حقيبه. وقفا أمام باب المنزل ينتظران السيارة التي تحمل رفاق إبراهيم والتي ستحملة معهم إلى نقطة التجمع مع باقي المتطوعين الذهابين إلى فلسطين. سرت بينهما لحظة صمت مشحونة بالتوتر قطعها محمود محاولاً التظاهر بأنه يلقي سؤالاً طبيعياً:

- كيف حال بثينة؟! -

زفر إبراهيم وهو يهتف في نبرة لا تخلو من ضيق رغم ما بها من استسلام:

- حالتها سيئة لكنها تتظاهر بالتماسك.

- لماذا لم تأتِ معك؟!!

لاحت على شفتي إبراهيم ابتسامة مريرة وقد بدا في صوته ما يكابده من خذلان:

- كنت أظن أن حامد سيكون موجودًا لذا أثرت أن أودعها هي والولدين في البيت ولا آتي بهم حتى لا تحدث مشاكل.

ندم محمود على سؤاله بعد أن رأى ما حلَّ بوجه أخيه وأدرك ما جيَّشه استفساره البريء من مشاعر الخيبة بداخله. أسرع يقول محاولاً معالجة اللحظة وبث شيء من الاطمئنان في نفس إبراهيم:

- اليوم آتي بثلاثتهم ليتعشوا معنا.. لا ذنب لمصطفى وعبد العزيز في سخافات الكبار.. يجب أن يزورا جدهما وأعمامهما كثيرًا ويجب أن تكون أهمهم معهما حتى لا يشعرا بأي غرابة.

رفع إبراهيم نحو محمود عينين تمثلنان بالدهشة والإعجاب بهذا الموقف الجريء المخالف لطبيعة أخيه الكبير! لاحظت على شفتيه ابتسامة متأثرة ثم قال وهو يرمق محمود بنظرة تقطر بالعرفان:

- لقد كنت دائمًا خير أخٍ لي يا محمود.

أصابته كلمات إبراهيم ونظراته في صميم قلبه. شعر بفواده يرتج بداخله متخبطًا في موجة حنان عاتية كادت أن تسيل دموعه المحبوسة بأعجوبة، لكنه أسرع يتمالك نفسه ويزفر مجيبًا بنبرة مازحة يخفي بها الأسى المترسخ بداخله:

- لا دعي للمجاملة يا إبراهيم.. أنا أعرف أنني لم أكن يوماً سوى الأخ الذي يخذلك.

حده إبراهيم بدهشة سرعان ما تحولت إلى انزعاج. همَّ بأن يجيبه مدافعًا في انفعال لولا أن اقتحم موقفهما جعفر خادم المسجد القديم الذي أسرع يحتضن إبراهيم في لهفة، بيد بينما اليد الأخرى متوكئة على عصا أصبحت لا تفارقه. جفل إبراهيم من الحزن المفاجئ لكنه أدرك الأمر سريعًا فمد ذراعيه يحوط بهما الرجل ليحتضنه ويسند جسده المتهالك. ذوى جعفر وركبه الكبر حتى صارت عرجته شبه معيقة لحركته فأعفاه حامد من الخدمة وطلب منه البقاء في بيته حيث يرسل له معاشًا شهريًا مماثلًا لراتبه.

أسرع محمود يتساءل في ضيق:

- ما الذي أتى بك يا عم جعفر؟! يجب أن ترتاح!

ربت جعفر على كتف إبراهيم وهو يقول:

- لا راحة لو كان فاتني أن أرى الغالي قبل رحيله. ستعود يا ولدي إن شاء الله. اسم جدك سيدي إبراهيم سيحفظك ويعيدك سالمًا غانمًا بأمر الله.

ابتسم إبراهيم وهو يجيبه في تأثر:

- إن شاء الله يا عم جعفر.

- هيا يا عم جعفر. عد إلى بيتك وأنا سأتي لأزورك في المساء كالمعتاد بإذن الله.

لكن ما أن أنهى محمود كلمته حتى وجد جعفر يهتف في إصرار:

- أريد أن أرى أباك.

مط محمود شفتيه في ضيق قبل أن يستسلم لطلب الرجل راقًا لضعف حاله. مد رأسه داخل باب المنزل المفتوح منادياً على محمد الذي هبط مسرعاً فطلب منه أن يسند جعفر حتى يدخله ليزور الشيخ سلامة المُقعد في فراشه.

تحرك جعفر ببطءٍ مستنداً على يد محمد ثم رمقه متسائلاً وقد خانت ذكرته:

- أنت ابن من؟!!

- أنا ابن حامد يا عمي جعفر.

فزفر جعفر هاتقاً في شكوى:

- أبوك لا يزورني! تعال أنت زرني مع عمك محمود. هو الوحيد الذي يزورني بانتظام.

كان صوته يتباعد أثناء صعوده بينما كلماته تتردد بينهما كأنها صدى لنظرات إبراهيم الذي عاد يركز عينيه على محمود وقد هدأ انفعاله وتحول إلى لوم هادئ له على ما قاله. زفر قبل أن يتلفظ كلماته ببطء، كأنه يريد أن ينفذ بهن إلى قلب محمود فيمحو منه هذا الأسى العظيم الذي استشفه من نبرته المتألّمة، رغم ما بها من مزاح مفتعل:

- كلنا كنا أنانيين بشكل أو بآخر، أنا وحامد وإحسان، سواء كان ذلك عن حق أو عن باطل أو حتى عن غفلة. لكننا في النهاية فعلنا نفس الشيء. كل منا لم يكن يرى أمام عينيه سوى ما يريده دون أن يلتفت لأي شيء آخر. حتى أبي وأمي لم يعدما شيئاً من الخطأ. حتى وإن كان ذلك عن نية طيبة ورغبة في الحفاظ على استقرار البيت، لكنه كان في النهاية خطأ يتسم بشيء من الأنانية، لكن

أتعرف ما الذي حفظ استقرار هذا البيت حقًا في مواجهة كل ذلك؟ ما الذي حافظ على توازنه كل هذه السنوات رغم ما عصف به؟! أنت يا محمود.

خفق قلب محمود وهو يتأمل أخاه غير مصدق أنه ينول منه مثل هذا التقدير بينما أوما إبراهيم مبتسمًا وهو يستطرد:

- مجرد وجودك الهادئ. مجرد تمسُّكك ببقائك في البيت دون أن تكون طرفًا في أي صراع. قلبك الطيب الحنون وكلامك الرقيق. كل هذا كان مثل رمانة ميزان تحفظ للبيت ولنا كلنا توازننا. كأننا كنا كلنا نعمن في عنادنا وتهورنا وابتعادنا لأننا نعلم أن وجودك يعوض كل ما فعله. (ثم اتسعت ابتسامته في حرج) نعم كنت أمقت أحيانًا كثيرة سلميتك المفرطة، لكن صدقني، كنت أبغضها لأثرها السلبي عليك وليس على أي أحدٍ منّا.

ثم صمت للحظة قبل أن يقول في صدق:

- كلنا خذلنا بعضنا البعض يا محمود، لكن أنت إن كنت قد خذلت أحدًا، فلم يكن هذا سوى نفسك.

كان محمود لا يزال يتأمل إبراهيم بقلب مضطرب يتخبط بين عدم التصديق والارتياح والحب والامتنان. كم هو ممتن لأخيه الصغير الذي يحمل له في صدره ما لم يحمله لأحد من قبل. كم هو ممتن لما قاله الآن. لهذا التقدير الذي لا يعرف - بينه وبين نفسه - إن كان يستحقه حقًا أم لا. لكن مجرد تقوه إبراهيم به، إبراهيم بالذات، كان كأنه ممحاة محت كل خيبات الماضي أو سراج أضاء له جانبًا في نفسه لم يلتفت إليه من قبل!

لم يسع الأخوان سوى أن يحتضنا بعضهما البعض وقد جاهد كلُّ منهما ليكتم دموعه خاصة عندما ظهرت السيارة القادمة من أول الشارع. توقفت العربة أمامهما وهبط منها شاب حمل حقيبة إبراهيم ووضعها في الداخل ريثما ينهي الأخوان عناقهما. شد محمود على كتفي إبراهيم مشجعًا قبل أن يفلته ليركب في الأريكة الخلفية بالسيارة وهو يرمقه وقد بلغ به التأثر درجة لم يبلغها من قبل.

وقبل أن تتحرك السيارة بثوانٍ أخرج إبراهيم رأسه من النافذة هاتقًا في تلجلج:

- أوصل سلامي لحامد. قل له إنني سأفتقده كثيرًا.

ألقي كلمته وأسرع يخفي وجهه والسيارة تتحرك تحت أنظار محمود الذي استغرقته عدة لحظات قبل أن يدرك ما حدث للتو! أصابته دهشة شديدة سرعان ما تراجعت أمام موجات تأثره الذي عاد يغمره ويزلزل قلبه.

صعد سلال المنزل بتمهل معطيًا لنفسه فرصة كافية للسيطرة على دموعه. يجب أن يحبسها جيدًا حتى ينفرد بنفسه. حينئذٍ سيطلق لها العنان منفثًا عما يعتمل في صدره من مشاعر متناقضة

متصارعة يكاد صدره أن يضيق بهم. سيحاول فصلها عن بعضها البعض، يعيد ترتيبها وفحصها وردّها لجذورها في كل أحداث أعوام عمره الأربعة وخمسين. ربما يهدأ ويرتاح قليلاً.

لكنه في تلك اللحظة لم يحسب حساب ما كان ينتظره في الشقة. فما إن فتح الباب حتى طرق أذنيه صوت أم كلثوم وهي تترنم بجمالها «غير اللي يتمناه قلبي» يتخللها صوت شهقات ميري. هرع نحو غرفة الجلوس فوجدتها جالسة في مكانها أمام النافذة وجسدها الأربعيني الممتلئ في تناسق يرتعش وقد أفتحها البكاء وحول عينيها وقسمات وجهها إلى قطعة واحدة منتقخة في احمرار. أسرع يجلس ملتصقاً بها وهو يحتويها بذراعيه محاولاً تهدئتها. ارتفع صوتها بالتأوه وهي تهتف في شبه ولولة:

- كنت أظن أنني سددت كل ما عليّ للحرب! ألا يكفيها ما أخذته مني في الماضي! سرقت طفولتي واطمئنان قلبي. حرمتني من خالتي رقية وآيسل صديقة عمري. لماذا تعود وتختطف مني الغاليين هكذا بعد كل هذه السنوات، وبعد أن كنت قد أمنت شرّها وظننت أنني ابتعدت عنها! يا رب هل تتقصني الحرب أيضاً!

لم يكن يعرف ما يدور بخُلدها بالضبط ويجعلها تتقوه بهذا الكلام، لكنه كان يعرف جيداً مدى حبها وتعلقها بإبراهيم، كما كان يعرف ما قاسته في طفولتها وما رأت من مذابح وفواجع لا تزال تزورها في يقظتها وأحلامها حتى الآن.

- اهدهني يا ميري.. إبراهيم لن يصيبه إلا ما كتب الله له.. إن كتب له الحياة فسيعود حتى وإن خاض ألف حرب قبل ذلك.

فأجابته بنفس النبرة المولولة:

- حتى إن عاد.. سيعود إبراهيم آخر، سيعود مثقلاً بما سيغيّره.. صدّقني.

لم يعرف بما يجيئها فصمت مفضلاً التريبت برفق على كتفها بينما رأسها ملتصقة بذقنه حتى تهدأ بالتدريج. ظل بها حتى كفت عن البكاء إلا من شهقات خافتة منقطعة تلتقط بها أنفاسها. مدت يدها تمسك برأسها وقد ركبها من البكاء دواراً زحف على بقية جسدها فخر أطرافها وضرب معدتها بغثيان حاد. نهضت إلى الحمام بينما بقي محمود مكانه يتابع حركة الشارع وابتسامه ساخرة تلوح على شفثيه بعد أن شغلته محاولاته لتهدئة ميري عن نفسه. تبخرت دموعه التي كان يمني نفسه بذرفها حين يجلس متوحداً يجتر أفكاره ويرصها بجانب ما قاله له إبراهيم اليوم، مستلذاً أو متألماً لا يهم، المهم أن يطلق العنان لمشاعره دون ما كان دوماً يعتوره من خجل حيالها. ضاعت الفرصة لكنه لم يشعر بالأسف كثيراً لذلك، كأنه يستمتع بمراقبة نفسه فيما اعتاد فعله دائماً - التحامل على نفسه من أجلهم - لكن بعينين جديدتين، عينا ما قاله إبراهيم.

انتبه عندما أقلت ميري فجأةً شبه مهرولة بوجه ممتنع. اعتدل في جلسته مستقبلاً إياها في تساؤل متوتر:

- ماذا بك يا ميري!؟

وقفت تحاول أنفاسها المبهورة وهي تنطق في عدم تصديق:

- محمود.. لدي شك في شيء غريب!

في المساء، ذهب محمود ببالي مشغولٍ إلى شقة إبراهيم لينفذ ما وعده به في الصباح قبل رحيله. حاولت بثينة التمتع في البداية وطلبت منه أن يأخذ الولدين فقط ويعيدهما بعد أن يتعشيا مع جدتهما، لكن محمود أصرَّ في عناد غريب حتى استسلمت وذهبت معهم.

الترم حامد بالتواري في شقته كما توقَّعوا، لكنه - ولدهشتم - ترك زينب ومحمد وأسرته الصغيرة يشاركون الباقين في استقبال بثينة التي جلست متحرجة ومأخوذة من هذه الحفاوة التي وجدتها فجأة في بيت لم تخط داخله إلا مرة واحدة قبل أربعة عشر عامًا! حرص محمود طوال الجلسة على أن يدفعها برفق لتتخلى عن انكماشها وتوترها. ساعده في ذلك اندماج مصطفى وعبد العزيز سريعًا مع أبناء محمد وانطلاقهم في اللعب والركض مالتين أركان البيت بالمرح تحت أعين الكبار المتحسرة على ضياع السنوات الماضية في حرمان من هذا الدفء، بينما كان إبراهيم موجودًا بينهم لا يزال.

وعندما جلسوا إلى العشاء حول الطبلية بعد أن خلد الشيخ سلامة إلى النوم، أسرع محمود يُجلس عبد العزيز الصغير في حجره، ثم أخذ يحايله حتى يكف عن البكاء بسبب انقطاعه عن اللعب وهو يطعمه بيده. راقبته ميري وهو يهدد الصغير وقلبا يفيض بحب لم يؤثر فيه مرور السنوات، وامتنان تجدد في الصباح بعد أن استطاع أن يحتوي فزعها - كعادته - ويهدئ من روعها كأن ما قالته له لم يذهله كما أذهلها وأكثر. التقت أعينهما في لمحة خاطفة فافتر ثغره لها عن ابتسامته مطمئنة حين أدرك ما يدور بخلدها. تتحنح ليجذب انتباه الجالسين قبل أن يقول وقد اتسعت ابتسامته في شيء من الزهو البريء والخل مما سيقوله وعيناه مثبتتان عليها:

- عندنا لكم خبر سعيد.. ميري تظن أنها حامل.

اتسعت الأحداق في دهشة سرعان ما تغلبوا عليها حين بادرت بثينة بإلقاء مباركاتها في سعادة حقيقية. تبعتها زينب محاولة مواراة استغرابها وشيء من الحسد لاح في عينيها، بينما تبارى محمد وزوجته ومعهما إحسان وأسرتهما في تقديم مباركات تلقنتها ميري في خجل حقيقي. كادت أن تتخلص من الحرج الذي ركبها منذ شكَّت في الأمر وأن تُخلص فكرها ليسعد بهذه الهدية التي لم تكن على بالها بالمرّة، لولا أن قطعت زبيدة هذه البهجة حين انبرت فجأةً تتمم بنبرة ذات معنى:

- مبارك يا بني.. من يعرف؟!.. ربما تكون هذه هي المرة التي تجبر خاطرنا وتأتي بالصبي.. لكن هل يعقل أن تأتي البطن وهي عجوز بما لم تأت به في شبابها؟!!

ألجمت الصدمة ألسن الجميع. أسرعوا يتحاشون التقاء أعينهم بعيني ميري التي امتنع وجهها وهي تضغط شفثيها محاولة السيطرة على موجة من الحرج الطاغي زلزلتها بعنف. همّت وداد بالرد على جدتها في احتجاج لولا أن ضغطت ميري على معصمها لتصمت، بينما تغلب محمود أخيراً على صدمته وهو يحاول التخفيف من وقع كلمة أمه بنبرته المتلطفة:

- صبي أو بنت.. لا يهم.. الله لا يأتي سوى بالخير.

مصصت زبيدة شفثيها ثم هتفت في حسرة وهي ترمق عبد العزيز الصغير المستقر في حجر محمود يأكل بشهية كأنه لم يكن يبكي منذ قليل:

- ونعم بالله.. لكن خسارة قدرتك على تربية الصبية تذهب هباءً هكذا!

كاد محمود أن يذكرها بأن قدرته التي تدعيها تلك لم تذهب هباءً لأنها ساعدته في تربية حسين وعلي، لكنه تراجع في آخر لحظة خوفاً مما يمكن أن تجلبه سيرة ابني منيرة من مزيد من التوتر. أثر الصمت مطأطأً كالعادة لموجة جديدة من موجات سلوك أمه المعتاد في حدته مع ميري، يساعده دائماً في ذلك تحاشي ميري الدائم لمصادمة أمه مهما حاولت استقزازها، وهو ما قابله دائماً بامتنان كبير رغم أنه لم يستطع قط أن يفهم لماذا في هذا الأمر بالتحديد تتعامل ميري بما يخالف طبيعتها تماماً!

التفت نحوها محاولاً استرضاءها بعينيه حتى يتاح له الاختلاء بها بعد ذلك فيقوم بمصالحتها كما ينبغي، لكن ميري كانت مأخوذة بمراقبة الصغير في انسجامه التام مع محمود وكلمات زبيدة تبذر بداخلها بذرة خفية.. بذرة لم تشعر بها في تلك اللحظة، ولم تكن تعلم أن ما سيحل بهم في الأشهر القادمة سيسقي هذه البذرة بالقلق، حتى تكبر في قلبها كشجرة سامة تمرر حياتها وتعيد تقليب مخاوفها ومواجعها القديمة.

- صيف ١٩٤٨ -

القاهرة

(١)

أحكمت المرأة سد فوهة الفنجان بطبقه الصغير قبل أن تعدلها معًا ليعود الفنجان إلى وضعه الطبيعي فوق الطبق لكن بشكل مقلوب. ألصقتها جيدًا بأنامل يmanها وأخذت تحركها في دوائر متصلة بسرعة واحترافية. توقفت بعد لحظات ورفعت الفنجان ببطء ثم ضربت حرفه بحرف الطبق ضربتين رفيفتين حتى تتخلص من النقاط العالقة بحافته. وضعت الطبق الممتلئ بثمالة القهوة أمامها على الطاولة بحرص قبل أن تعود بجذعها إلى الورا مرة أخرى مركزة عينيها على حوائط الفنجان الملطخة ببقايا البُن بتركيز شديد.

لم يكن الجو حارًا كما ينبغي له أن يكون، فالنافذة الواسعة المفتوحة خلفهن سمحت لبعض نسيمات الحديقة الباردة بالتسلل بين الحين والآخر، ملطفة الركن المنزوي الذي اخترنه دون غيره من أركان الصالة الواسعة لعقد جلستهن المعتادة. جلسة نسائية أصبحت عادةً تتكرر في بيت رقية كل أسبوع أو أسبوعين خلال الأعوام الماضية. تجلسن بنفس الترتيب كل مرة حول طاولة عامرة بالحلوى والمكسرات وأدوات القهوة. رقية على المقعد الوثير على يسار الداخل، وميري في منتصف الأريكة الملاصقة لها بينما تستقر بينهما دائمًا تلك المرأة التي أصبحت ركنًا أساسيًا في حياة رقية. تقضي لها حوائجها وتسليها بالنميمة وقراءة الفنجان وفتح «الكوتشينة».

تعلقت أعين الأختين بالمرأة اللحيمة ذات الجسد المدكوك في جلباب رخيص مزركش باللونين الأصفر والبني في غير تناسق مع منديل رأسها الأسود. ذراعها المدملجة مسنودة على بطن عظيمة تستقر مطمئنة في حجرها لتساعدها على تقريب يدها الممسكة بالفنجان إلى وجه متراحم الملامح وعينين ضيقتين.

- ما أعجب فنجانك اليوم يا أم شكرية؟!

هتقت بها متعجبة فرمشت أهداب ميري في قلق بينما أسرعت رقية تستحثها وقد نفذ صبرها:

- تكلمي يا نابلسية قولي ماذا ترين؟!

صمتت نابلسية للحظات كأنها تتأكد من استحواذها الكامل على فضولها ثم بدأت تصف في ببطء دون أن ترفع عينيها عن الفنجان:

- أرى فرسًا أبيض مثل البدر يسابق فرسة سوداء كالليل!

تبادلت الأختان نظرات مضطربة ذات معنى قبل أن تتساءل ميري في توتر:

- مَن منهما سبق يا نابلسية؟!

- لا أحد! كلما سبق أحدهما أسرع الآخر يحاذيه ويسبقه. هكذا بشكل مستمر، لا غالب ولا مغلوب!

وضعت ميري يدها على بطنها المنتفخة تحت ثوبها الأسود بشكل لا إرادي عندما أحست بركلة تضرب أحشاءها، كأنَّ الجنين يحتج على تدخُّل نابلسية بنبوءاتها فيما يخصه. كلامها واضح بالطبع لا يحتاج لتفسير. الفرس والفرسة ليسا إلا النوعين المحتملين للمولود المنتظر والسباق بينهما ليس إلا صورة لسباق آخر يجري لا تعرف أين؟! ربما هنا داخل رحمها أو ها هناك في السماء بين قدرين لم يغلب أحدهما الآخر بعد!

جذبت نابلسية انتباهها مرة أخرى وهي تهتف في اهتمام مواصلة قراءة تلك الصحراء البنية الصغيرة وما تمتلئ به من خطوط وتعريجات:

- إنهما يتسابقان على شاطئ! أمام بحر!

عقدت ميري حاجبها وهي تتساءل في تعجب «بحر؟!» بينما استطردت نابلسية دون أن يبدو عليها أنها قد سمعت سؤالها المستنكر أصلاً:

- بحر يمر بجانب قبة كبيرة!

عندئذ رفعت نابلسية عينيها عن الفنجان وأسرعت تعيده مقلوباً فوق الطبق وهي تهتف بنبرة حاسمة:

- وضحت يا أم شكرية! أصبح الأمر واضحاً مثل الشمس! حاجتك لن يقضيها إلا أن تذهبي بنفسك إلى السلطان.

انبرت رقية تتساءل بنبرة هازئة:

- سلطان مَن يا ولية؟!

ثم أسرعت تنظر نحو ميري كأنها تستوثق من أنها لم تتدفع بقول ما يشي بجهلها:

- أليس مولانا ملكاً؟!

- أنا لم أقصد مولانا يا ست رقية! أنا قصدت سلطان الإسكندرية.

ثم التفتت نحو ميري مستطردة في تحريض:

- سيدنا المرسي الذي تعيش أسرة الشيخ سلامة رحمه الله ببركته وبركة سيدي إبراهيم.. شي لله يا أبا العباس.

قالتها وهي ترفع عينيها نحو السقف كأنها تنفذ ببصرها من خلاله إلى السماء بينما لم تستطع ميرى أن تسيطر على استنكارها وهي تجيب في عدم تصديق:

- ماذا تقولين يا نابلسية؟! تريدني أن أطلب من محمود أن نذهب إلى الإسكندرية الآن في مثل هذه الظروف التي نمر بها وأنا هكذا على أخرى.

أشارت إلى بطنها الممتلئة بجنين لم يبقَ على خروجه للعالم إلا شهران بينما أسرعت نابلسية تعتدل في جلستها لتواجهها وهي تهتف متوسلة في دعر:

- لا يا أم شكرية. لا مزاح في هذه الأشياء! سيدنا أبو العباس يناديك ولا تلبين!؟!

شهمت في فزع مما تقوهت به للتو قبل أن تستطرد مغمضة العينين كأنها تتلافى رؤية شر يحدق بها:

- اللهم احفظنا من الإعراض عن أولياء الله وعواقبه! القطب الأعظم أرسل لك إشارة ولا مفر من الذهاب إلى عتبه!

تملمت ميرى في جلستها وهي تقول في قلة حيلة:

- محمود لن يقتنع يا نابلسية! أنا سأدعو وأتوسل لسيدنا المرسي من هنا وسأخرج له الصدقات وأذهب للحسين ورئيسة الديوان والسيدة نفسية. ألا يكفي ذلك!؟!

هتفت نابلسية في امتعاض:

- الشيخ البعيد سره باتع. كما أن الأمر لا يقتصر على الدعاء والصدقات.

عادت الحماسة تحتل صوتها وهي تشرح لرقية التي اتسعت عيناها في اهتمام:

- يجب أن تمسح على ضريحه وتلقي له بحجاب مخصوص وتكنس بيديها العاريتين أرض المقام وتقلب السجاجيد المحيطة به حتى تنال مرادها.

انتفضت ميرى وهي تهتف كالمسوعة:

- ما هذا؟! لا لا. لن يقبل محمود أبدًا بذلك! حتى وإن وافق واصطحبني للإسكندرية لن يتركني أفعل ذلك داخل المسجد!

خرجت رقية عن صمتها وهي تقول محرصة:

- تصرفي! افعلي ذلك سريعاً وهو يصلي دون أن يراك. أنا لو مكانك ما تركت وسيلة إلا وجربتها لأنال ما أتوق إليه! والله لو كان قيل لي أن أفعل ذلك عندما أخبرني الأطباء أنني لن أنجب لما تأخرت عن فعله!

- وما المانع يا ست رقية؟! اذهبي مع أم شكرية وسأصنع لك حجاباً أنت أيضاً!

رمقتها رقية بنظرة موحية وهي تقول بنبرة مكشوفة:

- حجاب ماذا يا ولية؟! الحجاب سيجعلني أحمل والرجل هجر فراشي من زمن؟!!

ضربت نابلسية صدرها وهي تعتذر في توسل:

- يقطعني يا ست رقية نسيت! (ثم فكرت لحظة قبل أن تستطرد غامزة بعينها) تاهت ووجدناها! أصنع لك حجاباً يعيده إلى فراشك من رقبتك.

أطلقت رقية ضحكة عالية قبل أن ترفع كفيها أمامها كأنها تردع شراً:

- لا يا أختي لا أريده أن يعود ولا أريد أن أرى وجهه. كفاك الحجاب الذي ستصنعيه لستك نعيمة.

عادت نابلسية تلتفت نحو ميري مرة أخرى فوجدتها غارقة في تفكيرها. استشفت من قسماتها بوادر اقتناع فأسرت تتساءل بنفس النبرة المحرصة:

- ماذا قلت؟! أصنع لك الحجاب؟!!

أخذت ميري تتأملها في صمت لا تدري ماذا تقول عندما تفاجأت برقية تحسم الأمر بأن اختطفت كيس النقود الموضوع أمامها قائلة:

- نعم يا نابلسية اصنعيه.

أسرعت ميري تهتف معترضة:

- انتظري يا رقية. أنا لست متأكدة من أنني سأستطيع الذهاب!

- لا يهم. دعها تصنعه. لن نخسر شيئاً. كم تريدين يا نابلسية؟!!

أخفت نابلسية ابتسامتها وهي تجيب متصنعة التهذب:

- ما تجودين به يا ست رقية ويكفي دسوقي عرضحالجي المحكمة الشرعية الذي سيكتب الحجاب والشيخ صبرة الذي سيقراً ويعزّم عليه.

أخرجت رقية حفنة من عدة ورقات وضعتها في يد نابلسية قائلة:

- خذي بزيادة وأصليه لستك نعيمة حتى باب بيتها.

دست نابلسية النقود في صدرها وهي تشير نحو عينها اليمنى ثم اليسرى في إشارة للطاعة التامة.

تابعت ميري ما يحدث أمامها كالمتفرجة التي لا شأن لها بما تشاهده. عقلها مشلول تماماً ومشتت بين يقينها من أن محمود لن يوافق على السفر في هذه الظروف التي لم يكن أصعبها وفاة الشيخ سلامة من شهر تقريباً، وبين صوت داخلي يوسوس لها بأن الندم مصيرها المحتوم إن لم تلبّ نداء القطب الأكبر. الولي معلم الولي جد بناتها كيف تجرؤ على التخلف عن الذهاب له؟! خاصة إن كان ذلك من أجل أمنية عزيزة كان يأسها قد أنساها حتى إنها يمكن أن تقترب منها مرة أخرى!

استغرقت في أفكارها ومخاوفها منصرفه عن أحاديث رقية ونابلسية حتى جذب انتباه ثلاثتهن فجأة صوت نفير السيارة الذي ارتفع بالخارج معلناً عن عودة الفتاتين.

(٢)

حكبت نابلسية الملاءة السوداء حول وسطها وأسرعت تغادر قبل دخول الفتاتين بدقيقة متبوعتين بالسائق الذي وضع كومة من أكياس وعلب صيدناوي على المقعد المواجه لرقية ثم انسحب في تهبذب.

أسرعت الصغيرة ذات الأربعة عشر عامًا تبحث في الكومة بسعادة وحماس حتى اختطفقت علببة بعينها ثم ركضت نحو غرفة تقع تحت السلم المؤدي للطابق الثاني واختفت بداخلها. كانت تبدو سعيدة في نرق ومندففة نحو كل ما حولها بانبهار عارم. على العكس منها، بدت الفتاة الكبيرة أكثر رزانة وثقة مبعثهما - إلى جانب أعوامها العشرين - ألفتها لهذه الحياة بكل تفاصيلها بل واعتيادها عليها حد الملل في بعض الأحيان.

انحنت لتلثم خد رقية قبل أن ترتمي جالسة بجانب ميري مطوقة جسدها المنتفخ بذراعيها ومستكينة إلى حضنها. أحاطتها ميري بذراعيها لتلصقها بها أكثر وهي تهتف في تأنيب ليس ثمة صدى حقيقي له في نفسها:

- لماذا تأخرتما يا برلنتي؟! -

قاطعتهما رقية هاتفة في نبرة لا تخلو من لوم:

- نبيلة يا ميري.. نبيلة.

لا يهم كم مرة تنادي ميري ابنتها باسمها الحقيقي، ولا كم مرة تُذكرها رقية لائمة باسمها الجديد، فلا هذه تكف عن استخدام اسم برلنتي ولا تلك تتوقف عن إصرارها على اسم نبيلة. والحقيقة أن أيًا منهما لم تكن تفعل ذلك إلا بحكم دوافع نفسية دفينة لا أساس لها إلا ضعفهما واضطرابهما في التعامل مع الموقف برمته رغم مرور كل هذه السنوات.

لم يكن هناك داع للاستمرار في النداء على الفتاة باسم «نبيلة» سوى أن رقية كانت تجد في هذا الاسم دليلًا تتشبث به يثبت أحقيتها بها كأمر ربب وأنفقت، أو بمعنى أصح سعت في توسعة الإنفاق عليها ما استطاعت. أما التمسك بالاسم بسبب رغبة الحاج جلال في ذلك لم يعد أمرًا ذا بال بعد الأزمة الصحية التي ألمت به من سنوات قليلة وألزمته فراش زوجته الأولى التي راعته حتى استرد عافيته. ومن يومها، التزم الرجل بيته القديم وأصبح لا يزور رقية إلا لمامًا ولا يهتم بأمرها أو أمر ابنة أختها إلا في حدود إرسال ما يكفيهما من نفقات.

كم كان هذا الأمر مريحًا للجميع! مريح للفتاة نفسها من التواجد الثقيل للرجل في حياتها ومريح لميري ومحمود وقد غمرهما اطمئنان عجيب عندما نما إلى إدراكهما أن ابنتهما أصبحت تعيش مع

خالتها وحدهما دون وجود هذا الرجل حولها. وبالطبع كان الأمر مريحاً لرقية التي ارتضت الحياة كزوجة معلقة لأن هذا الوضع كان أفضل بالنسبة لها كثيراً من تحمّل هذا الشيخ الذي صار مجرد وجوده حولها فوق ما تطيق.

كما أن هذه الأزمة جاءت في وقتها المناسب تماماً لتطفئ حريقاً كاد أن يُخرج الفتاة من بيت رقية ويعيدها إلى بيت أبيها دون رجعة. فالحاج جلال الذي لم يكن موافقاً على التحاق الفتاة بالجامعة، وأرادها أن تلزم البيت حتى تتزوج، لم يتوقع أن تواجه برلنتي رغبته برفضها العنيف وإصرارها على تكملة دراستها في عناد أزاده دَعَمُ أبيها وأمها لها. عادت الفتاة لبيتها القديم وبدأت توطن نفسها على البقاء الدائم فيه وترتيب حياتها الجديدة ودراستها بناءً على ذلك. كادت رقية أن تصاب بلوثة حقيقية و «نبيلة» تضيع من بين يديها، لم ينقذها سوى مرض الحاج جلال وابتعاده لفترة كافية استغلنتها هي لتعيد الفتاة إلى بيتها حتى تبدأ الدراسة وتتنظم فيها وهي مقيمة معها واضعة زوجها أمام الأمر الواقع، لكن لحسن الحظ لم يصل الأمر إلى المواجهة الصريحة لأن الحاج جلال زهد فيها وفي بيته الجديد كله بعد مرضه، فتحققت أحلام رقية دفعة واحدة وغمرتها السكينة بعد أن اطمأنت لبقاء «نبيلة» معها دون أن أدنى تهديد مستقبلي أو حتى تعكير لصفو حياتهما معاً.

وميري هذه التي تصر على مخاطبة ابنتها باسمها القديم بإصرار من يرفض الاعتراف بالتخلي، هي نفسها التي شجعتها على العودة إلى بيت خالتها أثناء مرض الحاج جلال، ومعاونة رقية في خطتها لوضعه أمام الأمر الواقع. لم يكن ذلك إلا لأنها كانت تعرف جيداً أن رقية لن تستطيع مواصلة حياتها بدون برلنتي، بشكل حقيقي وليس مجرد مجاز. وهذا هو أيضاً ما جعلها تتقبل الأمر بالتدرج خاصة مع تقدّم ابنتها في العمر وتمتعها مع الوقت بعقل راجح جعلها توازن بين حبها لأمها الحقيقية وتعلقها بأمها الثانية؛ لذا كانت مناوشتهما حول الاسم الذي ينبغي مناداتها به تقع في نفس الفتاة موقع السخرية لأنها كانت تجيب في كل الحالات سواء نادوها باسم «برلنتي» أو «نبيلة». لم يكن أيٌّ من الاسمين له منزلة أعلى من الأخرى بالنسبة لها أو يثير بداخلها أية مشاعر متفردة أو يتعلق بمعنى ما تجده معبراً عن شخصيتها وحقيقتها، كأن ليس لها اسم على الإطلاق. وهو ما كانت ميري تدركه جيداً رغم إجادة ابنتها في إخفائه. بل إن حرصها الشديد على ألا تبدي مشاعرها الحقيقية وتصنعها اللامبالاة حيال الاسمين كان مما يعتمر قلب ميري ويثير شفقتها على صغيرتها التي كتبت عليها أن تعيش مثل أمها موزعة بين هويتين.

- لم نتأخر يا ماما! فقط ما يكفي لأن نشترى كل ما يلزمنا من أجل سفرة رأس البر.

ارتفع حاجبا ميري وهي تتساءل في استنكار:

- وهل تريدان أخذ وداد معك إلى رأس البر؟!

- بالطبع!

فأسرعت تهز رأسها سلباً وهي تعترض قائلة:

- لا لا يمكن! لن نرحمنا جدتك إن علمت بسفر وداد ولم يمر ما يكفي من الوقت بعد وفاة جدك!

اعتدلت نبيلة في جلستها وهي تهتف متوسلة:

- يا ماما لن نساfer قبل آخر الشهر، وسيكون قد مرَّ ما يكفي من الوقت.

فأسرعت رقية تستكمل توسلات الفتاة:

- يا ميري لا تكسري خاطر وداد إنها تحلم بهذه السفرَة منذ أول الصيف!

بدأت ميري قليلة الحيلة أمام توسلاتهما. كيف تفقد صلابتها وعنادها دائماً أمام هاتين بالتحديد؟! زفرت قائلة في تسليم:

- ندع الأمر لأبيها وهو يقرر.

فأجابتها نبيلة في استهانة وهي تعود لاحتضانها مرة أخرى:

- اتركي أمرَ بابا لي.

ربتت ميري على كتفها وهي تقول في توبيخ لطيف:

- لا يرفض لك طلباً أنتِ بالذات يا هانم.

انجذبت عيونهن نحو الباب الذي انفتح فجأة وخرجت منه وداد متقافزة بشعرها الأسود القصير الذي يشبه شعر نبيلة ووجها الصبوح وجسدها النحيف يتبختر في فستان وردي محبوبك حول وسطها.

- ما رأيك يا ماما؟!!

قالتها وهي تدور في سرور عارم حتى تتطاير «الجبيونة» مشكّلة جرساً وردياً حول وسطها وفوق ساقها. لم تنتظر نبيلة أن تجيب ميري على السؤال بل أسرعت تقول في حماس:

- لا لا جربي الفستان البنفسجي الآخر سيعجبهما أكثر.

- لا الفستان البنفسجي سأرتديه في النهاية وأعود إلى المنزل به.

انتفضت ميري ما إن سمعت ذلك وانبرت توبخ وداد قائلة:

- وداد! لن تعودى إلى المنزل إلا فى ثوبك الأسود! لا تدعى جدتك لتعنيفنا! الفساتين الأخرى دعيها لتلك السفرة.

قلبتُ وداد شفيتها فى ضيق وخذلان بينما أسرع رقية تقول محاولة تطيف الجو:

- ما شاء الله مثل القمر يا دودي.. العقبى لفيستان زواجك.

- ليس قبل أن تهي دراستها بالجامعة.

قالتها ميري بنبرة تقريرية باردة لا تعكس باطنها المتراقص فرحًا بهذا الأمر، بينما تساءلت وداد فى غير تصديق:

- هل حقًا سأذهب للجامعة مثل نبيلة؟!!

- نعم أبوك يريد ذلك.

أخذت تتفاخر فى سعادة الجامعة نفسها لا تهمها قدر ما يهملها أن تكون «مثل نبيلة» فى كل شيء. تتطلع لها بحب وانبهار لا مثيل لهما وتستقبل نبيلة ذلك باحتواء لم يؤثر فيه انفصالهما وبقاء كل منهما فى بيت مختلف.

كم كانت ميري ممتنة لمحمود عندما أفصح لها عن قراره بأن تلتحق وداد بالجامعة مثل أختها. وكم يتألم قلبها على شكرية التي لم يحالفها الحظ لتكون مثل أختها فلم تتل من التعليم سوى قدر معقول قبل أن تتزوج من عامين تقريبًا. كانت تشعر فى الماضى أنها ظلمت برلنتي لأنها حرمت من حضنها وعاشت بعيدًا عنها، لكنها الآن تشعر أنها ظلمت أيضًا وداد وشكرية اللتين دائمًا ما تتطلعان لما تتمتع به أختها من رخاء لم تحظيا بمثله قط، وظلمت شكرية أكثر من غيرها لأنها حرمت من أختها وهي صغيرة عندما استيقظت فى يوم لتجد البيت خاليًا منها، وحرمت منها وهي كبيرة عندما تزوجت وانشغلت بحياتها الجديدة فى نفس الوقت الذي أصبح فيه القرب من رقية وبرلنتي أسهل من ذي قبل بكثير.

وكل هذه الأشياء الصغيرة التي تشتريها رقية لها وللبنتين أو تصر برلنتي على إحضارهم لأختها، كل هذه الأشياء لا تقبل ميري بهم إلا لأنها لا تريد أن تكسر خواطرهن وتكون السبب فى مزيد من حرمانهن. فلتدع برلنتي تهدي أختها ما تريد ولتدع رقية تتقرب منها كما تشاء طالما كان الأمر لا يعدو حدود الصغائر من الهدايا حتى لا يعود التوتر إلى علاقتها بأختها وينتقل إلى علاقة بناتها ببعضهن البعض وهو ما لا يمكن أن تسمح به أبدًا.

- هيًا يا وداد ارتد ثوبك الأسود. أن لنا أن نذهب

قالتها ميرري وهي تضع الوشاح الأبيض العريض على رأسها المعصوب بالمنديل الأسود وتحكم لفه
حول رقبتها.

(٣)

توقفت السيارة أمام البيت القديم، لم يكن موعلاً في القدم، لكنه بدا قديماً بين البيوت الجديدة التي ارتفعت حوله في الحي خلال السنوات الماضية وتلك التي طالتها فرشاة الطلاء لتساعد على الوقوف في وجه العوامل والمتغيرات، بينما ترك بيت الشيخ سلامة يواجه الزمن وحده دون أي رادع، لكن على الرغم من ذلك، فإن قدمه النسبي هذا أسبغ (34) عليه نوعاً مختلفاً من العظمة أزدت من هيئته الأصلية في كونه بيت الشيخ الجليل حفيد الولي الذي يعيش مجاوروه كلهم ببركة وجود ضريحه بينهم.

أسرع السائق يفتح لهما باب السيارة قبل أن يحمل كومة الأكياس والعلب. تبع وداد التي اختفت المفتاح من أمها لتسبقها صاعدة السلالم متقافزة، بينما استندت ميري على السور الحديدي القصير مرتقية الدرجات ببطءٍ يليق بسنواتها الخمس وأربعين وما تحمله في بطنها المنتخفة.

نما إلى سمعها صوت الجلبة المعتادة المنبعثة من خلف باب شقة حماتها فلاحت على شفيتها ابتسامة مرارة ساخرة. كم تعيّر كل شيء في هذا البيت دون أن يتغير حالها هي؟! ها هو صوت بثينة الرقيق وزياط ابنها يرتفعان من داخل شقة زبيدة في أريحية واعتياد كأنها لم يكن محرماً عليها أن تخطو داخل هذه الشقة نفسها قبل أربعة عشر عاماً! ها هي الآن تزورها كل يوم تقريباً وتجالس زبيدة وإحسان بل وزينب وزوجة محمد ويلعب ابناها مع أبناء الأخيرة دون أن تبدو على حامد أي بادرة اعتراض بل وتحت ترحيب شديد ظللتها به زبيدة. ترحيب بدأ على استحياء يوم تطوع إبراهيم مع فرق المتطوعين التي تحركت يحدوها الحماس والثقة نحو فلسطين لتخليصها من الاحتلال المرتقب وإلقاء «الصهاينة» في البحر. ثم اشتد هذا الترحيب وتضاعف مع تزايد وصول أبناء الحرب غير المبشرة قبل أن تنقطع أخبار إبراهيم تماماً! وها هو قد تحول إلى واجب على بثينة يجب أن تلتزم به بشكل يومي منذ أن ابتليت زبيدة بفقدان الشيخ سلامة منذ شهر تقريباً وقلبها لا يزال يتمزق قلقاً على أصغر أبنائها الذكور. واجب تلتزم به بثينة وتحثي به زبيدة ويتعامل معه حامد بحيادية لا تليق به، حيادية تكاد تبدو في بعض الأحيان شبيهة بالترحيب!

مرت ميري من أمام الباب وواصلت صعودها دون أن تفكر حتى في محاولة الانضمام لهن.

هل يجب أن تطالها مصيبة أو أن تفقد محمود لتتال رضا حماتها؟! انقبض قلبها من الفكرة، فليذهب رضا الناس جميعاً إلى الجحيم لو كان الثمن فادحاً هكذا. كما أنها اعتادت بالفعل معاملة حماتها وكلماتها اللاذعة بل وأصبحت تتعاطف معها في بعض الأحيان، لا تعرف لماذا عاشت السنوات الماضية كلها وحتى الآن لا تشهر في وجه زبيدة ما يعرفه الجميع عنها من قوة شخصية وصلابة رأس، أو على الأقل لا تشهرها بنفس الدرجة المعتادة منها؟! لماذا دائماً تترتك في التعامل معها إلى التجاهل والتجنب قدر المستطاع؟! ربما إكراماً لمحمود ومعاملته الطيبة معها وحبها العميق له، أو ربما لأنها بداخل نفسها كانت بالفعل تشعر بشيء من النقص لأن كل من دخلن هذا البيت أنجن ذكوراً، من أول زينب وحتى زوجة محمد، إلا هي. ربما لأنه مع مرور السنوات اكتشفت أنها تشبه

حماتها إلى قدر كبير في مزاجها المتقلب وعنادها وطبعها الحاد حتى مع من تحبهم، بل بالتحديد مع من تحبهم لشدة خوفها عليهم ورغبتها في تحقق كل الخير لهم وشعورها الدائم بالعجز حيال هذا الخوف وهذه الرغبة. ربما لذلك أصبحت تتقهم الكثير مما تقوله أو تفعله زبيدة حتى وإن كان ذلك موجهاً ضدها هي. أو ربما لأنها وجدت أن مناوشاتها مع حماتها ليست إلا شيئاً تافهاً إذا ما قورن بما كابدهت أمها ومن قبلها جدتها. أين هي مما عانيه هن في شبابهن وكهولتهن من ترحيل قسري من أرض الوطن وموت طال أعز من لديهن في غمضة عين وفقر وحياة قاسية؟ إنها تعيش في نعمة كبيرة لن تُقرط فيها أبداً مهما تحملت في سبيل ذلك.

توقفت تلتقط أنفاسها لوهلة أمام باب شقة حامد وزينب بعد أن ركلها الجنين ركلة موجعة. واصلت صعودها وعقلها لا يزال يقلب أفكارها ومخاوفها بإلحاح هاجمها فجأة لا تعلم من أين.

مات الشيخ سلامة معتصراً قلبها الذي أحبه كما تحب أباه تيمور وأكثر. حزنت عليه حزنين. حزن من فقدانه وحزن من حسرتها على رحيل هذا الرجل الطيب قبل أن يطمئن على ابنه إبراهيم. عاد قلبها ينبض ما إن خطر لها اسم إبراهيم ومعه ما أصبح يصاحبه مؤخراً من أفكار تنكد حياتها ولا ترحمها من وخز الضمير. تحب إبراهيم مثلما تحب حسن أخيها وأكثر. يكاد يقتلها خوفها عليه ورغبتها في أن يعود سالمًا دون أن يمسه سوء، لكنها أيضًا لا تستطيع أن تمنع هذه الخاطرة الخبيثة - التي اقتحمتها فجأة بعد أن انقطعت أخباره - من أن تستحوذ على عقلها وتعكر صفو حياتها ليلاً ونهارًا دون انقطاع. ماذا إن لم يعد إبراهيم؟ ماذا إن وصلهم خبر استشهاده في الحرب؟ سيصيبهم الكمد والقهر لبعض الوقت ثم يخفت الحزن وينتبه الجميع إلى وضع بثينة وابنيها. لن تهدأ زبيدة حتى يطمئن قلبها على أرملة ابنها التي ستكون في هذه الحالة مضطرة إلى مواجهة الدنيا بمفردها بل ومعها أيضًا طفلان يحتاجان مثل ثقلهما مصروفات ورعاية واهتمام عن قرب، وليس مجرد زيارات أو مساعدات عابرة. في هذه الحالة ربما ستفكر زبيدة في أن تسعى إلى إعادة ربط بثينة بالعائلة مرة أخرى بعقدة متينة لا فكاك منها. وماذا يمكن أن يكون أكثر متانة من عقدة الزواج؟ ومن يمكن أن يكون مناسباً لهذه المهمة سوى محمود؟

كادت أن تفقد صوابها عندما باغتها هذه الفكرة طاعنة إياها في أكثر مواضع نفسها ضعفاً وهشاشة وعدم أمان، ثم أخذ عقلها يستجلب من كل ناحية ما يؤيد هذه الفكرة ويؤكد لها حتى أصبح يقينها في حدوثها شيئاً لا يحتمل التشكيك كأن خبر استشهاد إبراهيم قد وصلهم بالفعل!

أحياناً كانت توبخ نفسها على عبثية ما تفكر فيه، لكنها سرعان ما تتراجع عندما يقتحمها سيل من أسئلة تنثير جنونها.

من في العائلة غيره أقرب إلى بثينة من حيث العمر وطبيعة الشخصية؟ ومن أقدر منه على أن يعتني بأرملة أخيه وابنيه بالشكل اللائق؟ أليس هو الوحيد الذي اختاره إبراهيم قبل سفره ليوصيه بالاعتناء ببثينة والولدين؟ ويوم رحيله، ألم يطالبها إبراهيم بالتماسك لتساعد محمود في جملة الجديد والذي لم يكن سوى بثينة وابنيها؟! وبعد رحيله، ألم يكن محمود هو من ذهب ليحضر بثينة والولدين

ليتعشوا معهم لأول مرة؟ ألم تكن براعته في التعامل مع عبد العزيز الصغير واضحة كالشمس كأنه أبوه وأكثر؟! وألم يكن ذلك سبباً فيما قالت زبيدة في هذا اليوم رابطة بشكل، لم تلتفت إليه ميري وقتها، بين ابني إبراهيم وبين عجزها عن إنجاب الذكور من خلال حديثها عن الجنين الذي تحمله؟!!

ثم أليس سبب جفاء حماتها الأساسي نحوها هو عدم قدرتها على إنجاب ولد لمحمود تغلب به منيرة؟ وبثينة هذه التي لم تنجب سوى الذكور أليست مناسبة جداً لتحقيق حلمها القديم؟ أليس من الممكن أن تتجح تحريضات زبيدة هذه المرة إن خاطبت قلب محمود الحنون عن طريق استعطافه على أرملة أخيه وإبنيه اليتيمين؟ وأن تبرر له ذلك بالمنطق بأن «بنات نعيمة» لن يصيبهن الضرر جراء ذلك، فشكرية تزوجت وبرلنتي مستقرة في حياتها مع خالتها ووداد أصبحت فتاة كبيرة ولن يمر وقت طويل قبل أن تتزوج هي الأخرى.

كبرت الفكرة وأصبحت مثل حجر يجثم على صدرها لا تجرؤ على مشاركة أحد إياه أو الإفضاء به. من يمكن أن يتفهم خوفها من فقدان محمود؟ خوفاً وصل بأفكارها إلى هذه الدرجة دون أن يحكم على هذه الأفكار بأنها مجرد أوهام عبثية محكمة التركيب داخل عقلها هي فقط؟ من يمكن أن يتعاطف معها دون أن يستنكر حقيقة أن تفكيرها في أمر استشهاد إبراهيم لم يقترن إلا بهذه الخاطرة العجيبة ودون أن يتهمها بالبلاهة أو حتى بالأنانية؟

كتمت هلعها في قلبها الممزق واستسلمت لمتاهات أوهامها لا تملك حيالها سوى التفكير الجازع.

ووسط كل ذلك، أخذ ديبب الحياة يتزايد بإصرار مرة أخرى في رحمها! الآن بعد أن وصلت إلى منتصف الأربعينيات وأخذت تهئ نفسها لانقطاع الحيض عما قريب! بعد أن تزوجت شكرية وأنجبت وأصبحت جدة لولد!

لا زالت تذكر يوم سفر إبراهيم عندما ركضت فزعة بالخبر نحو محمود الذي تلقاه بشيء من الاضطراب في البداية لكنه سرعان ما تمالك نفسه كعادته. أخذ يحاول التهدة من روعها وروع نفسه بأن هذه إرادة الله ورزقه وأن عليهما أن يقبلاه شاكرين حامدين، لكن هذا لا يمنع أنه قد أصيب بشيء من الغرابة عندما أدرك أنه سيصبح أباً من أول وجديد بعد أن تجاوز الخمسين وصار جداً لابن شكرية وأبناء حسين وعلي من قبلها، لكن استغرابه هذا تلاشى مع مرور الوقت كما تلاشى استغراب الجميع، بل وتحول إلى فرحة تسلوا بها عن قلقهم على إبراهيم الغائب ثم عن فقدانهم للشيخ سلامة.

ورغم ذلك، لم تكف زبيدة عما بدأت يوم أن عرفت الخبر من سخرية من الحمل «على كبر» وتشكيكها في أن الصبي الذي لم تجلبه بطن شابة يمكن أن تجلبه نفس البطن بعد أن شاخت، لكن ميري تجاهلت كل ذلك كالعادة وانشغلت بعودة الأمل القديم. الأمل الذي كانت قد هيات نفسها على اليأس منه وعاشت مطمئنة لهذا اليأس طوال الأربعة عشر عاماً الماضية. فجأة استيقظ بداخلها هذا المارد المستبد مرغماً إياها على الإلقاء بنفسها مرة أخرى في أمواج متلاطمة من القنوط (35) والأمل. ما إن تلفظتها واحدة حتى تتلقفها الأخرى بعنفوان يزيد على كل مرة سابقة حملت فيها.

فرغبتها هذه المرة في إنجاب صبيًا يطيح بذرائع حمايتها ويثبت قدميها ويقوي مركزها في حال تحققت أو هامها، لم تكن مجرد رغبة عادية بل كأنها مسألة حياة أو موت.

عندما وصلت إلى باب شقتها كان سائق رقية قد وضع ما يحمله في غرفة وداد وخرج مارًا بها محنيًا رأسه في تهذب. دخلت وأغلقت خلفها الباب متخففة من الوشاح الكبير فهدأت حرارة رأسها المتعرق قليلاً. زفرت من اللهب الذي يكتنف الشقة وهمّت بالسير نحو غرفة الجلوس لتفتح نافذتها الكبيرة وتجلس في موقعها المفضل بجانبها حتى يهدأ جسدها، لكنها تسمرت مكانها عندما ارتفع خلفها صوت طرقات على الباب، خفق قلبها وأغمضت عينيها راجية من قلبها ألا تكون بثينة قد أحست بصعودها على السلم ولحقت بها متوددة كعادتها. لا تريد أن تستقبلها وتجالسها وهي تحمل نحوها ضغينة لا ذنب للمسكينة فيها بل ولا أساس لها إلا جذور واهنة في تلافيف عقلها هي وحدها. استدارت واتجهت نحو الباب مستسلمة داعية الله أن يرحمها من شر مخاوفها وما تفعله بها.

(٤)

تبخرت كل الأفكار المتعلقة ببثينة ما إن وجدت - على غير توقع - شكرية تقف أمامها ترقبها بعينين متوترتين وعلى ذراعها ابنها إسماعيل الرضيع. لم تشعر ميري بنفسها وهي تهتف في جزع:

- ماذا بك يا شكرية؟!

ازداد اضطراب شكرية وتلجلجت قبل أن تقول في توجس من ردة فعل أمها:

- تشاجرتُ مع سعد وتركت له البيت.

التقطت ميري أنفاسها ثم سرعان ما تحوّل قلقها إلى الغضب وهي تصرخ مؤنبة:

- ما شاء الله! ما شغل العيال هذا؟! لو كل زوجة تشاجرت مع زوجها تركت له البيت لخربت البيوت كلها! عودي إلى بيتك ولا تتركه أبدًا. بلا خيابة!

صفعت ميري الباب بعنف في وجه شكرية تحت أنظار وداد التي خرجت مسرعة عندما سمعت صوت الصراخ. وقفت تتأمل أمها، وهي تحاول معالجة غضبها، مترددة بين رغبتها في أن تستعطفها لتفتح الباب لأختها وتسمح لها بالدخول، وبين إشفاقها من أن توجّه غضبها نحوها هي إن حاولت ذلك، لكن ميري كانت قد بدأت بالفعل تشعر بالندم على ما فعلته. هذه المسكينة ماذا ستفعل بعد أن صدتها وأغلقت بابها في وجهها؟! ثم قفزت أمام عينيها خاطرة أخرى كدرتها، ماذا إن ذهبت شكرية مستتجة بشقة جدتها؟ بالطبع ستستغل زبيدة ذلك لنتهمها بالقسوة على بناتها أو بسوء تربيتها لهن مما يدفعهن لتترك بيوت أزواجهن، أو بالاتهامين معًا! يا ربي هذه الحمارة لماذا لم تفعل مثلما كانت تفعل هي وتظل في بيتها حتى تحل مشاكلها مع زوجها حتى وإن امتد خصامهما شهرًا!

- خذي أختك واصعدا إلى السطح.. افتحا نوافذ الشخشيخة ليترطب جو البيت قليلاً وانتظرا أبيكما تحت التعريشة.

أسرعت وداد مبتهجة تنفّذ ما قالت أمها قبل أن تغير رأيها، بينما توجهت ميري نحو المطبخ بقلب مطمئن بعد أن وجدت لنفسها ولابنتها مخرجًا من الأزمة دون أن تضطر للترجع كثيرًا عن قرارها الأول.

لم يمر الكثير من الوقت قبل عودة محمود. رأته الفتاتان من فوق السطح قادمًا من أول الشارع فأسرعتا تهبطان نحو شقتهما، لكنهما اضطرتا للانتظار قليلاً ريثما يمر أبوهما على شقة الجدة ليلقي التحية ويطمئن عليها وعلى بقية المجتمعات هناك خاصة إحسان وبثينة. أنهى مهمته سريعًا وصعد نحو شقته حيث وجدتهما واقفتين تنتظران على المدخل في نفس اللحظة التي وصل فيها سعد، والذي كان قد زار محمود في عمله بعد رحيل شكرية ليشكوها إليه ويرجوه أن يتوسط للصلح بينهما.

انعقدت الجلسة المرتقبة في غرفة الجلوس حيث نجح محمود في إعادة الوفاق بينهما مستعيناً بجلمه ولباقته من ناحية ولتفاهة الخلاف من ناحية أخرى. همت شكرية بالدخول إلى أمها لتحبيبها قبل ذهابها لكن محمود نصحها بأن توجل لقاءهما ليوم أو يومين ريثما تهدأ ميري حتى لا تواجهها وهي لا تزال في فورة انفعالها. اقتتعت شكرية على الفور لعلمها الجيد بطباع أمها وذهبت مع سعد الذي حمد الله هو الآخر أن حماته لم تخرج طوال مدة وجوده وإلا كان قد ناله شيء من التقرير مثلما نال زوجته.

لم تخرج إلى الصالة مرة أخرى إلا بعد رحيل شكرية وسعد. منعت نفسها من مقابلتهما بصعوبة شديدة رغم رغبتها الملحة في الاطمئنان على ابنتها واشتياقها العاتي لحفيدها الصغير إسماعيل، لكنها تماسكت حتى تحافظ على قناع الإعراض الذي ارتدته أمام ابنتها بسبب فعلتها تلك، بينما قررت بينها وبين نفسها أنها ستحاول زيارتها في الغد متظاهرة برغبتها في توبيخها بينما أنها ستذهب في الحقيقة لتطمئن عليها.

وضعت طعام الغداء وجلست إلى المائدة تنتظر محمود الذي خرج بعد دقائق مرتدياً جلباب المنزل. جلس متلفتاً حوله وهو يتساءل في دهشة:

- أئن تأكل وداد معنا؟! -

مطت ميري شفيتها وهي تضع له شيئاً من الأرز في طبقه:

- لن تخرج من غرفتها قبل أن تقيس كل الفساتين التي اشترتها لها برلنتي اليوم عدة مرات وتخبتر بهم أمام المرأة قبل أن تعلقهم في صوان ملابسها.

أوما محمود قبل أن يبدأ في تناول طعامه مستسلماً. رمقته بطرف عينيها وهي تقلب طعامها بالمعلقة قبل أن تتساءل بنبرة تخفي شيئاً من الغيظ:

- ما الذي أخرجك في الصعود بعد وصولك من العمل؟

- مررت بالطابق الأول لأطمئن على أمي وإحسان وبثينة والأولاد.

قالها ببساطة كأنها لا تسأله هذا السؤال كل يوم وكأنه لا يكرر نفس الإجابة كل يوم دون ملل. يفعل ذلك في هدوء يليق بالجلم والتغافل الذي يمارسهما في حياته دائماً وخاصة إزاء طبع ميري الحاد، وقد أزداهما في الفترة الأخيرة شففته على تقلب مزاجها بسبب حملها في مثل هذا السن. لم يهتم بالاستفسار عن هذا الذي يدفعها لأن تسأل سؤالاً تعرف إجابته كل يوم. كان يظن أنه ليس ثمة سبب لذلك طالما أنها تعلم جيداً المجهود الذي عمد إلى مضاعفته مؤخراً لتعويض نساء هذا المنزل عن غياب إبراهيم وانقطاع أخباره ثم رحيل الشيخ سلامة؛ فكما يحتمل مزاجها المتقلب يحتمل مزاج أمه الذي أزداه الكبير والفقدان حدة. يحاول التخفيف عنها وتعويضها، كما يحاول تعويض إحسان موزعاً

بين سعادة خافتة تدغدغه لشعوره بتعلق أخته به في الفترة الأخيرة كما كان يتمنى دائماً، وبين إحساس بالذنب بسبب شعوره بالسعادة لشيء يرتبط بشكل ما بغياب إبراهيم. وأخيراً يحاول تنفيذ وصية أخيه على زوجته وابنيه بكل إخلاص. لم يكن يدرك أن معرفة ميرى بكل ذلك لا يمنعها من أن تطرح السؤال كل يوم على أمل أن يجيبها في مرة دون ذكر اسم بثينة مع باقي الأسماء. كأن في مجرد ذكر الاسم دليل ما على صدق أفكارها وأن عدم الإتيان بذكره - ولو لمرة واحدة - سيكون دليلاً أيضاً ضد هذه الأفكار.

ساد بينهما الصمت لدقائق قبل أن تبدأ ميرى الحديث مرة أخرى مخفية توترها ومتظاهرة بالطبيعية:

- أريدك أن تأخذني إلى الإسكندرية.

عقد حاجبيه وهو يتساءل في عدم فهم:

- تقصدين متى؟!!

أجابت متصنعة البساطة:

- أقرب وقت ممكن. الجمعة القادمة مثلاً.

اتسعت عيناه وهو يهتف في دهشة:

- تريدين أن تسافري كل هذه المسافة وأنت هكذا في الشهر السابع؟! ما الداعي لذلك؟!!

- أريد أن أزور حسن وأسرته وأن أرى أمي أيضاً.

رفع كتفيه في ذهول:

- حسن سيأتي ليزورنا في أقرب إجازة كما أنه لم يتبق سوى يومين على عودة عمي تيمور من إسطنبول إلى الإسكندرية وسيمر كعادته ببيت حسن ليصطحب عمتي فاطمة ويعود بها إلى القاهرة فما الداعي للعجلة؟!!

تملمت ميرى في حيرة أمام منطقه المتناسك لكنها لم تستسلم وهتفت في عناد:

- إجازة حسن لن تكون قبل شهرين أي بعد ولادتي وأنا أريد أن أراه قبل أن ألد. (ثم في نبرة مستعطفة) لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث لي أثناء الولادة.

هتف محمود في غير تصديق:

- لماذا هذا الفأل السيئ؟!!

- أليس الحمل في مثل سني هذا لا يخلو من شيء من الخطر؟!!

- لكن الطبيب طمأننا وقال إن حملك مستقر جداً ولن يحدث شيء بأمر الله!

أسرعت تهتف كالمنتصرة:

- أرأيت! حملي مستقر وصحتي جيدة. لا مانع إذاً من سفري لبضعة أيام. أريد أن أرى حسن وأمي وأقضي معهما يومين.

حينئذ نهد صبر محمود على غير عادته وأسرع يجيئها في حزم:

- اسمعي يا ميري. الأمر لا علاقة له بسنك. حتى لو كنتِ طلبتِ هذا الطلب أثناء حملك في شكرية ما كنتِ لأوافق. لست مستغنياً عنك!

وقعت الكلمة في نفسها موقعاً جعل قلبها يفيض بالحنان.

حقاً يا محمود! حقاً لا يمكنك الاستغناء عني أو استبدالي أو حتى السماح لأخرى بمشاركتي إياك؟!!

لم يكن لديها متسع لتأمل الكلمة بأناة وتستعذب نطقه بها إذ شد انتباهها استطراده في انفعال:

- ليس ثمة امرأة عاقلة تقرر الجلوس في القطار والسفر وهي في شهرها السابع بدلاً من التزام الراحة حتى تلد بسلام. لن أوافقك أبداً على هذا الجنون.

قالها في حسم لينهي النقاش فصمتت ميري على مضض.

كانت تعرف أن الأمر لن يكون سهلاً أبداً، لكنها لم تتوقع كل هذه الثورة من محمود الذي تُضرب الأمثال بحلمه وصبره ولباقته وقدرته على المحايلة! المواجهة الصادمة ليست الحل المناسب في هذا الموقف إذاً. كانت تعذره بينها وبين نفسها، فهي تعرف هذا الانفعال الذي يولده الخوف على الأحباء والذي يدفع صاحبه إلى الإتيان بما قد يناقض طبيعته الأصلية. أحبت في انفعاله أنه دليل على خوفه عليها، وكرهت فيه إعاقته لمخطط الذهاب إلى الإسكندرية لتلبية نداء «السلطان» على حدّ تعبير نابلسية. هذا النداء الذي تعده آخر أمل لها لتعزيز موقفها في مواجهة أي شيء يمكن أن يختطف منها محمود رغم حبه لها وخوفه عليها. فقد عودتها الأيام على ألا تأمن لأي شيء يمكن أن يطمئنها مفترضة استمراره، وأن تظل متيقظة في وجه مخاوفها ومباغاتها الدائمة. ستصمت الآن ليمر الموقف لكنها لن تستسلم. ستعاود الكرة بكل الطرق الممكنة ولن يهدأ لها بال حتى تمسح بيديها على ضريح أبي العباس.

منذ أن انتهى الغداء وميري جالسة وحدها في غرفتها. أمامها على الفراش كومة من «الغسيل» تسحب منها القطعة إثر القطعة فتطويها بعناية وتضعها بجانبها والشroud لا يزال مسيطراً عليها. تسترق النظر نحو النجوم المتألئة في السماء خارج النافذة المفتوحة أمامها بينما نسمات صيفية خفيفة تتسلل إليها بين الحين والآخر. انتبهت من أفكارها على صوت طرقي على باب الشقة. أرهفت سمعها في استغراب مع خطوات محمود الذي ما إن فتح الباب حتى انتابته دهشة شديدة غالبها بصعوبة ليهتف في ترحيب:

- حامد! أهلاً يا أخي تفضل.

اتسعت عيناها في استنكار ما إن وقع الاسم في أذنيها! حامد لا يزورهم أبداً. يحاول تجنبها دائماً كما تتعمد هي تجنبه طوال الوقت. لا تزور شقته إلا نادراً ولم يخط هو داخل شقتهم منذ رحيل برلنتي وهي طفلة. فما الذي يمكن أن يأتي به اليوم في مساء هادئ طبيعي كهذا المساء؟!

- يا وداد، الشاي لعمك.

هتف بها محمود بنلقائية دون أن يفكر ولو لثانية واحدة. كأنه بالبداية يعرف أنه لا يمكنه أن يوجّه طلباً خاصاً بحامد لميري حتى وإن كان ذلك على سبيل واجب الضيافة.

لحق بحامد الذي كان يخطو ببطء نحو أريكة غرفة الجلوس قبل أن يجلس عليها متهاكاً وقد بدا شيئاً كالإرهاق المغموم واضحاً في قسماته المنعقدة. تبادل حديثاً لا معنى له حتى وضعت وداد الشاي أمامها قبل أن تخرج مستأندة. أخذ حامد يرتشف من كوبه في صمتٍ وعيناها شاردتان نحو قطع البلاط المتلاصقة أمامه على الأرض، بينما راقبه محمود بطرف عينين متحيرتين وقد بدأ شيئاً من التوجس يتسلل إلى نفسه بسبب هيئة أخيه. أول مرة يراه مهموماً هكذا! أو ربما أصابه هذا الهم بالفعل منذ عدة أشهر لكنه كان يجيد إخفاءه. ليس إخفاءً مثالياً لكنه على الأقل لم يكن يسمح لهذا الشيء أن يبدو واضحاً هكذا على قسماته! هذا الشيء الذي يشبه الهزيمة!

كان دائماً ضيقه غضباً وانفعالاً واندفاعاً نحو المصادمات، فما الذي أصابه جعله يصل إلى حافة الانهيار هكذا؟! أحس محمود بالقلق يساوره وبغرابية من إحساسه بالقلق على حامد، آخر شخص كان يمكن أن يقلق عليه!

رفع حامد رأسه وتأمله للحظة قبل أن يتمتم متسائلاً:

- أليس ثمة أخبار عن إبراهيم؟

تعجب محمود من السؤال لوهلة. أسرع يغالب تعجبه ويرسم ابتسامة صفراء على شفثيه وهو يهز رأسه نافياً دون أن ينبس. أوأ حامد مستسلماً لأنه لم يكن يتوقع إجابة مختلفة. شرد للحظة نحو الأرض قبل أن يعود لمحمود مرة أخرى بعينين متوترتين وهو يهتف في تلجلج كأنه يحاول عبثاً منع نفسه من طرح السؤال:

- هل تظنه سيعود؟

تقلص قلب محمود بداخله من وقع السؤال. صحيح أنه يسأله بينه وبين نفسه ألف مرة في اليوم لكن النطق به جهراً هكذا أفزعه وأصابه بالتطير. كأن التجرو على النطق بالسؤال نذير شؤم ببداية ترويض النفس على تقبل الاحتمالات السيئة. ازدرد ريقه محاولاً الحفاظ على هدوئه وهو يتمتم في تسليم:

- ربك قادر على كل شيء.

سادت لحظة صمت أخرى بدا خلالها حامد كأنه يصارع وحشاً لا قبل له به. وحش غلبه وأذله فاندفع يطرح سؤالاً آخر أكثر بشاعة من سابقه لكنه لم يستطع كتمه أكثر من ذلك. لم يسعه إلا أن يفلت أمام محمود - دون سواه - الجمرة التي ظل قابضاً عليها وخافياً إياها عن الجميع خشية أن يُفتضح ما بداخله. لكن في تلك اللحظة بالذات وجد نفسه ينطق في تلثم مشيحاً بعينه بعيداً عن عيني محمود:

- هل تظن أنه إن لم يعد.. هل تظنه يسامحني عندما نلتقي؟!

- تلتقيان أين؟!

- يوم الموقف العظيم.

حملك محمود نحوه في شيء كالاستغراب وعدم الفهم! شعر أنه يغفل شيئاً ما أو أن هناك أمراً يخفيه حامد. أمر أفلت منه زمام نفسه وجعله يأتي إلى هنا كالأسير المستسلم، متقوهاً بما يشي بهزيمته وبأدق خبايا نفسه الضعيفة، على غير طبيعته! مال محمود نحو الإمام وهو يتساءل في قلق حقيقي:

- ما هذا الذي تقوله يا حامد؟! ماذا حدث بالله جعلك تقول مثل هذا الكلام؟!

صمت حامد لوهلة وهو يرمق أخاه بعينين مترددتين، هناك كلمة ما على طرف لسانه لكنه يستमित حتى لا ينبس بها. لم يستطع أن يقاوم أكثر من ذلك، غض بصره ليسيطر على دموعه وهو يتمتم بصوت مرتعش:

- عرفت اليوم أن قريبتنا الشيخ فرحات وصله خبر استشهاد ابنه الذي ذهب إلى فلسطين قبل أخيك ببضعة أيام.

عاد قلب محمود يتقلص بداخله من نذير الشؤم هذا، لكنه أسرع يتمالك نفسه؛ إذ أدرك أنه في هذه اللحظة لا يوجد لديه أي خيار سوى أن يتماسك أمام انهيار حامد الوشيك رغم استماتته ليخفي انهياره هذا، لكنه أدرك أيضاً في نفس هذه اللحظة، الحقيقة التي تجلت فجأة أمام عينيه. هذا الخبر السيئ الذي وصل إلى حامد أفقده اتزانه وقدرته على إخفاء شيء لم يتخيل محمود قط أن يصاب به أخوه الكبير في يوم من الأيام! الندم. هذا هو إذًا الوحش الكاسر المستبد الذي ظل يرعب حامد منذ سفر إبراهيم قبل عدة أشهر ثم انقضَّ عليه يلتهمه ببطء منذ أن انقطعت أخباره تمامًا. معه كل الحق إذًا فيما أصابه وفي هذه الهزيمة التي احتلت قسماته واستنفدت منها رحيق الحياة.

تأمل محمود أخاه في دهشة كأنه يراه لأول مرة! أصبح جدًّا يخطو بثبات نحو الستين! أين قوة الماضي؟! أين الصلابة والعناد والرغبة في السيطرة الدائمة على مقاليد الأمور؟! اختقت كلها يا حامد. اختقت الآن في يوم لم تحسب له حسابًا من قبل عندما كنت تُسرف في أمورك كلها خاصة مع إبراهيم.

ورغم الأسى الذي أصاب محمود في تلك اللحظة إلا أنه لم يستطع أن يمنع شعورًا ما بالارتياح يتسلل إليه على استحياء. فإن كان هو قد خذل نفسه وخذل أحيانًا بعضًا ممن حوله، فعلى الأقل ما يجنيه بسبب هذا وذاك لا يرتقي لقسوة شعور الندم. النعمة التي كان يشعر بها طوال عمره نحو سلميته وحتى سلبيته تضاعلت وانكشفت، بل وتحولت إلى امتنان عميق لله على أن عيوبه - التي مهما عذبتة - لم تفعل به مثلما فعلت الغفلة والحدة في حامد.

أحسَّ بإشفاق شديد نحو أخيه الكبير لكنه لم يجد الوقت الكافي ليتأمله، إذ عاجله حامد بسؤالين أخيرين نطقهما في شروء كأنه يوجههما لنفسه وليس لمحمود:

- بل هل تسامحني أنت؟! وهل تسامحني نعيمة؟!

ألجم السؤالان لسان محمود. كيف عساه أن يجيبه؟!

أما عنه، فهو لا يشعر بأية ضغينة نحو أخيه. لقد تجاوز كل شيء منذ اللحظة التي أدرك فيها أن حلمه القديم بالمشاركة في إدارة الوقف - في حد ذاته - لم يعد شيئًا مهمًا، أو لم يعد في أهمية أشياء أخرى، أبرزها أهل بيته هذا وراحتهن وشعورهن بالأمان. بل لقد تجاوز كل شيء من قبل ذلك، منذ اللحظة التي دعاه فيها أبوه رحمه الله واعترف له ضمنيًا بخطئهم في عدم إشراكه في إدارة الوقف من البداية. وبرلنتي؟ هل يسامح حامد على وساطته في أمر برلنتي ليحافظ على رضا الحاج جلال عنه؟ في الحقيقة، هو لم يعد يرى أمر برلنتي من هذا المنظور أصلًا. لم يعد يفكر في وضعها الحالي إلا كنتيجة طبيعية ملازمة لوضع رقية وما حدث لها. نتيجة كانت واقعة لا محالة سواء تدخل حامد في الأمر أم لم يتدخل. كما أنه أصبح راضيًا تمامًا عن حياته في شكلها الحالي خاصة بعد أن أثبتت

الأيام أن حياة برلنتي مع خالتها لم تبعدها عنهم أو تفصلها عن أختيها بالقدر الذي كان يخشاه. بل ربما كان نفع بقائها مع رقية أكبر من ضرره.

وميري؟ هل تسامحه؟ حانت منه التفاتة سريعة نحو باب الغرفة، كأنه خشي في تلك اللحظة أن تكون ميري قد سمعت جزءاً من حديثهما فتفتح عليهما الجلسة صارخة في وجه حامد بأنها لن تسامحه ما حبت! السؤال ليس هل تسامحه ميري، بل هل يجرؤ هو - محمود - على أن يطرح عليها هذا السؤال أصلاً؟! لا أحد يعرفها مثله. لا أحد يعرف - أو بالأحرى يفهم - كيف تجمع زوجته قلباً مسكيناً مفزوعاً ومجروحاً طوال الوقت مع عقلٍ صلبٍ كالحجر في تناقض يعذبها هي قبل أن يعذب من حولها. قلبها هذا هو سبب عدم مسامحتها لحامد على توسطه وعقلها هو وسيلتها في الحفاظ على ثباتها حيال هذا الأمر طوال أربعة عشر عاماً. لا يمكن بالطبع أن يطرح عليها هذا السؤال، أو على الأقل ليس الآن وهي في حالتها تلك. لكن عليه أيضاً أن يجيب حامد بما ينقذه من حيرته ويخفف من عذاب الندم الذي يحرق قلبه ولو قليلاً. سيجيبه بما يملكه وسيترك ما لا يملكه للزمن يعالجه هو بطرقه التي لا تقنى ولا تعجز عن معالجة ما يستعصي معالجته على كل حيل البشر.

ابتسم محمود ابتسامة حاول أن يُضمّن بها كل الصدق الذي يحمله في قلبه وهو يقول:

- أنا لست غاضباً منك يا حامد حتى أسامحك وإبراهيم أيضاً مثلي وأكثر. ألم أقل لك أن آخر شيء قاله لي قبل رحيله كان سلامه لك؟!!

لاحت على شفتيّ حامد ابتسامة متألّمة بينما انتاب محمود شيءٌ من التسرع وهو يتساءل في حسرة:

- لماذا لم تكن موجوداً يوم وداعه لنا؟! لماذا ذهبت قبل مجيئه ولم تعد إلا بعد رحيله؟!!

رفع حامد نحوه عينين لامعتين ووجهاً محمراً بالغيظ من نفسه وهو يهتف حانقاً:

- لم أستطع يا محمود! هل تظن أنني لم أرد أن أكون موجوداً وأن أتجاوز كل شيء فقط لأودعه؟! أردت من كل قلبي لكنني لم أستطع أن أغلب ما اعتدته طوال عمري. غالبته طويلاً ولم أغلبه. غلبني هو وأصبح يغلبني كل يوم.

هل تحشرج صوت حامد قليلاً وهو ينطق بأخر كلماته قبل أن يتمالك زمام نفسه سريعاً؟!!

شعر محمود بالشفقة تعصر قلبه مرة أخرى.

ازداد فهمه لمدى العذاب الذي يعاني منه أخوه. من تعتاد نفسه الجفاء ويعتاد قلبه القسوة، لن يستطيع أن يمارس اللين حتى وإن لانت نفسه، ولن يعرف كيف يُظهر الرقة حتى وإن رقَّ قلبه. من يمكن أن يصدق أن حامد هذا الذي كان في الماضي يملأ الدنيا بصلابته وفرضه لإرادته عليهم جميعاً مهما

تكلف ذلك، هو من يجلس الآن ضعيفاً ومهزوماً هكذا أمام إحساسه بالندم؟! ندم على نفس ما جعل قلبه يقسو على بعضهم ويُعرض عن البعض الآخر لسنوات طويلة.

في أكثر أحواله جموحاً، كان محمود يرى هذا الموقف بحذافيره؛ حامد نادم يستمع مطاطئ الرأس له وهو يوبخه ويلومه على ما فعله به هو وإبراهيم، لكن عندما تحقق الحلم وحدث الموقف وجاءته الفرصة على طيق من ذهب، عافت نفسه اللوم والتوبيخ بل وحتى العتاب الرقيق. غلبه طبعه ورق قلبه وتملكته فجأة رغبة عارمة ملحة في أن يفعل أي شيء ليخرج أخاه مما هو فيه وينقذه من عذابه بأي ثمن.

يا رب أريد أن أساعده فكيف السبيل إلى ذلك!؟

نهض محمود بشيء من الحماس ومدَّ يده نحو حامد هاتفاً في تحفيز:

- قم معي يا حامد.

رفع حامد نحوه وجهه المتهدل بنظرة مستفسرة فاستنرد محمود محاولاً طمأنته في عطف:

- ما حدث حدث لن يغيره شيء ولا حتى الندم. والحياة سائرة لن يوقفها شيء ولا حتى الموت. كلنا أخطأنا ونخطئ وسنظل نخطئ. وخير الخطائين التوابون كما تعلم يا شيخ حامد.

قال الكلمتين الأخيرتين بابتسامة أكثر اتساعاً ونبرة موحية في إشارة لشهادته الأزهرية. غالب حامد نكده وابتسم ابتسامة خفيفة في تجاوب شجع محمود على الاستمرار:

- تعال صلِّ بنا العشاء في المسجد بدلاً من محمد اليوم وادع الله من كل قلبك. سيستمع لك ويغير ما تظن أن أوان تغييره قد فات فسبحان الذي يغير ولا يتغير. ثم بعد ذلك نذهب لنزور مصطفى وعبد العزيز. هذا هو ما يحتاجه أخوك من الآن أكثر من أي شيء آخر.

بعد ذهابهما، أسرع ميرى تجلس في مكانها المفضل أمام نافذة غرفة الجلوس. تعلقت عيناها بهما وهما يسيران ببطء نحو المسجد متأبطين ذراعي بعضهما البعض في حميمية لم ترها بينهما من قبل! أحست بالغيرة تشتعل بداخلها وتمرر حلقها وتسمم دماءها. ها هو حامد يتقرب من محمود ويأخذه ليزور بثينة! بثينة التي لم تمر سوى سوي ساعات قليلة على زيارتها لهم خلال النهار! أخذت تضرب بقبضتها في عصبية على فخذها والفكرة تتضخم في خيالها وتسيطر عليها وتستبد بها. لا مفر من الذهاب للإسكندرية. لا مفر حتى وإن استقلت القطار بمفردها دون أن يعرف محمود.

«حضرة صاحب الفضيلة، الإمام المُرسى أبو العباس، رضى الله عنه، سلطان الإسكندرية، ومنصف الغلبة والمنكسرين، ومغيث طالبي الشفاعة والمدد..»

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وآله أجمعين..

حضرة سلطان الإسكندرية، شيخنا الكبير، قطب الطريقة الشاذلية، صاحب المقام الرفيع، صاحب السيادة والفضيلة، صاحب المجد والشرف، سيدي الإمام أبو العباس المرسي، رضى الله عنه وأرضاه..

يا إمام العارفين! يا سيدي! يا شيخي! يا إمامي! يا حاضر المريدين! يا قطب الأولياء!

تنظلم إليكم بهذا ميربابا بنت فاطمة.

توسلت إليكم بجاه سيدنا محمد الحبيب، أن تقضي حاجتي، وتزيل شدتي، يا حاضرًا لا يغيب..»

توقف دسوقي فجأة عن الكتابة.

كان يجلس في مكانه المعتاد فوق طوار المحكمة على كرسي متهاك خلف طاولة خشبية كالحة. يرتدي جلبابًا مقلّمًا تحت سُترة صيفية صفراء يحتمي بها من برودة الفجر التي لم يبدّها شروق الشمس بعد بالكامل. رمق في استنكار من تحت طربوشه الطويل نابلسية المستقرة على كرسي ملتصق بحافة طاولته فانتبهت من تركيزها وتوقفت عن الإملاء عندما كف هو عن الكتابة. اعتدلت بجسدها المدكوك وهي تلتفت نحوه في استفسار وقد تهدلت ملاءتها السوداء حول بطنها العظيمة المستقرة في حجرها.

- ميربابا! ما هذا الاسم الخواجاتي؟! وأيضا في الإسكندرية؟! ما شاء الله صيتك وصل حتى خواجات الإسكندرية!!

قالها في نبرة لا تخلو من حسدٍ فأسرعت نابلسية تفرج ما بين أصابعها الخمسة في وجهه وهي تهتف ملتاعة:

- الله أكبر.. حابس حابس.. يكفيننا الله شرك وشر أمثالك!.. ركز في الكتابة يا عرضالحجي الندامة ولا شأن لك بزبائني!

أوما دسوقي وهو يجيئها متظاهراً بالتسامح:

- مقبولة منك يا أم عوض.

ثم عاد يستكمل تعليقه على الأمر دون أن تؤثر فيه كلماتها البتة!

- لكنك تقولين إن اسم أمها فاطمة.. هذا يعني أنها مسلمة.. فكيف إذاً تكون «خواجاية» ومسلمة؟!!

زفرت نابلسية في نفاذ صبر وهي تحمد الله في سرها أنها اختارت عرضحالي المحكمة البعيدة حتى لا ينجح في استنتاج لمن يكون هذا الحجاب، وأنه دسوقي الذي تعرف عائلته منذ طفولته فتستطيع توبيخه وردعه على راحتها:

- وما شأنك أنت يا حشري يا قليل الحياء؟! تريد أن تهتك أسرار الولايا وتعرف من يكنّ يا عايب؟!!

ثم ارتفع صوتها في توعده وهي تشيح بيديها:

- وكتاب الله المُنزَل.. والنبي ومن نبى النبي نبي إن لم تخرس وتكف لما نلت منى مليماً واحداً ولتركتك وذهبت إلى مبروك أفندي كاتب المدرسة ليكتب لي الحجاب.

هتف دسوقي في احتجاج:

- مبروك أفندي سيأخذ منك ضعف الأجرة وخطه سيئ لن يقبله سيدنا المرسي!

- ولو! على الأقل لن يتدخل فيما لا يعنيه!

فأسرع دسوقي يقول مهانداً:

- يا ستي أنا لا أقصد التدخل فيما لا يعنيني! أنا فقط أردت تنبيهك! خفت أن تكوني غيرت اسم صاحبة الحاجة لتخفي هويتها ونسيتي أن الحجاب إن لم يُكتب بالاسم الأصلي لن يُقبل!

شهقت نابلسية وهي تثني سبابتها وتقربها من حاجبها ثم هتفت مستكبرة:

- أنت تتبّهني أنا يا ابن زليخة؟!!

- حقك عليّ!

- كسر حُقك!

ترجع دسوقي بسرعة عن مجادلتها وعاد إلى الكتابة مرة أخرى وهو يتمم محاولاً الحفاظ على ما تبقى من كرامته:

- على العموم الأمر واضح كالشمس.. اسم خواجاتي ومسلمة.. هي إذاً تركية لا شك في ذلك!

زفرت نابلسية في ضيق:

- اللهم طولك يا روح.. اكتب وكفاك تذاكياً..

ثم مضت تمليه ما تبقى من نص الحجاب متفننة في بذل التوسل والاستجداء حتى آخر فقرة..

«أجرني يا سيدي أبو العباس، وأظهر لي كرامتك..»

أعرفك لما ربنا يبلغ المقصود، لك الحلاوة إن شاء الله. أعمل لك خاتمة لوجه الله، وأنفق على المحتاجين والفقراء، على قدر طاقتي، وأقبل عتبه مقامك..

الله يقدرك للعمل الصالح. أنا متعشمة في كراماتك.

أرجو أن تظهر لي، وتبين لي بيانك، وترزقني الولد الذي يشد ظهري ويسنده.

مددك مددك مددك يا سلطان.. يا مرسي..

أنا محسوبة عليك، والمحسوب منسوب، يا أبا مقام عال..

العبد ليس بيده شيء، وأنتم من عباد الله الصالحين..»

أنهى دسوقي الكتابة وطوى الورقة في شكل حجاب مثلث ثم وضعها في يد نابلسية التي دستها في صدرها بعناية. وقتت وحبكت الملاءة حول جسدها ثم أسدلت البرقع على وجهها. وفي النهاية أخرجت من جانب صدرها الآخر قطعة معدنية ألقتها أمامه على المائدة واستدارت مبتعدة دون كلمة.

تناول دسوقي القطعة المعدنية وهو يهتف بنبرة لزجة وابتسامة سخيفة:

- سلامنا للشيخ صبرة.

التقت في حدة وحدجته بعينين تقدحان شرراً بعد أن نجح في إغاضتها بمعرفته للوجهة التي تتجه إليها بالحجاب. كادت أن تعود وتخلع شيشبها لتتهم عليه به، لكنها عدلت عن ذلك مؤجلة انتقامها منه ليوم آخر. استدارت وأسرعت تحت الخطى نحو بيت الشيخ صبرة لتنتهي مهمتها في أسرع وقت ممكن، تحسباً لأن تكون السيدة أم شكرية قد انتوت السفر لزيارة المرسي اليوم ولا يعيقها إلا عدم استلامها للحجاب حتى الآن، فتغضب منها السيدة رقية.

كانت ميري ترفع أطباق الإفطار من على المائدة عندما سمعت صوتَ طَرْقٍ خفيفٍ على باب الشقة. دقات خافتة جدًا حتى ظنت في البداية أنها يُهَيَّأُ لها، لكنها تركت الأطباق وتوجهت ببطءٍ تسبقها بطنها المنتفخة نحو الباب وما إن فتحت حتى اتسعت عيناها في فزع. أسرعَت تلتفت بحركة لا إرادية نحو باب غرفتها قبل أن تعود مرة أخرى وهي تهتف في ارتياح:

- نابلسية! ما الذي أتى بكِ الآن؟! أنا لا أريد أن يراك محمود فيشكك في شيء!

- جنّت لأعطيكِ الحجاب يا أم شكرية.

قالتها نابلسية وهي تمد يدها نحوها بالحجاب الملفوف في قطعة قماشية بيضاء مربوطة بدُّبارة. اختطفته ميري وأسرعَت تدسه لتخفيه في صدرها وهي تهتف محاولة إنهاء الموقف:

- تعيشي يا نابلسية.. اذهبي الآن وسنتكلم عندما نتقابل عند رقية الأسبوع القادم.

فأسرعَت نابلسية تحاول استوقافها قائلة:

- لحظة يا أم شكرية.. قولي لي.. اسمك الحقيقي ميربابا كما قالت لي الست رقية من قبل أليس كذلك؟!

عقدت ميري حاجبيها وهي تجيب في حيرة:

- نعم صحيح.. لماذا؟!

- أردت فقط أن أتأكد أن الاسم المكتوب في الحجاب صحيح.

وضعت ميري يدها على صدرها وهي تهتف في فزع:

- قلتِ اسمي للعرضحالي يا نابلسية! فضحتي!

انبرت نابلسية تقول مدافعة:

- اطمئني يا ست أم شكرية.. العرضحالي لا يعرفك ولا يعرف اسم نعيمة ليعرف مَنْ هي ميربابا.. المهم لا تنسي ما قلته لكِ من قبل.. المسح على الضريح وكنس أرض المقام وقلب السجاجيد.

فأسرعَت ميري تهتف في نفاذ صبر وهي تتلقت خلفها في قلق:

- نعم نعم أتذكر.. اذهبي أنتِ الآن والنبي..

ذهبت نابلسية وأسرت ميرى تغلق الباب. توقفت للحظات تلتقط أنفاسها المتقطعة حتى هدأ قلبها المضطرب عندما خرجت وداد من غرفتها مرتدية ثوبها الأسود وحاملة حقيبة صغيرة في يدها. عادت ميرى نحو المائدة وهي تمط شفتيها متسائلة سؤالا لا معنى له إذ كانت تعرف إجابته مقدما:

- ستقضين اليوم مع برلنتي؟

- نعم وسأبيت الليلة معها. أبي سيصحبني إلى هناك في طريقه للعمل.

أكمل محمود جملتها وهو قادم من غرفته وقد ارتدى حُلته وطربوشه:

- فرصة لأرى برلنتي. لم أرها من أسبوع تقريبا.

حيًاها محمود وقبّلتها وداد قبل أن يذهباً ويتركها وحدها في البيت. أدرات أغنية لأم كلثوم وانهمكت في إنجاز أعمالها اليومية وعقلها مشتت بين فكرة إعادة محاولة إقناع محمود مرة أخرى، وبين الإقدام على الفكرة الأخرى النزقة بالسفر إلى الإسكندرية وحدها، ومدى إمكانية الذهاب والعودة في نفس اليوم دون أن يعرف أحد.

ظلت هكذا حتى قبل الظهر بقليل عندما أخرجها من شرودها صوت طرقات على باب الشقة. اتجهت لتفتحه في آلية سرعان ما تحولت إلى زهول شديد عندما وجدت أباه تيمور واقفاً أمامها! لم تكن تتوقع عودته مبكراً هكذا من السفر، ليس فقط لمعرفتها بأنه سيقضي يومين في الإسكندرية قبل عودته، لأن هذا الأمر أصبح في حكم العادة، فمنذ أن انتقل حسن للعمل وتزوج واستقر هناك، وكل مرة يسافر فيها تيمور مع الباشا إلى الخارج من ميناء الإسكندرية، يصحب معه فاطمة ويتركها لتقضي مدة سفره مع أسرة حسن قبل أن يعود ليمضي معهم يومين ريثما يرتاح الباشا وأسرته في قصر الإسكندرية، ثم يعود معهم إلى القاهرة مصطحباً فاطمة. لكن توقعها هذا كان راجعاً للظروف الاستثنائية الخاصة بهذه السفرة الأخيرة؛ فبعد أن توفي الله الباشا من عام قررت الهانم زوجته تصفية أعماله كلها في مصر والعودة للاستقرار في إسطنبول. منحت تيمور مكافأة سخية لانتهاج خدمته لهم، قوامها مبلغ كبير يكفيه ما تبقى من عمره بالإضافة إلى سيارتها الشخصية كهدية له، لكنها في المقابل طلبت منه مهمة أخيرة وهي مرافقتها في سفرتها تلك حتى يطمئن على استقرارها في بيت إسطنبول، ويكون بذلك قد أنهى ستة وثلاثين عاماً من إخلاصه في خدمة الباشا وأسرته على أتم وجه. فكيف إذا يعود أبوها مبكراً هكذا رغم كل هذه الظروف والتفاصيل؟!!

أخرجها تيمور من زهولها وهو يحتضنها في سعادة أحست أنها تخفي شيئاً آخر غير شوقه لها:

- ميرى أوحشتني يا حبيبتي! كيف حالك؟!!

- بخير يا أبي الحمد لله.. هل أمي معك؟!!

قالتها وهي تمد بصرها باحثة خلفه لكنه أسرع يسترد نظرها نافيًا:

- لا، أمك ما زالت عند حسن.

رفعت ميري حاجبها في تعجب:

- عُدت بدون أمي؟! كيف هذا!؟!

فأسرع يهتف وقد وصل حماسه إلى ذروته:

- أمك سأعود إلى الإسكندرية غدًا لآتي بها.. لكن كان يجب أن أعود اليوم لآتي لك بمفاجأة لن تصدقها! أتعرفين من ينتظر تحت في السيارة!؟!

ضيق ميري عينيها في تساؤل وهي تهز رأسها نافية في حيرة وقد استغلق عليها استنتاج ما يرمي إليه أبوها، فأسرع هو يهتف في سعادة ملقيًا بالقبلة في وجهها:

- آيسل يا ميري.. آيسل ابنة خالتك رقية!

حملت في وجهه المنتفخ بحُمره الحماس دون أن يبدو عليها أي تأثر. لحظات استغرقها عقلها المشتت لينحي أفكارها المُلحّة جانبًا، ويفسح مكانًا لهذا الخبر الجديد حتى يفهمه ويستوعبه قبل أن يبدأ أثره في الظهور عليها بالتدريج. اتسعت عيناها في دهشة وعدم تصديق بينما بدأ صوت قلبها يرتفع رويدًا رويدًا وتيمور يحكي لها سريعًا ما حدث بحماس:

- قابلتها هي وزوجها على الباخرة في طريق عودتي إلى الإسكندرية. هي من عرفتني بالطبع، لم أكن لأعرفها دون مساعدة فقد كبرت كثيرًا. زوجها يعمل دبلوماسيًا وقد نُقل حديثًا للعمل في التمثيل الدبلوماسي بالأرجنتين. رحلتها للإسكندرية لم تكن إلا محطة أولى في رحلة طويلة حتى هناك. أُنعتهما بالمجيء إلى القاهرة لشراء بعض المستلزمات ومقابلتك وقضاء يومين قبل العودة إلى الإسكندرية لركوب باخرتهما التالية. استغللت فرصة تفضيل زوجها للراحة في الفندق وأتيت بها إليك لتجالسها على راحتك. سأنزل لآتي بها. استعدي.

كانت تستمع إليه مأخوذة ومتسمة كالتمثال.

معقول؟! آيسل؟! لقد كادت أن تتساها. بل لقد نسيتها بالفعل! صراعاتها مع هذه الدنيا وما فعلته بها خلال السنوات الماضية طغوا على كل شيء حتى على آيسل التي كانت لا تغيب عن بالها لحظة! ظلت منزوية هناك في ركن بعيد بداخلها لكنها فقدت هذا الحضور الطاعي المستبد في كل فكرة وكل حلم يمر بخيالها! كانت موجودة بالتأكيد. انعكاسها حاضر في كل شيء. لكن حضورها نفسه

فقدَ بريقه بالتدريج ثم اختفى مفسحًا المجال لتلك الحياة المحتدمة التي تقلبت بين أمواجها كثيرًا، ولا تزال حتى هذه اللحظة.

لاحت ابتسامة ساخرة على شفثيها. يا للعنينا وغبابها! في الأيام التي كانت تمنى من كل قلبها أن يعثر أبوها على آيسل في أي من سفراته الكثيرة لإسطنبول، لا يحدث ذلك، ولا يقابلها تيمور إلا في رحلة عودته من آخر سفرة، في الوقت الذي تكون أمنيتها بمقابلة آيسل قد توارت ولم تعد مؤلمة في إلحاحها بل وانطمت تمامًا تقريبًا.

انتبهت وقد علا وجيب قلبها عندما سمعت صوت خطوات صاعدة على السلم قبل أن يظهر تيمور وهي خلفه.

فجأة وجدت ميري نفسها أمام امرأة أرستقراطية لا يمكن أن تكون منتمية لها بأي شكل من الأشكال! امرأة تبدو أصغر منها رغم أنها في الحقيقة تكبرها بأربع سنوات! ترتدي فستانًا قزميًا أنيقًا في نفس لون القبعة، وقفازين أسودين متناسبان مع سواد الحقيبة والحذاء ذي الكعب العالي.

- ميري! يا إلهي كم تغيرت!

هتفت بها آيسل في حماس بلغتهما البلغارية القديمة وقد شابتها لكنة تركية. ازدردت ميري ريقها وهي تدفع نفسها لتبتسم بصعوبة وقد سيطر عليها الاضطراب وأفقدتها القدرة على التفكير فيما يجب عليها أن تفعل أو تقول. تمت بصوت متهدج وهي تنقل عينيها بتوتر بين آيسل وتيمور الذي وقف يراقبها وابتسامة واسعة تزين شفثيه:

- أنت أيضًا تغيرت! أصبحت.. جميلة جدًا!

أطلقت آيسل ضحكة ظاهرها الاستهانة، لكنها فشلت في مداراة شعورها بالإطراء والسعادة لوصفها بالـ «جميلة جدًا». أسرع تيمور يغلق باب الشقة وهو يهتف محفزًا:

- هيا اجلسا في غرفة الجلوس وأنا سأصنع لكما الشاي.

- لا داعي يا عمي.. لا وقت لدي.. أريد أن أذهب إلى الأسواق القديمة التي حكيت لي عنها لأشتري المستلزمات التي قلت لك عليها.

لم يكثر تيمور لاعتراض آيسل واتجه نحو المطبخ بينما أشارت لها ميري لتسبقها داخل غرفة الجلوس. تبعتها وهي تسترق النظر نحو هيئتها الراقية وإحساس الغرابة يتمدد بداخلها. أغلقت الجرافون قبل أن تجلس بجانبها على الأريكة أمام النافذة وقد تركت بينها وبين هذه السيدة الراقية مسافة صغيرة. مرت لحظات صمت أمضتها وهي تضغط أصابعها في ارتباك. لا تعرف ماذا يجب

عليها أن تقول ولو حتى على سبيل الضيافة بينما لم يبدُ على آيسل أي أثر لارتباك مماثل. فوجئت بها تهتف فجأة بنبرة يلوح بها شيءٌ من السخرية البريئة:

- ما هذا يا ميري؟! حمل وولادة وأنتِ في مثل هذا العُمر؟!!

ابتسمت ميري في توتر وقد فاجأها التعليق الذي لم تتوقعه بالمرّة. امتدت يدها في حركة لا إرادية لتستقر على بطنها المنتفخة كأنها تود أن تخفيها في خجل. تمتمت في حرج لا تعرف لماذا شعرت به:

- لم يكن الأمر في الحسبان.

يا ربي! إنها تستنكر الحمل نفسه! فهل يمكن أن تفهم إن جرّبت أن تحكي لها مخاوفها التي تقض مضجعها ورغبتها المُلحّة في إنجاب الولد لتتخلص من هذه المخاوف؟! كيف يمكن أن تسخر منها آيسل إن أخرجت من صدرها الحجاب وحكت لها عن نبوءة نابلسية التي رأتها في فنجانها ثم أخبرتها برغبتها في السفر لزيارة المرسي أبو العباس؟! هذه التي كانت أول صديقة لها في حياتها. أقرب صديقة حظت بها طوال عمرها. لا إحسان ولا حتى رقية استطاعتا أن تملأ الفراغ الذي خلفته آيسل. شد ما غيرتتهما الأيام وفرقت بينهما!

أسرعت ميري تغالب أفكارها وتحاول تغيير دفة الحديث متظاهرة بالأريحية:

- وأنتِ.. هل عندك أبناء؟

أومأت آيسل وهي تمط شفثيها:

- نعم.. ابنة واحدة.. متزوجة في إسطنبول.

ثم زفرت وهي تستطرد في ضيق وضجر:

- كنت أرجو أن أستمع أكثر بتحُرُّري بعد زواجها وأن يُنقل أمين إلى بلد جيد في أوروبا، لكن جاءت الحرب ثم النقل إلى الأرجنتين هذه في آخر الدنيا! كنت أريد الانتقال إلى أوروبا! هل زرت باريس من قبل؟!!

هتقت بسؤالها في حماس أربك ميري التي لم تطأ قدماها خارج القاهرة منذ مجيئها إليها وهي طفلة. تمتمت وقد عاد الحرج يكسو صوتها:

- لا.

- ساحرة! لا أعرف كيف أصبحت الآن بعد الحرب لكنني آمل أن أذهب إليها قريباً!

أومات ميري بنفس الابتسامة المرتبكة دون أن تتبس. تلفتت آيسل متأملة الغرفة حولها بنظرات جعلت قلب ميري يسقط في أحشائها. عادت تنظر نحوها وهي تقول بنبرة مجاملة:

- بيتك لطيف.

تقصدين «بيتك فقير».. بدا الأمر واضحًا في صوتك ونظرتك يا آيسل هانم لا داعي للتظاهر بالإعجاب.

فجأة شعرت ميري أنها تريد لهذه الجلسة العجيبة أن تنتهي! أحست بها ثقيلة الوطأة على نفسها بعد أن أصابتها في دقائق قليلة بمزيج من المشاعر السلبية! اضطراب وارتباك وحرص وخجل من أشياء لم يمر بخيالها قطّ أنها يمكن أن تخجل منها في يوم من الأيام!

دخل تيمور بصينية الشاي فانقضت آيسل واقفة وهي تهتف في توسل ولهجة:

- أرجوك يا عمي يجب أن أذهب الآن لأستطيع شراء كل ما يلزمي قبل السفر.

وضع تيمور الصينية وهو يقول في استغراب:

- لم نصل إلا منذ قليل!

- اعذرنى لكنني لا أستطيع التأخر على أمين. هل يمكن أن تأخذني إلى الفندق!؟

- كنت سأخذك للسوق بنفسى.

- لا داعي لذلك. سنستأجر سيارة من الفندق أنا وأمين لنكون على حريتنا.

ثم التفتت نحو ميري التي كانت تراقب الحوار كالعربية التي لا شأن لها به ثم هتقت مبتسمة في اقتضاب:

- لقد أخذنا عنوان عمي تيمور هنا في القاهرة. سنكتب إليكم عنواننا ما إن نستقر في الأرجنتين. اكتبى لي يا ميري. (ثم بنبرة مازحة) لكن بالتركية فأنا لا أقرأ لغتنا القديمة ولا أفهم العربية بالطبع.

أومات ميري مبتسمة دون أن تتبس(36). وقد داخلها يقين لا تعرف منبعه أن آيسل لن تكتب لهم شيئاً. نهضت بصعوبة ولثمت وجنتها لثمة باردة ثم سارت في إثرها مودعة إياها حتى باب الشقة. وما إن بلغه تيمور حتى التفت نحوها مداعبًا:

- سأوصلها إلى الفندق وأتي لأتناول الغداء معكم.. انتظروني.

أومات ميري موافقة بينما لم تزايل الابتسامة الباردة شفيتها بعد .

أغلقت الباب خلفه وظلت متببسة مكانها للحظات تحاول استيعاب ما حدث وتركها في هذه الحالة الغريبة. هل حدث ذلك بالفعل أم أنه كان مجرد حلم يقظة أفيقت منه للتو؟! المقابلة التي ظلت سنوات طويلة لا تتمنى أي شيء أكثر منها انتهت فجأة كما بدأت فجأة! كخيال أو طيف مر سريعاً دون أن يترك خلفه أي أثر على وجوده! كم تغيرت آيسل! أصبحت امرأة كبيرة! هانم أنيقة لا تمت للصورة القديمة بأي صلة! أم هي - ميري - التي تغيرت؟! ترى لو كانتا كيرتا سوياً كل كانتا تصيران متشابهتين ومتقاربتين؟! لكن عدم التشابه هذا لم يكن هو سبب تلك الهوة الكبيرة التي شعرت بها تفصلها عن آيسل رغم أن المسافة بينهما لم تتعد سنتيمترات قليلة، بل إحساس آخر غريب لم تفهم كنهه جيداً. شيء كالاستنكار من أن آيسل التي مرت بمثل الذي مرت هي به بل وبما هو أقسى منه، لا يبدو عليها ذلك! لا يبدو عليها أنها تكتوي بنيران الذكريات وآثارها ورواسبها كما يحدث لها هي. أم أن الجميع - حتى آيسل - استطاعوا أن ينسوا ويتجاوزوا بينما كُتب عليها هي فقط أن تظل معلقة بحبال الماضي، وأن تتخرها كل يوم مخاوف أورثتها إياها الذكرى التي لا تغيب أبداً حتى وإن اتخذ حضورها أشكالاً مغايرة للواقع القديم؟!!

أو ربما تجيد آيسل إخفاء مشاعرها ومخاوفها؟ أو كما يقولون جبل الثلج لا يبدو منه سوى ثلثه؟ لكن حتى هذا الثلث لم تره! حتى البرودة التي تقضح وجود جبل الجليد رغم اختفائه كله تحت الماء، حتى هذه البرودة لم تستشعر وجودها؟! لم تر سوى سيدة أرستقراطية يفصلها عنها وعن اهتماماتها أزمنة طويلة كأنها قابلت امرأة من عصر آخر. ترى هل شعرت آيسل نحوها بمثل الخيبة التي شعرت هي بها؟ هل رأتها امرأة غريبة لا تستطيع فهم مشاعرها وأفكارها؟ هل كان يمكن أن تسير الجلسة بشكل مختلف إن لم تلجمها الصدمة هكذا وبادرت بفتح قلبها لآيسل بدلاً من الاكتفاء بأن تكون مجرد رد فعل لما تقوله هي؟! لماذا لم تفعل آيسل ذلك إذا وتبادر بفتح قلبها والإفصاح عن مشاعرها الحقيقية؟! أم أن شكواها من عدم الذهاب لأوروبا هو جُل ما يشغل بالها؟! وسخطها على ذلك هو ذروة مشاعرها ومخاوفها بالفعل؟! أحست بالحيرة تدير رأسها وتكاد تفنك بها. أسئلة جديدة ستظل بلا أجوبة. يا ربي كأنها فقدت آيسل مرة أخرى! لقاء بلا طعم أو ملامح. لم يرو الظمأ القديم ويعيد الصداقة المفقودة ولا حتى وضع لها نهاية لائقة تريحتها من الحيرة حتى وإن أصابها اليأس!

سيطر عليها شرود عطّل حواسها. يداها تحضران الطعام في آلية بعينين تنظران ولا تريان وأذنين تلتقطان الأصوات ولا تسمعان. حتى محمود الذي عاد واستبدل ملبسه وبدأ يساعدها في نقل الأطباق إلى المائدة لم تفكر أن تحكي له أي شيء مما حدث. كأنها خشيت أن يتحمس إن علم أنها أخيراً قابلت آيسل التي طالما حكّت له عنها وعن فراقها وما خلفه في قلبها من ندوب لا تندمل. خافت أن يبدي حماساً لا تعرف كيف تقابله وهي مشلولة هكذا! لم تخبره حتى أن أباها قد عاد من السفر وأنه سيتناول معها طعام الغداء فتفاجأ به عندما فتح الباب ووجده أمامه لكنه سرعان ما رحب به بشدة قبل أن يدعو للجلوس معها حول المائدة.

ظلت ميري على شرودها. تلوك طعامها ببطءٍ وهي شبه منفصلة عن الحوار الدائر بجانبها. لم تنتبه إلا عندما التفت محمود نحوها هاتقًا في دهشة:

- آيسل كانت هنا اليوم؟!!

جاهدت لتبتسم وهي تومئ مؤكدة ما قاله أبوها، بينما أدرك محمود من نظراتها أن ثمة غرابة في الأمر فترجع عن الاستطرد في استفساراته مؤجلًا ذلك لوقت آخر. تبادل هو وتيمور نظرات قلقة من هيئتها الشاردة وابتسامتها الصفراء وانفصالها عنهما كأن شيئًا جميلًا لم يحدث منذ قليل، لكنهما صمتا في تواطؤ خفي خشية الضغط عليها وهي في حالتها تلك.

حاول محمود كسر الصمت المشحون بأن قال في شبه مداعبة:

- تصور يا عمي.. ميري تريد أن تذهب إلى الإسكندرية وهي هكذا!

توقع أن تخرج من شرودها وتبيري للدفاع عن رغبتها أمام أبيها، لكنه فوجئ بها توغل في صمت يخالف طبيعتها في مثل هذه المواقف بينما أجاب تيمور قائلاً:

- وماذا في ذلك؟! دعني أخذا معي وأنا ذاهب غدًا.

نزع محمود عينيه القلقتين من عليها والتفت نحو تيمور متسائلًا في توجس:

- ماذا تقول يا عمي؟! السفر والقطار سيتعبانها!

- لن نسافر بالقطار. سنسافر بالسيارة وسأقود ببطءٍ، لا تقلق.

بدا على محمود شيء من الاقتناع لكنه هتف متسائلًا كمحاولة أخيرة لإرضاء قلقة:

- لكن ما الداعي لذلك؟!!

- آيسل قالت إنها إن عادت إلى الإسكندرية في وقت مناسب قبل موعد الباخرة ستحاول المرور علينا في بيت حسن لنجتمع عنده وفاطمة لا تزال هناك. يمكن أيضًا أن نطلب من رقية أن تلحق بنا هي والبنات، ويمكن حتى أن تأتي معهن شكرية هي وسعد وإسماعيل (ثم أشار برأسه ناحية ميري ليوحي لمحمود بمعنى خاص لجملته العامة) فرصة لتجمع العائلة ولتغيير الجو حتى وإن لم تصدق آيسل في وعددها.

زم محمود شفثيه مفكرًا للحظات قبل يقول مستسلمًا:

- حسنًا لا مانع. لكن سأتي معكم لأكون مطمئنًا.

أوماً تيمور بابتسامة مرحبة قبل أن يعودا لتناول الطعام في حماس بينما لم يبذُ عليها هي أي تغيير، كأن طلبها الذي كادت أن تقوم بمغامرة متهورة لتتاله لم يتحقق منذ لحظات قليلة بشبه معجزة! حتى هذه المعجزة الصغيرة التي حدثت دون ترتيب أو مجهود لم تغلح في إخراجها من بئر الحيرة الذي قذف بها فيه لقاؤها المباغت بأيسل. ظهورها هذا المفاجئ ورحيلها السريع لم يُخَلَف بداخل ميري أي رغبة في لقاء آخر حتى ولو من أجل معالجة هذه الحيرة، ولم يخلق أي أمل في أي لقاء ثاني حتى وإن وعدت أيسل بمحاولة ذلك.

(٨)

البحر!

اقتحمتها رائحة اليود والزرقة الواسعة المبهرة ما إن حازت السيارة سور الكورنيش القصير. تطلعت من نافذة المقعد الخلفي تتأمله بشغف ودهشة كأنها تراه لأول مرة. هي بالفعل تراه لأول مرة بعيني ميري الكبيرة ولا تملك سوى أن تقارنه بالصورة التي التقطها خيال ميري الصغيرة. كانت تظن أن صورته الضخمة التي احتفظت بها في ذاكرتها لستة وثلاثين عامًا ليست إلا تهويلًا لحجمه الحقيقي كما تنزع أعين الأطفال لأن ترى كل شيء حولها أكبر مما ينبغي. لكنها فوجئت به كبيرًا بالفعل بل وأكبر حتى من الصورة المستقرة في خيالها. هذا البحر الذي حملها وهي طفلة من الناحية الأخرى حيث النهايات المخيية، إلى هذه الناحية حيث بدايات جديدة نشبت أظافرها في خيبيات الماضي رافضة أن تتخلص من آثاره عليها. ها هي اليوم تعود إليه، إلى حيث بدأ كل شيء من قبل، فهل يكون هذا إيذانًا ببدايات جديدة؟

تحسست الحجاب المدسوس في صدرها بقلق. انتابها شيء من الخوف عندما شعرت برطوبة صيف الإسكندرية تتسلل من تحت ثوبها الأسود وتلتصق بلحمها، ثم أحست بالعرق وهو يسيل ببطء بين ثدييها مهددًا القماشة البيضاء بالبلل وحبر الكلمات المسطورة على الورقة الداخلية بالتلطيح، فيفسد الحجاب ولا يقبله أبو العباس.

انصرفت تمامًا عن تأمل البحر والسائرين بمحاذاته وركزت حواسها كلها لمتابعة المباني المتراسة على الناحية الأخرى حتى إذا ما لاحت القباب الدائرية الكبيرة المنقوشة أسرعته تهتف في لهفة واضحة:

- توقف يا أبي!

هكذا تيمور من سرعة السيارة قبل أن يتوقف على جانب الطريق. التقت نحوها هو ومحمود الجالس بجانبه يرمقها بنظرات دهشة وتساؤل، فأسرعت تخفي لهفتها وهي تبرر طلبها للتوقف متظاهرة بالتقائية، كأن الأمر لا يعدو كونه فكرة خطرت لها فجأة:

- أليس هذا مسجد سيدنا المرسي أبي العباس؟! أريد أن أزوره.

اتسعت عينا محمود وهو يتساءل في تعجب:

- الآن؟! وأنتِ هكذا بعد هذه السفرة الطويلة؟!!

- ماذا بي؟! أنا بخير! (ثم تحولت نبرتها إلى شيء من الهجوم لتخفي اضطرابها) ثم أليس هذا هو مُعلمُ جدك سيدي إبراهيم؟ الولي الذي نعيش ببركته جميعنا؟! كان الأجدر بك أن تطلب زيارته ما دما قد أتينا إلى الإسكندرية!

أسرع تيمور يحاول السيطرة على الانفعال الذي انتابها بلا داعي قائلاً في بساطة:

- حسناً لا مانع.. فلندخل لنصلي الظهر وندعو للشيخ سلامة رحمه الله.. لن يستغرق الأمر سوى دقائق.

صمت محمود موافقاً لكن ظلت عيناه ترمقان ميري في تشكك من انفعالها هذا غير المبرر، بينما أحست هي براحة عميقة تنتشر بداخلها بعد أن نجحت في ثاني خطوات خطتها ولم يبق لها سوى الخطوة الأخيرة.

صف تيمور السيارة قريباً من المسجد قبل أن يهبط ثلاثتهم منها ويتقدموا من السلالم الجرانيتية. صعدت ميري ببطء بسبب ثقل بطنها المنتفخة وألم خفيف ينتشر بخصرها وأسفل ظهرها، لكنه لم يصرفها عن تركيزها في مراجعة مخططها لاستغلال الدقائق القليلة التي تستغرقها ركعات صلاة الظهر في تنفيذ كل ما قالت نابلسية بالحرف. وقفت تلخ حذاءها بينما سبقها إلى الداخل تيمور ومحمود ليلحقا بمجموعة صغيرة من رجال تراصوا بجانب المنبر منتهيئين لأداء الصلاة في جماعة.

ما إن خطت داخل المسجد، حتى استقبلها صوتٌ رخيماً لشيخ منكفي على مصحف في ركن قريب يرتل في خشوع. وفي نفس الثانية، غمرتها نسمة هواء باردة أهدت حرارة جسدها وجففت قطرات العرق الملتصقة به، وشعرت بها تنفذ حتى إلى عقلها وتصيبه بشيء كالشلل!

حدث كل ذلك فجأة وبسرعة لم تمهلها لاستيعاب هذا الذي حدث لها. كانت في لحظة تصعد السلالم بتصميم وعقل مشغول بتفاصيل مخطط يجب تنفيذه بألية. ثم فجأة تحولت في اللحظة التالية إلى كائن هش كريشة تتأرجح في مهب الريح. قوة عجيبة ملأتها رهبةً استبدت بها وأطارت كل الأفكار من عقلها وجردتها من كل ما يحفظ لها اتزانها. جاذبية غامضة سمّرتها مكانها كالتائهة لا تعرف كيف تخطو خطواتها التالية، مثل جمرة كانت تتدرج مشتعلة على منحدر حتى عبرت من شلال بارد اعترض طريقها فجأة فأطفأ نارها وجمدها في مكانها تحاول التقاط أنفاسها اللاهثة.

حاولت التغلب على هذا الشعور المبهم الذي اقتحمها بغتة فاحتلها وأفقدتها توازنها. عاودت الخطو ببطء نحو مقصورة الضريح، مستندة بيد على الحائط المجاور وضاعطة باليد الأخرى على أسفل بطنها حيث بدأ الألم الخفيف يزداد ويشد.

تهتف ببساطة وتلقائية، دون تشذيب أو تهذيب، بما عاشت عمرها كله مثقلة القلب به. هتفت به في وضوح أفرعها هي نفسها كأن هذا الرجل الواقف أمامها هو آخر ملاذ تستجير به ليخلصها مما هي فيه:

- الفراق يا مولانا.. الفراق متعلق بطرف ثوبي أينما حللت.. يتقنن في حرمانني دون رحمة.. قل لي ماذا أفعل لأنال شيئاً من الرحمة؟

عادت إلى الانخراط في البكاء بينما زفر الشيخ في تعاطف قبل أن يجلس قبالتها متربعا وهو يحوقل في تسليم. انتظر حتى هدأت قليلاً ثم سألتها بنبرة حانية:

- هل تعرفين كيف وصل إلى الإسكندرية سيدك شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن علي؟ مسحت دموعها وهي تنتظر نحوه متساءلة في حيرة:

- مَنْ؟!!

فأشار نحو الضريح بيد تدلت منها سُبُحته وقال بابتسامة واسعة:

- هذا الرجل الذي جنّت إليه ترتجين نجدته وشفاعته.

- أليس اسمه المُرسى أبا العباس؟!!

- بلى بلى.. المُرسى هذا نسبة إلى مرسية.. بلده الذي ولد فيه بالأندلس.. فما تظنين أن يكون هذا الذي جعل مدفن وضريح ابن مرسية هنا في الإسكندرية؟!!

مطّت شفيتها في جهلٍ وقد استغلق عليها إدراك السبب الذي دفع الشيخ لأن يسألها سؤالا كهذا لا صلة له بما أفصحت به للتو! استشعر الشيخ حيرتها فاستطرد مجيباً على سؤاله بنفس الابتسامة المطمئنة:

- أتى سيدك المرسى في رفقة سيده وسيدنا القطب الأكبر الشيخ أبو الحسن الشاذلي.. هل تعرفين كيف تعرّف عليه؟

ظلت ميري ترمقه صامتة بنفس الحيرة حتى قال يحثها على التفكير:

- إجابة هذا السؤال هي إجابة سؤالك أيضاً يا ابنتي.

مدت يديها تضغط بهما على ظهرها المتألم وهي تتساءل في لهفة لم يفلح الألم في صرفها:

- كيف؟! -

ثبت الشيخ عينيه في عينيها وهو يتسفيض في حكاية الولي بنبرة موحية:

- عندما كان سيدنا المرسي في الرابعة والعشرين من عمره ركب البحر مع أبيه وأمه وأخيه قاصدين الحج لبيت الله الحرام. هبت عليهم ريح عاصفة أغرقت المركب بكل من فيه. لكن أدركته العناية الإلهية هو وأخاه فنجيا وانتهى بهما الحال في تونس. تونس التي كان الشيخ الشاذلي مستقرًا بها في ذلك الوقت على مقربة من المكان الذي حلّ فيه.

ثم تساءل الشيخ بنبرة ذات معنى:

- هل كان يمكن أن يتخيل سيدنا المرسي عندما حلت به تلك الفاجعة التي أفقدته أمه وأباه وأرغمته على أن يبدأ هو وأخوه من جديد في بلد بعيد، هل كان يمكن أن يتخيل أن الله كان يشملته بتدبيره ورحمته في كل خطوة؟ وأن الحرمان والمنع كانا عين العطاء حين ساقته نفس مقاديرهما إلى ملاقة هذا الذي غير حياته فصار تابعه وخليفته ونال بمرافقته ما لم ينله أحد من قبل حتى قال له الشاذلي «لقد رأيت فيك ما في الأولياء، وما رأيت في الأولياء ما فيك»!

صمت الشيخ قليلاً صمتًا غالب به ألمًا ما استيقظ بداخله فجأة وطر من عينيه في دموع كتمها بصعوبة وهو يقرب يده الممسكة بالسُّبحة من فمه ليخفي اختلاج شفثيه. قال بصوت متحشرج كأنه يوجه السؤال لنفسه وليس لها:

- وأنت.. بالله عليك.. قولي لي.. ألم تكن رحمة الله وعوضه متعلقين بطرف ثوبك الآخر في كل مرة؟! -

ازدردت ميرري ببقية الدموع المتجمعة في حلقها وهي تحمق فيه بذهول. أخذ عقلها يعمل بسرعة ويدور حول سؤال الشيخ الذي صفعها ودفعها لاسترجاع كل الذكريات الموحجة من أول حكايات أجدادها وصولاً إلى ذكرياتها هي، إلى كل حادثة منذ مقتل خالتها رقية ثم فراقها عن أبيها وحتى وفاة الشيخ سلامة. نعم كان الألم عظيمًا لكن - ويا للعجب - كانت الرحمة موجودة أيضًا في كل مرة! كانت هناك مختبئة بين ثنايا التفاصيل وفي تعويضات جاءت تمامًا في وقتها المناسب. رحمة لولاها ربما كانت فقدت عقلها من زمن. رحمة لم تمحُ الألم ولم تُعد ما ذهب، لكنها كانت تعينها على التحمل ونغمها بالسكينة بل وتملأها بسعادة ما!

أفيقت من أفكارها عندما أرغمها ألم جسدها وطغى على كل ما عداها. أمسكت بظهرها ضاغطة عليه بجنون وهي تتأوه بشده وقد شعرت بوجعها يصل ذروة عجيبة لم يصلها من قبل، ولا حتى في كل ولاداتها السابقة فما بال وهي لا تزال في شهرها السابع! سمعت صوتي محمود وتيمور وهما يقتربان منها ويخاطبانها في فزع بينما كانت هي عاجزة تمامًا عن إجابتهما قبل أن يأتيها صوت الشيخ وهو يستحثهما قائلاً:

- اذهبا بها إلى المستشفى.. يبدو أنها ستلد الآن.

هتف محمود في سخط:

- تلد في الشهر السابع؟! ما كان يجب أن أوافق على هذه السفرة!

فأسرع تيمور يقول محاولاً السيطرة على خوفهما:

- لا وقت لهذا الكلام يا محمود.. فلنسرع بها إلى المستشفى.. هذه إرادة الله وكلها خير.

* * *

ممددة في فراش يتوسط حجرة بيضاء صغيرة، كانت ميري تبتمس في وهن وهي تتابع الحوار الدائر بين أبيها ومحمود فوق رأسها، بينما كان يجلس الباقون - أمها وحسن وزوجته وأبناؤه - على مقاعد متناثرة في أنحاء الغرفة:

- أرأيت يا محمود؟ الحمد لله الذي جعلنا نأتي إلى الإسكندرية. لو كنا في القاهرة، كنا سنكتفي بالولادة في البيت. والله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن يحدث في مثل هذه الولادة العسيرة لو لم تتم في المستشفى.

- الحمد لله يا عمي على تدبيره.

قالها محمود قبل أن ينحنى على وجه ميري ويتساعل بحب وقد اتسعت ابتسامته:

- بم ستسمينه يا ميري؟

انبرت فاطمة تقول في احتجاج بعريبتها المكسرة:

- الولد يسميه أبوه. لا تورطنا في مشاكل مع الست زبيدة يا محمود.

ضحك محمود متفاجئاً من ردة فعل حماته التي لم يعتدّ منها على طلاقة اللسان هذه قبل أن يقول مطمئناً:

- لا تقلقي يا عمتي. الاسم الذي تختاره ميري سأقول لأمي إنني أنا الذي اخترته.

فأسرعت ميري تقول بنفس الابتسامة الواهنة:

- لا. هذا الاسم بالذات أريدك أن تقول لحماتي زبيدة أنني أنا من اخترته.

عقد محمود حاجبيه متسائلاً في حيرة:

- ما هو هذا الاسم؟! -

التفتت ميرى تتأمل وجه الصغير النائم في أقمطته بجانبها، كأنها تعتذر عن طريقه لصاحب الاسم الأصلي عما فعلته مخاوفها وأفكارها في زوجته وحبيبته، حتى وإن كان ذلك بينها وبين نفسها فقط، ثم تمت بصوت خافت:

- إبراهيم.

- ما قبل النهاية -

أكتوبر ١٩٧٣ - الإسكندرية

فتحت ميرى عينيها فجأة كأن الاستيقاظ باغت نومها على غير توقع. دارت ببصرها فيما حولها محاولة التعرف عليه. استغرقها الأمر عدة ثوانٍ حتى تذكرت أنها ليست في غرفتها ببيت القاهرة القديم وأن هذه الغرفة بأثاثها الحديث نسبياً هي حجرتها الجديدة منذ عامين تقريباً.

رفعت جذعها بصعوبة حتى جلست مضطجعة وقد أسندت رأسها على ظهر الفراش. حاولت تحريك رجلها لتنهض فوقعت عيناها على الكرسي المتحرك المستقر بجانبها. غمرها شعور مؤلم بالأسى حين تذكرت ما ألمَّ بساقها من فترة طويلة وجعل هذا الكرسي البغيض جزءاً من حياتها. عقدت حاجبها في عزم رافضة الاستسلام لتلك الحقيقة وهي تتحامل على نفسها كما تفعل كل صباح محاولة التغلب على تيبس ساقيها لتنهض وحدها، رافضة تماماً فكرة الاستعانة بأحد، لكن ما إن يرتفع صوت اهتزاز الفراش تحت وطأة جسدها حتى يحدث ما يتكرر كل صباح. تفتح حفيدتها الكبيرة باب الغرفة وتدخل في خطوات مترددة محتمية بجدها الذي يلحق بها مستنداً على عصاه. ترمقها ميرى في حنق وتتمتم بكلمات متداخلة يميزان فيها توبيخاً ما على تسرعها بالدخول لمساعدتها فيما هي قادرة على القيام به وحدها. يتلقى محمود تدمرها مبتسماً ابتسامة يخفي بها قلقه عليها بينما هو منهمك باهتمام في إشرافه على حفيدته وهي تساعد في الانتقال للجلوس على الكرسي قبل أن تدفعها به نحو الحمام.

تركهما خلف الباب المغلق وسبقهما نحو الخارج في خطوات بطيئة تحت روب صوفي يقيه برودة الخريف التي ما عاد يتحملها الآن. مر في طريقه بالصالة حيث يجلس حفيده بجانب الراديو، وبالمطبخ حيث تقف شكرية منهمة في أعمالها اليومية. يعرف أن يديها تعملان في آلية بينما ذهنها منصرف تماماً مع قلبها المستقر هناك على شاطئ القناة، ويشعر بالعجز لأنه لا يملك أن يفعل لها أي شيء.

أخيراً استقر جالساً بجانب حفيدته الصغيرة في الشرفة المطلة على زرقة البحر الواسعة.

من عامين تقريباً وهما مقيمان مع شكرية في شقتها الجديدة التي انتقلت إليها مع أسرتها، بعد أن ساعد خالها حسن زوجها سعد في العثور على عمل أفضل ثم الانتقال للاستقرار هنا بجانبه بالإسكندرية. لم يرد محمود ذلك في البداية. كان يود لو يعيش حتى آخر يوم في حياته في بيته الذي وُلِدَ وعاش عمره كله فيه بشارع «سيدي إبراهيم». لكن ظروف مرض ميري وخوفه عليها كانا أقوى منه. كان من المستحيل أن يستطيع الاعتناء بها وحده وهو في شيخوخته هذه ويحتاج إلى من يعتني به، كما أن ظروف دراسة ابنهما إبراهيم ثم عمله جعلاً من الصعب عليه أن يضطلع بمهمة الاعتناء بهما هما الاثنين وحده. وبعد وفاة الحاج جلال وزواج برلنتي وسفرها مع زوجها هي ورقية إلى أمريكا ثم زواج وداد وسفرها هي الأخرى إلى السعودية، لم يتبق لهما سوى شكرية الكبيرة. وهكذا، انتقلا إلى بيتها الجديد هذا بينما بقي ابنهما إبراهيم مع من تبقى من أبناء عمومته في بيت القاهرة القديم مع الحفاظ على طقس السفر إلى الإسكندرية لقضاء الإجازة الأسبوعية معهما.

انتبه محمود عندما سمع صوت الكرسي المتحرك في الدهليز المؤدي إلى الجزء الخارجي من الشقة. دعا الله في سره ألا تكرر ميري ما تفعل كل يوم، لكن خاب أمه عندما سمع صوت توقف الكرسي أمام باب المطبخ ثم صوت ميري تلقي نفس السؤال الذي تلقاه على شكرية كل يوم دون كلل:

- أليس ثمة أخبار عن إسماعيل يا شكرية؟!

تخيل شكرية وهي تغمض عينيها محاولة السيطرة على دموعها ثم ترفرف نافثة ما يشعله هذا السؤال في قلبها من نيران تبذل مجهوداً كبيراً لإخمادها دون جدوى. سمع صوتها يجيب في اقتضاب:

- ليس بعد يا ماما.

- ادعي له كثيراً. الحرب سيئة يا ابنتي. سيئة فيما تأخذ وفيما تعيد.

قالت جملتها وحفيدتها تتحرك بها مبتعدة نحو الشرفة مارة بأخيها الجالس في الصالة بجانب الراديو يتابع أخبار الجبهة باهتمام.

أعاد محمود جملتها بينه وبين نفسه ببطء مستشعراً معناها. «سيئة فيما تأخذ وفيما تعيد». كم صدقت ميري فيما قالت! ألم تُعد الحرب أخاه إبراهيم بعد شهور من الاختفاء مهزوماً ومكسوراً بعد أن شهد سقوط فلسطين وخسارتها؟! حتى عدوان ١٩٥٦ ألم يأخذ معه العين اليسرى لابن محمد، حفيد حامد؟! وإسماعيل أول حفيد له من ميري، وقرعة عينه، ترى ما الذي ينتظره؟! أحس بقلبه يتقلص بداخله وشتى الخيالات السوداء تنقض عليه وتغيم الدنيا في عينيه. يا رب، اللهم كما منحتنا العبور والنصر بعد مرارة الهزيمة، أتم علينا نعمتك وأعد إلينا إسماعيل دون أن يصيبه سوء يا رب.

أوقفت الفتاة الكرسي المتحرك في الشرفة فمدت ميري يدها في خفة وقرصت حفيدتها الصغيرة في فخذها لتعتدل من جلستها المضطجة وهي تهتف في حزم:

- اجلسي في اعتدال كالبنات المهذبات.

بدا على الفتاة الصغيرة شيء من السخط لكنها اعتدلت في جلستها على مضض بينما التفت محمود نحوها هاتفاً في شيء كالاحتجاج:

- ألم أطلب منك أن تكفي عن طرح هذا السؤال على شكرية؟! ابنتك لا ينقصها ما تفعليه بها هذا!

التفتت ميري نحوه بنظرة مندهشة وهي تهتف في تعجب:

- أنت طلبت مني ذلك؟! أنا سألتها هذا السؤال من قبل؟!!

أسرعت الصغيرة تهتف في تأكيد كأنها تحاول الانتقام من قرصة جدتها:

- نعم يا تيتة تسألينها هذا السؤال كل يوم!

مطت ميري شفيتها في تعجب بينما كان محمود يتأملها وقد تراجع شعوره بالاحتجاج خلف شعور آخر عاد يستيقظ بداخله ويسيطر عليه. مزيج من الخوف والإشفاق عليها والتأثر نحوها. إنه يكبرها بتسع سنوات ورغم ذلك لم يصبه ما أصابها من صعوبات في الحركة، ولا هذا النسيان المتكرر. كم يخاف عليها وكم تفزعه فكرة رحيلها قبله. عجباً! هل انتقلت عدوى مخاوفها القديمة إليه بينما ارتاحت هي منها. شعر بشيء من الاستغراب حين وجد نفسه يبتسم فجأة. على الأقل ارتاحت هي أخيراً. كم يتلج ذلك صدره ويريحه. فليترك أمر الرحيل هذا إلى الله يدبره كما يريد داعياً إياه أن ينتقي منهما أولاً من تكون قدرته أقل على تحمل الفراق. فلينس هذا الأمر الآن وليشاهدها في سكينتها هذه وهي تتأمل البحر من خلف نظارتها وقد أحكمت الشال الصوفي حول جسدها الذابل والشاح الأبيض حول وجهها المكرمش.

في البداية كانت تحمل مشاعر متناقضة نحو هذه الزُرقة الواسعة. هذا البحر الذي حملها إلى هنا وهي طفلة بعد مأس أفقدتها اطمئنانها مبكراً وحمّلتها بما ظلت طوال عمرها تصارعه وتصارع نفسها معه. لكنها الآن أصبحت تحب البحر حباً خالصاً وتشعر بعرفان عميق نحو زرقته وأمواجه. أمواجه تلك التي لولا أن حملتها إلى هنا ما كانت حظت بكل هؤلاء. بالأبناء والأحفاد. وبمحمود الذي لا شيء في الدنيا يشعرها بالامتنان قدر وجوده بجانبها هنا والآن. يقضيان معظم اليوم في الشرفة طالما كان الجو مناسباً. تمتلئ أوقاتها بمناوشات متفرقة مع بعضهما البعض أو مع سعد أو شكرية أو الولد أو البننتين. وفي اللحظات التي يسود خلالها الصمت وينشغل عنها محمود بالجريدة، تمضي وقتها وهي تسترجع كل الذكريات وتحاول التركيز على الطيبة منها. حتى الذكريات السيئة، حتى أكثرها إيلاماً، تركز على أي جوانب طيبة فيها مهما صغر حجمها أو بلغت حماقتها. تفتش عنها حتى تجدها وتحاول التركيز عليها. تراقبهم كلهم - محمود والأولاد - وتملأ عينها برويتهم. تنزود منهم تحسباً لرحيل وفراق لم يخفف التفكير فيهما قط، لكنه أيضاً لم يعد بنفس الإحاح وإيلام الماضي. لا يعكر صفوها سوى غياب إسماعيل وخوفها عليه. فلتات لسانها تجعل محمود يظن أنها

لا تدرك كم أن شكرية موجوعة ومتقلبة القلب بمخاوف تجيد إخفاءها عن كل الناس إلا عنها هي، أمها. أمها التي عرفت هذه المخاوف وخبرتها وعاشت متقلبة بها أكثر من أي شخص آخر.

انتبهت فجأة عندما أحست بمحمود وحفيدتيها يراقبونها وابتسامه واسعة على شفاههم. أدركت أنها شردت مع خواطرها حتى نسيت نفسها كعادتها القديمة وارتفع صوت دندتها مع غناء الأسطوانة التي أدارها حفيدها بعد أن انتهت الأخبار. أسرعت تكف عن الدندنة فتركت الفتاتان مقعديهما وجلسنا على الأرض ملتصقتين بها وهما تهتقان في توسل:

- أكملِي غناءً يا تيتة.. والنبي.. والنبي..

اضطربت رغم أنها لم تكن أول مرة. تظاهرت بالتمتع فتمادين في توسلهن حتى جاءت شكرية من المطبخ لتعطيها كوب الشاي بالحليب، ثم تراجعت ووقفت مستندة على جانب المصراع المفتوح منتظرة بابتسامه وديعة أن تمتثل لهن في النهاية كعادتها رغم ما تظهره دائماً من حزم وصلابة.

اختلست ميري نظرة خاطفة نحو محمود فوجدته يرمقها في تشجيع بنفس نظرتة المشرقة التي طالعها بها لأول مرة في يوم بارد بعيد وهي مختبئة في معطف أبيها الذي جعل شكلها مضحكاً بطريقة أوقعته في غرامها. تظاهرت بالاستسلام المتضجر حتى يكف عن إلحاحهن. صمنتنا وهن يرقبنا في تلهف بينما اتجهت شكرية نحو مشغل الأسطوانات لتعلي صوته قليلاً حتى تصل نغمات الأغنية واضحة إلى الشرفة قبل أن تعود إلى موضعها مرة أخرى بجانبهم.

ارتشفت ميري من مشروبها الدافئ كأنها تهیی صوتها لوصلة غناء أمام جمهورها الصغير المتطلع نحوها في شغف. انتظرت ثواني حتى انتهت الوصلة الموسيقية وعاد محمد قنديل يغني وهي معه بينما عيناها تترددان بين محمود بجانبها والأفق الواسع أمامها:

غنينا ألفين موال

ع الغربية وليالي طوال

ومسيرك ترتاح البال

...

وتروّح بلدك يا غريب

وتلاقي ع البر حبيب

تمت

٢٤ فبراير ٢٠٢١

هذه الرواية

يمكن أن تقرأها بعد أن تقرأ «فتاة من الشرق» وتعتبرها امتدادًا طبيعيًا لها.

ويمكن أن تقرأها ثم تقرأ «فتاة من الشرق» فتصبح كأنك عرفت شخصًا في حضره وبعدها أصبحتما صديقين يجلس معك في يومٍ ويفضي لك بحكاياته وتفاصيل ماضيه الذي ما كنت تعرف عنه إلا شذرات قليلة.

ويمكن أن تقرأها دون أن تقرأ «فتاة من الشرق» وتعتبرها رواية مستقلة لا امتداد سابق لها فكل ما تحتاجه لتفهم الشخصيات وتتعايش مع الأحداث موجود بالفعل بين دفتي هذه الرواية.

امتنان عميق لا كلام يمكن أن يصفه

لهؤلاء الذين عملوا معي لشهور على تنقيح وتعديل مخطوط الرواية. لولاهم ما صارت الرواية كما هي عليه الآن (حرفيًا وليس مجازًا).

رضوى شريف - خالة الرواية (على حدّ تعبيرها).

نسمة زعزوع - المخرجة المتميزة وصاحبة الإضافات الأبلغ أثرًا.

يوسف منيع - رفيق الدرب.

نهى حسن - صديقة العمر.

لميس شريف - رفيقة الكفاح.

عبد الرحمن زكي - أكثر من (وجعت دماغه).

راما ماهر - رافعة المعنويات.

حنين شاهين - القارئة الشغوفة.

ياسمين صلاح يوسف - أول قارئة لأول مخطوط.

حور مجدي - أول من فتح عيني على منظور جديد لقرّاء مختلفين.

شكر كبير

لأمي نشوى صلاح، وأبي خالد إسماعيل، وأختي أريج خالد

أسرتي الكبيرة وخاصة أجدادي

كريستين فرحات ومي أشرف

جولي صلاح وندى مأمون

امنتان كبير

لكل من ساعد أو حاول المساعدة في رحلة الوصول إلى معلومات دقيقة لضمان الصدق في تفاصيل
الرواية:

الشيخ علاء عبد الحميد

خلود خليفة

سهيلة فتحي

سارة ماجد الخولي

- المصادر -

ليست مصادر بالمعنى الحرفي لكنني عدت إليها للتأكد من صدق تفاصيل صغيرة متناثرة هنا وهناك
في الرواية. قد أكون أغفلت ذكر بعضها هنا لكثرتها، لكن ما أورده تاليًا هو كل ما أتذكره.

١. كتاب «الطرد و الإبادة - مصير المسلمين العثمانيين (١٨٢١ - ١٩٢٢)» - جستن مكارثي -
ترجمة: فريد الغزي Death and Exile - The ethnic cleansing of Ottoman Muslims
(1821 - 1922) by Jusitn McCarthy. The Darwin Press, Inc. Princeton, New
Jersey.

٢. كتاب «بيوت أحياء القاهرة القديمة في القرن التاسع عشر» - تأليف: صلاح زكي سعيد -
المجلس الأعلى للثقافة.

٣. كتاب «الإسكندرية الروسية - قدر المهاجرين في مصر» - تأليف: جينادي فاسيليفيتش
جارياتشكين - ترجمة: علي فهمي عبد السلام - المركز القومي للترجمة. وشكر خاص للباحث

السياسي «عبد ه فايد» الذا لفت انتباهي لهذا الكتاب ببوست نشره لمراجعة محتواه على صفحته على فيسبوك.

٤. كتاب «سعد زغلول - سيرة وتحية» - تأليف: عباس محمود العقاد.

٥. الفيلف الوثائقي «سعد زغلول - رموز من الذاكرة» - الجزيرة الوثائقية.

٦. كتاب «العادات والتقاليد في دلتا مصر» - تأليف: دكتور محمد أحمد غنيم - دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية.

٧. صفحة الفنان داود حسني على موقع الهيئة الوطنية للإعلام أو maspero.eg

٨. القصيدة الصوفية الواردة في الفصل الثاني من الجزء الثاني بالرواية من أشعار الشيخ «يحيى نور الدين» رحمه الله. يمكنكم الاستماع إليها على الإنترنت من إنشاد فرقة الحضرة تحت عنوان «أتيت الباب يا أحباب».

٩. المجموعة الروائية «ملحمة القفقاس» للكاتب الأمريكي ذو الأصول الشركسية «محيي الدين قندور» خاصة أجزاءها الأربعة الأولى «سيوف الشيشان» و«كازبك القبرطاي» و«المؤامرة الثلاثية» و«قصة البلقان». مرجع متميز لتاريخ الشركاسة وتفاصيل حياتهم اليومية وعاداتهم وتقاليدهم.

١٠. الفيلف الروائي الطويل «الشركاسة» تأليف و إخراج «محيي الدين قندور»

١١. كتاب «قصة حياتي» - أحمد لطفي السيد - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٢. كتاب «عشرة أدياء يتحدثون» للناقد فؤاد دواره - الجزء الأول: طه حسين - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٣. الإذاعة المصرية.. شاهد على تاريخ مصر - موقع الهيئة العامة للاستعلامات - sis.gov.eg

١٤. نصّ الحجاب الوارد في الفصل السادس من الجزء الرابع بالرواية مأخوذ مع بعض التعديلات البسيطة من رواية «أبو العباس» وهي تمثل الجزء الأول من «رباعية بحري» للكاتب محمد جبريل.

١٥. كتاب «المساجد» - تأليف دكتور حسين مؤنس - ص ٢٨٢ المدرسة المصرية - المعماري ماريو روسي.

١٦. كتاب «أبو العباس المرسي ومسجده الجامع بالإسكندرية» - تأليف حسن السندوبي - مطبعة دار الكتب المصرية.

* تم وضع هذا المشهد الذي يعكس واقع كان يحدث في هذا الزمن الماضي، لكن وجب التنويه إلى أنه أصبح معروفاً الآن أن كل ما هو شائع عن أمر "غشاء البكارة" و"فض بكارة العروس" وكل ما يتعلق بهما من ممارسات ليسوا إلا خرافة لا أساس علمي لها. وحيث أنني لست طبيبة أو متخصصة فلا يجوز لي سوى التنويه العام وتشجيع القارئ على البحث في الأمر والقراءة عنه من مصادر علمية متخصصة.

للتواصل مع الكاتبة

وإرسال آراؤكم في الرواية

من خلال صفحتها الشخصية على الفيسبوك

@NouranKhaledIsmael

هوامش

نظم خديوي مصر مرور ٥٠٠٠ شخص (من أوروبا) إلى مصر على متن مركبه الخاص خلال حرب البلقان الأولى عام ١٩١٢ - كتاب "الطرد والإبادة - مصير المسلمين العثمانيين (١٨٢١ - ١٩٢٢)" لجستن مكارثي - ترجمة فريد الغزي - ص ١٧٩.

يرفل في الثوب: يسير فيه متبخرًا.

زنار: حزام للوسط.

حانوت: محل تجاري

المريدون: أتباع الشيخ وطلبته وأنصاره

الشخشيخة هي جزء من العمارة الإسلامية وكانت تُبنى في البيوت القديمة فوق السلم على سطح البيت. وكان للشخشيخة شبابيك تُفتح للتهوية وتجديد الهواء بصورة دائمة ومستمرة داخل المبنى - كتاب "بيوت أحياء القاهرة القديمة في القرن التاسع عشر" - المصدر الثاني بصفحة المصادر في النهاية.

القصاب: هو الجزار بالعامية.

الحوقلة: لا حول ولا قوة إلا بالله.

جدلة: سعيدة ومبتهجة.

رباطة جأشه: ثباته وشجاعته.

تهللت أساريره: امتلأت ملامح وجهه بالفرح.

شتان ما بين شيئين: كبر وعظم الفرق بينهما.

كنهه: حقيقته.

برجاء مراجعة التعليق تحت علامة (*) في المصادر.

نمرقة: وسادة صغيرة.

يعد يوم السادس عشر من مارس هو يوم المرأة المصرية حيث تحل به ذكرى سقوط ست شهيدات
مصريات أثناء ثورة ١٩١٩. ويتم اعتبارهن أول شهيدات من النساء في تاريخ مصر الحديث.

على مضض: على كره.

مكاري: من يتم استنجاره للنقل والتوصيل باستخدام الدواب أو الحنطور.

ثيب: غير العذراء

ممض: موجه ومؤلم.

تتدثر: تتغطى وتلتف.

توق: رغبة وشوق.

ينكصها: يجعلها تتراجع.

تتماهى: تتداخل.

قيد أنملة: مقدار بسيط جدا كطرف الإصبع.

نزق: طيش وتهور.

على حين غرة: غفلة أو فجأة.

كنف: رعاية وحماية.

القبلة: المولدة - التي تساعد النساء في عملية الولادة (الداية بالعامية).

يصدح: يرتفع بالتغريد والغناء.

أقمطة: قطع قماش يتم لف الرضيع بها.

٣١ مايو ١٩٣٤.

المذيع أحمد سالم.

أسبغ عليه: أفاض عليه

قنوط: يأس

ينبس: يتكلم أقل الكلام.